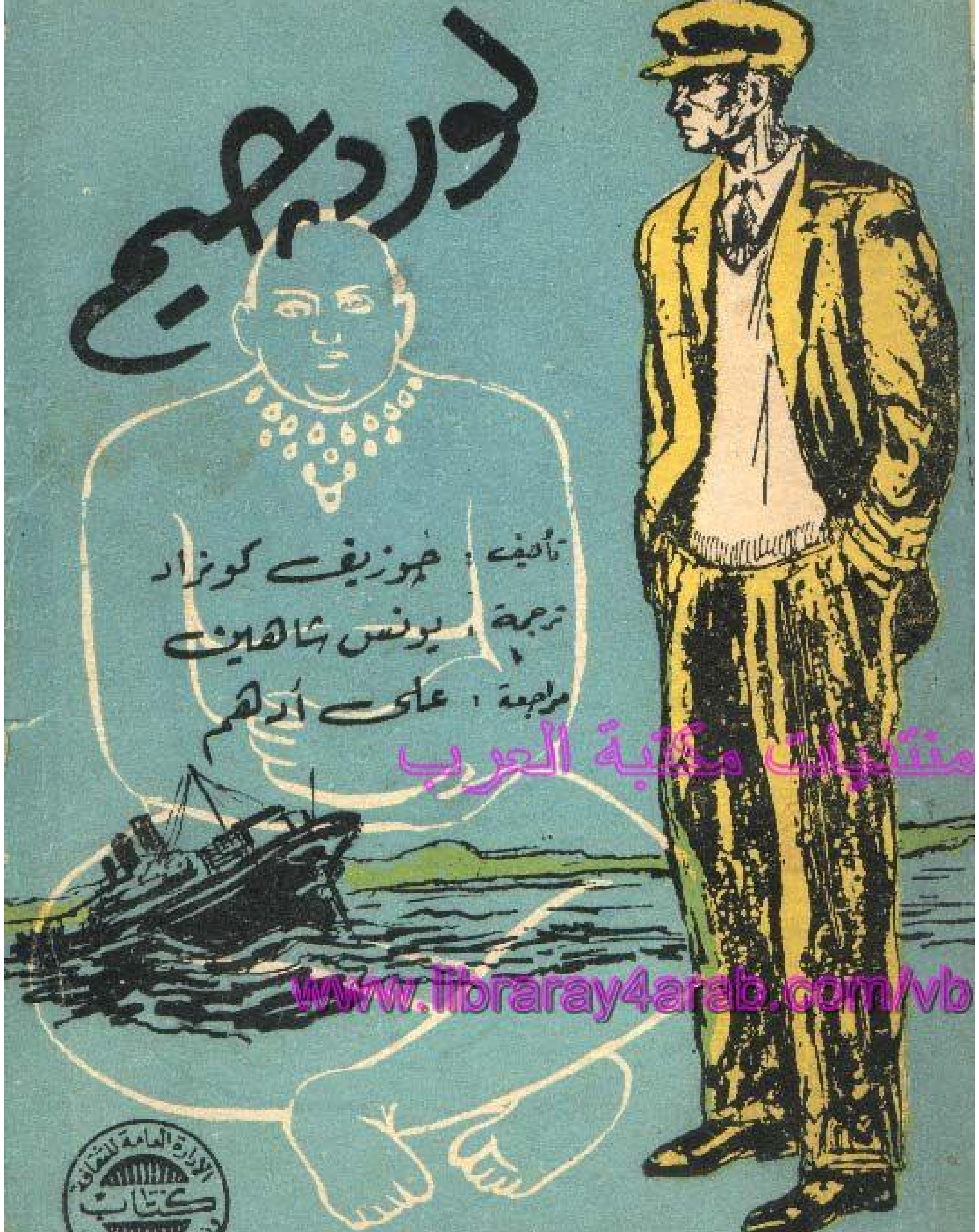
لورد جيم

تأليف : جوزيف كونراد
ترجمة : يونس شاهين
مراجعة : على أدهم



الإدارة العامة للثقافة
كتاب
وزارة التعليم العالى

الألف كتاب ٥٥٣

لورد جيم

إشراف
الإدارة العامة للثقافة
بوزارة التعليم العالي

تصدر هذه السلسلة بمعاونة
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الألف كتاب

٥٥٣

لورد جيم

الجزء الأول

تأليف
جوزيف كونراد

ترجمة
يونس شاهين

راجعه
على أدهم

الناشر
مؤسسة التضامن العربي

١٩٦٠

هذه ترجمة الجزء الاول من كتاب :

LORD JIM

تأليف

Joseph Conrad

مقدمة المؤلف

حين صدرت هذه القصة فى هيئة كتاب شاعت بين الناس فكرة تقول أن القلم قد جمح بى . وقال بعض من نقدوا هذا الكتاب انه بدأ قصة قصيرة ولكن الزمام أفلت بعد ذلك من يد المؤلف — ولقد كان — مصدر تسلية لبعض هؤلاء النقاد انه خيل اليهم أنهم قد اكتشفوا الدليل على ما يقولون من صميم الكتاب نفسه ، فأشاروا الى أن هناك حدودا لا يمكن لراوية القصة أن يتعداها . وعلى ذلك فقد كان من المستحيل فى نظرهم أن نتوقع أن يستمر أحد طوال هذا الوقت فى رواية قصة أو أن يجد أحدا ينصت اليه طوال هذه المدة ، لأن ذلك شىء لا يقبله العقل .

وبعد أن قلبت هذه الفكرة على وجوهها لمدة تقرب من ستة عشر عاما ، لم أجد فى نفسى ميلا الى الاقتناع بها . لأن المعروف أنه من عادة الناس — فى المنطقة الحارة والمعتدلة على السواء — أن يجلسوا معا الى ساعات متأخر من الليل وهم يتبادلون النوادر ولقصص ، وهذه — على كل حال — ماهى الا قصة واحدة وفيها من المقاطعات ما يكفى لاراحة الأعصاب . أما عن قوة احتمال السامعين فيجب أولا أن نسلم بأن هذه القصة مثيرة ومشوقة . فذلك فرض أساسى لامندوحة

عنه . لأنه لولا اقتناعى الكامل بذلك لما أمكننى البدء فى كتابتها . وأما فيما يتعلق بالامكانيات المادية ، فنحن نعلم أن هناك خطبا برلمانية يستغرق القاؤها وقتا هو أقرب الى الست ساعات منه الى الثلاث . فى حين أن ذلك الجزء من الكتاب الذى يرويه « مارلو » لا تستغرق قراءته بصوت عال حسب تقديرى أكثر من ثلاث ساعات وزيادة على ذلك . ولو أنى قد استبعدت من كتابى كل التفاصيل التى لا أهمية لها . فمن الجائز أن نفترض وجود بعض الشراب المنعش فى تلك الليلة ، كبعض المياه الغازية مثلا . كى يساعد الراوى على الاستمرار فى قصته .

ولكنى أترك المزاح جانبا الآن لأروى حقيقة المسألة : أن فكرتى الأولى كانت كتابة قصة قصيرة عن حادث سفينة الحجاج فقط ولا شىء غير ذلك . وكانت فكرة معقولة . وبعد كتابة عدة صفحات وجدت نفسى ــ لسبب ما ــ غير راض عن عملى . وعلى هذا فقد تركت هذه الصفحات جانبا ، لبعض الوقت . ولم أخرج هذه الصفحات من درجها الا حين اقترح على المرحوم مستر وليام بلاكوود أن أساهم بقلمى ثانية فى مجلته .

ولقد أدركت حينئذ فقط أن حادث سفينة الحجاج يصلح بداية طيبة لقصة طويلة منطلقة . وتصورت امكان تأثيره البالغ على تلوين الكيان العاطفى بأكمله لشخص مرهف الحس له

طبيعة بسيطة . ولكن هذه الحالات المبدئيـــة وتلك الهزات الروحية كانت الا تزال غامضة حينئذ . ومن الغريب أنها لا تبدو لى أكثر وضوحا بعد مرور هذا الوقت الطويل .

ولم تكن تلك الصفحات التى نحيتها جانبا بلا قيمة فيمـا يتعلق باختيار الموضوع . ولكنى صممت على اعادة كتابتهـا بالكامل ، وحين جلست للكتـابة علمت أنه سـيكون كتابا طويلا ولم أعلم حينئذ أنه سوف يحتاج الى ثلاثة عشر عددا من المجلة لاتمام نشره .

ولقد سئلت أكثر من مرة هل هذا الكتاب هو الأقرب الى قلبى من بين مؤلفاتى ، وانى أجيب بأنى أكره المحسـوبية ، سواء أكانت فى الحياة العامة أم الخاصـة ، أو حتى فى تلك الصلة الدقيقة بين المؤلف وأعماله . وعلى هـذا فانى أرفض المفاضلة من حيث المبدأ . ولكن ليس معنى هذا أننى من التزمت بحيث أشعر بالحزن أو الضيق ان كان بعض الناس يفضلون «لورد جيم» على بقية أعمالى . أو حتى لا أقـــــوال لهم «أننى لا أستطيع فهم ذلك» .. كلا .. وان كان قد حدث لى مرة أنى أحسست ـ فى مناسبة ما ـ بشعور قوى من الحيرة والدهشة بسبب هذا الكتاب . فقد كان لى صـديق أخبرنى حين رجوعه من ايطاليا ، أنه قابل سيدة هناك لم يعجبها هذا الكتاب . ولقد أسفت لذلك بالطبع ولكن الذى أدهشني هو

سبب عدم رضاها عنه : فلقد أخبرنى صديقى أنها قالت له • «ألا ترى أن كل ما فيه شذوذ وانحراف ؟ »

ولقد أسلمنى هذا الرأى الى التفكير القلق زهاء ساعة من الزمن • وأخيرا ــ وبعد أن أخذت فى اعتبارى غرابة موضوع هذا الكتاب على طبيعة المرأة • وصلت الى نتيجة منطقية حاسمة ــ وهى أن السيدة التى أبدت هذا الرأى لا يمكن ان تكون ايطالية • بل ان من المشكوك فيه امكان كونها أوربية على الاطلاق • وعلى كل حال فمن غير الممكن أن ترى الطبيعة اللاتينية شيئا شاذا أو منحرفا فى شدة احساس الانسان بشرفه المخدوش • ولقد يكون هذا الاحساس الحاد خطأ ، أو يكون صوابا ، أو يحكم عليه الناس بأنه شعور مصطنع ، ولربما لم يكن نمطا من الأنماط الكثيرة المنتشرة فى عالمنا أيضا • ولكنى أستطيع ــ أيا كان الأمر ــ أن أؤكد لقرائى أن جيم ليس ثمرة تفكير شاذ أو منحرف ــ ولا هو وليد ضباب الشمال ، فلقد رأيته رأى العين وهو يمر فى صباح يوم مشمس فى مكان ما فى الشرق ، حيث تلتقى السفن القادمة من كل مكان • وكانت له هيئة جذابة توحى اليك بأن لحياته معنى • وكانت تعلو وجهه سحابة من الحزن حينئذ ، وهو يمشى فى صمت عميق ، كما كان يجب أن يفعل • وكان على بكل ما أشعر به نحوه من عطف أن أجد الكلمات التى تعبر عن المعنى الذى يوحى به •• « انه فرد منا »

الفصل الأول

كان لا يعوز قامته سوى بوصة أو بوصتين لتصل الى ست أقدام . وكان متين البنيان يتقدم اليك فى خط مستقيم ، وفى كتفيه انحناءة خفيفة ، ورأسه ممتد الى الأمام ، وهو ينظر اليك من أسفل الى أعلى نظرة تذكرك بثور مهاجم ، وكان صوته عميقا وعاليا وفى سلوكه تصميم على اثبات ذاته . لا اساءة فيه لأحد . ولعله كان يحس فى اثباته لذاته ضرورة . فقد كانت هذه الخاصية على ما يظهر موجهة الى نفسه على الأقل بنفس القدر الذى توجه به الى الغير . وكان أنيقا يرتدى الملابس البيضاء الناصعة من رأسه الى قدميه بما فى ذلك قبعته وحذاؤه . وكان محبوبا فى موانى الشرق العديدة التى مارس فيها عمله الذى كان يسمى صاحبه « كاتب الماء » مندوبا عن احد متعهدى السفن .

ولم يكن «كاتب الماء» فى حاجة الى تأدية امتحان أيا كان نوعه . ولكن كان لابد له من كفاءة وقدرة من النوع المطلق ، يظهرها عمليا كلما احتاج الأمر . كان عمله هو الدخول فى سباق مع غيره من «كتبة الماء» مستعملا الشراع أو البخار أو المجداف ــ حسب الحالة ــ ليصل قبلهم الى أى

منيئة على وشك أن ترمى مراسيها فى الميناء • ثم يحيى قبطانها بحرارة • ويقدم له — فى تصميم — بطاقة متعهـدى السفن الذين يعمل عندهم • وعند أول زيارة للقبطان الى الشـاطىء كان من الواجب عليه أن يقوده — فى حزم ولباقة — الى دكان فسـيح يشبه المغارة ويحوى كل ما يؤكل ويشرب على ظهر السفن ، وكل ما يجعل السفينة جديرة بالسير فى البحـار ، وكل ما يجعلها جميلة أيضا • من أول طاقم للخطافات لسلكها السميك الى دفتر ورق الذهب لتذهيب الحفـريات الخشبية فى مؤخرتها • وفى هذا الدكان كان يستقبل القبطان استقبال أخ عزيز لمتعهد السـفن الذى يراه لأول مرة • ويجد هناك غرفة للجلوس معتدلة الهواء فيها مقاعد مريحة ، وزجـاجات مليئة بالمشروبات ، وسيجار وادوات للكتابة ، ونسـخة من لائحة الميناء ويجد فوق ذلك ترحيبا حارا كفيلا باذابة الملح الذى تجمع على قلبه خلال ثلاثة أشهر فى البحر •

وكان يحتفظ بهذه الصلة التى ابتدأت كما ذكرنا — طوال بقاء السفينة فى الميناء — عن طريق زيارات كاتب الماء اليومية للقبطان • وكان من واجبات الكاتب ان يكون مخلصا للقبطان اخلاص الصديق ، منتبها لرغبـاته انتبـاه الابن المطيع الى جانب تحليه بصبر أيوب ، والتفانى وانـكار الذات اللذين تظهرهما المرأة العاشقة ، وروح المرح الذى يجده الانسان عند

اخوان الصفاء . وبعد ذلك ترسل قائمة الحساب . وانهـا لوظيفة جميلة وانسانية معا وهـذا هو سبب ندرة كتاب الماء الاكفاء . وعند ما يكون كاتب الماء — الى جانب امتلاكه لتلك الكفاءة وتلك القدرة من النوع المطلق — قد نشيء نشـأة بحرية فانه يساوى مالا كثـيرا فى تقدير مخدوميه ويستحق منهم معاملة خاصة ايضا . ولقد كان جيم يتقاضى مرتبا حسنا دائما . وكان يلقى من التـدليل مايكفى لشراء اخـلاص الشيطان نفسـه . ولكنـه رغم ذلك كان من عادته — فى جحود اسود للجميل — أن يترك عمله فجأة ثم يرحل . وكان مخدوموه لا يعتبرون الاسباب التى يبديها — كعـذر له على هذا العمل — كافية على الاطلاق . فكانوا يقولون عنه بمجرد أن يدير لهم ظهره : «ياله من أبله غبى» وكان هذا هو نقدهم لحساسيته المرهفة .

وكان معروفا باسم «جيم» المجرد — دون اضافة اخرى — عند البيض من رجال الأعمال فى الميـناء وعند قباطنه السفن ايضا . وكان له بطبيعة الحال اسم آخر ، ولكنه كان حريصا على اخـفائه . وكان تنـكره الذى فيه من الثغرات ما يجعله كالغربال لا يهدف الى اخفاء شخصية بل الى اخفاء حقيقة . فاذا ما وجد ان هـذه الحقيقة قد اقتحمت تنـكره وظهرت سافرة من خلاله ، فانه كان يغادر الميناء الذى يعمل فيه حينئذ

ويرحل الى ميناء أخرى ، يكون عادة الى الشرق . وكان سبب تمسكه بالعمل فى الموانى هو انه كان احد رجال البحر المنفيين منه ، وأن قدرته كانت من ذلك النوع المطلق الذى لا يصلح لعمل آخر غير عمل كاتب الماء . فكان يقهقر بانتظام فى اتجاه شروق الشمس وكانت تلك الحقيقة التى يريد ان يخفيها تتبعه متخذه شكل حدث عارض من وحى الصدفة . ولكنها كانت تلحق به دائما كالقدر المحتوم الذى لا فكاك منه . وعلى هذا فقد عرف على مدى السنين فى بومباى وكلكتا ورانجون وبنانج وبتافيا واحدة بعد أخرى . وفى كل هــذه الموانىء كان معروفا باسم « جيم كاتب الماء » دون أضافة أخرى . وبعد ذلك حين دفعه احساســه الحاد بما لم يكن يستطيع احتماله ، الى الابتعاد عن الموانىء البحرية وعن الرجال البيض الى الابد ثم الى الذهاب الى منــاطق الغابات العذراء ، فلقد أضاف رجال الملايو من سكان القرية ، التى كانت تقع وسط الغــابة حيث صحت عزيمة جيم على الاقامة واخـفاء تلك الخاصية المؤسفة — كلمة الى اسمه ذى المقطع الواحد فصــار « توان جيم » ومعناها « لورد جيم » .

وكان جيم قد نشأ فى احدى تلك الدور التى يســكنها قسيس الابراشية فى انجلترا ومن هذه الدور — التى طابعها التقى والسلام — جاء الكثيرون من خيرة ضــباط البحرية

التجارية . ولقد كان والد جيم يعرف مايكفي من الاشياء . التى لا يستطيع أحد أن يحيط بها علما ـ ليجعل من سكان الأكواخ فى ابراشيته اناسا صالحين يتميزون بالتقوى وخشية الله . وذلك دون أن يقلق راحة بال أولئك الذين حبتهم العناية الالهية التى لا تخطىء بسكنى القصور . وكان للكنيسة الصغيرة التى على التل ، ذلك اللون الرمادى الذى تجده لصخرة مغطاة بالحشائش التى تنبت فى الاماكن الرطبة حين ينظر اليها الرائى من خلال ستار مهلهل من أوراق الشجر . ولقد كانت فى موضعها منذ عدة قرون . ولكن من المرجح أن الاشجار التىحولها قد حضرت ارساء حجر الأساس لبنائها . وتحتها كانت الواجهة الحمراء لبيت القسيس ، وهى تلمع بلونها الدافىء ، وسط الخضرة وأحواض الزهر والاشجار الخشبية . وكان هناك ايضا حديقة للفاكهة خلف الدار وفناء مرصوف للاسطبل الى اليسار ، وبيوت منحدرة من الزجاج لتربية النباتات على طول الحائط المبنية من الطوب . ولقد ظلت هذه الوظيفة فى الاسرة لعدة اجيال ولكن جيم كان احد خمسة أولاد وعلى ذلك حين أبدى رغبته فى العمل فى البحار بعد الانتهاء من دراسة منهج خفيف فى الأدب فقد أرسل فى الحال الى « سفينة تدريب لضباط البحرية التجارية » .

ولقد تعلم هناك شيئا من حساب المثلثات وكيفية العبور الى مكان الشراع فى السفينة وكان محبوبا بوجه عام • وكان يشغل المركز الثالث فى الملاحة وكان ايضا أحد بحارة القارب الأول • ولما كان ثابت الجأش وكانت لياقته البدنية ممتازة فقد كان فى غاية المهارة فوق السمت فى أعلى الشراع وكان مكانه فى أعلى السطح الامامى للسفينة ، وكثيرا ما كان ينظر من هذا المكان الى أسفل ــ فى احتقار ــ كما يفعل الرجل الذى قدر له ان يصنع المجد وسط المخاطر ، فكان يرى السقوف الكثيرة للبيوت التى يرفرف عليها السلام وقد قسمها مد المجرى الذى له لون البن الى قسمين فى حين انتشرت مداخن المصنع فى الحدود الخارجية للسهل الذى يحيط بالسفينة عمودية على السماء التى أعتمها الدخان الاسود ، وقد بدت كل منها فى نحافة قلم الرصاص وهى تلفظ دخانها الاسود كالبركان • وكان يستطيع أن يرى السفن الكبيرة أيضا وهى ترحل ، والمعديات العريضة فى حركتها الدائبة والقوارب الصغيرة وهى تطفو على مسافة كبيرة تحت قدميه • ثم عظمة البحر فى غلالته الرقيقة من الضباب على البعد •••• ثم الأمل فى حياة مثيرة وسط دنيا المغامرات •

وكان حين وجوده على سطح السفينة السفلى وسط زحام

الاصوات المنبعثة من مائتين من اقرانه ، ينسى نفسه ويسبق عمره بالعيش فى خياله فى حياة البحر ، كما تصفها قصص المغامرات فى الأدب الخفيف . فكان يتصور نفسه وهو ينقذ ركاب السفن التى تغرق ، قاطعا الشراع وقت هبوب العواصف، عائما فى بحر مضطرب يجر قاربا وراءه بحبل . أو وهو وحيد على جزيرة مهجورة حافى القدمين — نصف عار — يبحث بين الصخور عن بعض سمك الاصداف ليبعد به عن نفسه شبح الموت جوعا .... أو وهو يواجه الرجال المتوحشين فى المناطق الاستوائية .... أو وهو يقضى على تمرد البحارة فى عرض البحر أو وهو فى قارب صغير يلعب به الموج وسط المحيط وهو يرفع بشجاعته من معنويات الرجال اليائسين .... وبالاجمال كان يتصور نفسه دائما كمثل أعلى للتفانى فى تأدية الواجب ، وكبطل من أبطال القصص الذين لا يعرفون الخوف أو التردد . وحدث مرة وهو على السطح السفلى للسفينة أن سمع صوتا يقول . « ان شيئا قد حدث . تعالوا سريعا» فقفز واقفا على قدميه . وتزاحم الفتية من حوله صاعدين الدرج ، وسمع فى السطح العلوى حركة كبيرة وصراخا . وحين خرج بدوره من فتحة السفينة الى الطابق العلوى وقف ساكنا كالمشدوه .

وكان ذلك فى غسق يوم من أيام الشتاء . وكانت الرياح

قد نشطت منذ الظهيرة فأوقفت كل حركة للمرور فى النهر . واشتدت الآن حتى أصبحت زوبعة تقصف فى انفجار متقطع وكأنها عدد من المدافع الكبيرة تطلق قنابلها فوق المحيط . وانحدر المطر مائلا وكأنه غلالة من خيوط الماء المتلاصقة تضرب الأرض ثم تختفى . وكان جيم يستطيع أن يميز بين الفينة والفينة تهديد موجه المد الزاحفة ، والقوارب الصغيرة على طول الشاطىء وهى تهتز مرتعدة فى كل آتجاه ، والبنايات الثابتة وسط الضباب المتحرك ، والمعديات العريضة وهى تغوص وتطفو مربوطة الى مراسيها . ثم اختفى كل ذلك عن نظره حين هبت الريح مرة أخرى . وقد خيل اليه أنها نفخت كل هذه المناظر بعيدا عنه . ثم رأى الهواء مشبعا بالماء الطائر . وبدا له أن هذا النوء ارادة ضارية وأن فى صرير الريح و ثورة السماء والارض تصميما غاضبا موجها اليه بالذات . فأمسك بانفاسه خوفا ووجلا ووقف ساكنا وهو يشعر كأن شيئا يدور به حول نفسه .

وكان الطلبة يصطدمون به ويزيحونه عن طريقهم وحين صاح صوت : « الى القارب » تدافعوا بسرعة بعيدا عنه ، وكان ماحدث هو ان احد قوارب الساحل الصغيرة وهو يجرى باحثا عن ملجأ قد اصطدم صدمة شديدة بسفينة راسية وتصادف ان رأى ذلك أحد المدرسين فى سفينة الطلبة .فتسلق

كثير من الطلبة حاجز السفينة حين سمعوا بذلك وازدحموا حول احد الروافع التى تستعمل فى انزال القوارب وقال احدهم ردا على سؤال وجه اليه : « انه تصادم حدث على مسافة قريبة من مقدمة السفينة ولقد رآه مستر سيمونز » ... ثم أحس جيم بدفعة كادت تفقده توازنه لولا أنه استطاع أن يمسك بحبل وهو يصطدم بالشراع الثالث . وكانت السفينة القديمة بمعداتها القليلة ترتعش بكل جزء فيها وهى مربوطة بالسلاسل الى مراسيها ، وتنحنى بهدوء أمام الريح محدثة صوتا عميقا لعله صدى تلك الانشودة التى تلهث لها الأنفاس ، أنشودة شبابها عبر البحار . وفى لهجة الامر صاح صوت يقول « أنزلوا القارب » . ورأى القارب وقد اخذ البحارة مكانهم فيه ينزل بسرعة مارا امام حاجز السطح الذى كان فيه . فجرى وراءه ولكنه سمع صوت ارتطامه بالماء والصوت الآمر يقول « دعوه الآن . وافصلوا الرافعة » . فانحنى على الحاجز . ورأى القارب فى الظلام الذى أخذ يتجمع حوله وهو يحاول عبثا أن يفلت من الريح وموجة المد اللتين أخذتا بتلابيبه وشلتا حركته ، مما جعله برهة من الزمان ثابتا فى مكانه أمام السفينة يعلو وينخفض فى الماء ثم وصل الى سمعه — فى صعوبة — صوت يصرخ من القارب قائلا : « اضربوا الماء معا ايتها الحيوانات الصغيرة ان كنتم

تريدون انقاذ أحد » • وارتفعت مقدمة القارب فجأة وقفز ومجاذيفه الى اعلى فوق موجة خلصته من ربقة المد والريح •

ثم شعر جيم بيد تضغط على كتفه بشدة وسمع صوتا يقول : « لقد فات الوقت ايها الشاب » وكان ذلك صوت قبطان السفينة وهو يضع يده على الفتى محاولا اثناءه عن عزمه حين رآه يوشك ان يرمى بنفسه الى الماء ونظر جيم الى أعلى وفى عينيه اثر الهزيمة فابتسم القبطان له فى عطف وقال : « ارجو ان تكون اسعد حظا فى المرة القادمة وسيعلمك ذلك ان تكون اكثر استعدادا للتصرف فى الوقت المناسب » •

واستقبل القارب حين رجوعه هتاف عال • وجاء يرقص فى إتجاه السفينة وقد امتلأ نصفه بالماء وقبع فى قاعه رجلان خارت قواهما • ولقد بدت ثورة البحر وتهديد الريح فى عينى جيم الآن وكأنهما شىء لا يستحق غير الاحتقار ، ولقد زاده ذلك شعورا بالآسف على ما اعتراه من الخوف حيال تهديدهما الأجوف • وصار يعرف الآن موقفه منهما • فلقد اتضح له الآن أنه لا يعبأ مطلقا بالعواصف وأنه يستطيع ان يواجه أخطارا اعظم من ذلك بكثير ، ويمكنه أيضا مواجهة هذه الاخطار خيرا مما يستطيع أى شخص آخر • فلم يعد فى نفسه الآن ذرة واحدة من الخوف • ومع ذلك فلقد جلس وحده يفكر فى ذلك المساء الذى فاز فيه ببطولة السطح

السفلى للسفينة ، ذلك الفتى الذى كان يجلس فى مقدمة القارب . وكان لهذا الفتى وجه فتاة ، وعينان رماديتان كبيرتان ، وقد ازدحم حوله الكثيرون يسألونه باهتمام .
وجلس هو فى وسطهم يروى قصته فقال : « لقد رأيت رأسه طافيا فأسرعت برمى خطاف القارب فى الماء فنفذ الى سراويله وكدت أسقط عندئذ فى الماء . ولقد شعرت اننى على وشك السقوط فعلا لولا ان سيمونز العجوز ترك عمود الدفة وأمسك برجلى ، وكاد القارب أن ينقلب من جراء ذلك ، وانى لأعتقد أن سيمونز العجوز رجل فى غاية الطيبة ومكارم الاخلاق وأنا لا استاء مطلقا من طريقة معاملته الخشنة معنا . فلقد ظل يسبنى ويلعننى طوال امساكه برجلى ولكنى كنت أعلم فى نفس الوقت أن هذه هى طريقته فى التأكيد على بالاحتفاظ بخطاف القارب . ان سيمونز العجوز سريع التأثر . أليس كذلك ؟ » ثم استمر يجيب على الأسئلة ويروى بقية القصة فقال : « لا . لم يكن الرجل الصغير الاشقر . بل كان الرجل الآخر الضخم ذا اللحية . وحين سحبناه الى القارب كان يصيح : « رجلى . رجلى » ثم أغمض عينيه . أكنتم تتصورون ان رجلا ضخما كهذا يفقد وعيه كالفتيات . أيمكن أن يغمى على أحد منكم بسبب جرح خطاف ؟ انى لا اعتقد انه من الممكن ان يحدث لى ذلك . لقد دخل الخطاف فى رجله بهذا المقدار » ثم أراهم الخطاف ، الذى كان قد

أحضره معه لهذا الغرض • ولقد أحدث ذلك الاثارة المطلوبة بينهم • ثم قال جوابا على السؤال الاخير : « كلا أيها الأبله • إنها لم تكن رجله بل سرواله الذى تحمل العبء الاكبر فى عملية الانقاذ • ولكن كان هناك دم غزير بالطبع » •

ولقد رأى جيم فى هذه القصة استعراضا للغرور يدعو للرثاء • واعتبر أن العاصفة قد أرضت نوعا كاذبا من البطولة فى ذلك الفتى شديد الشبه بطبيعتها فى اصطناع الرعب • وشعر بغضب على ثورة السماء والأرض حين أخذته على حين غرة ، وفوتت الفرصة ظلما على ذلك الاستعداد الكريم فى طبيعته لركوب الأخطار • وفيما عدا ذلك فقد كان مغتبطا لعدم ركوبه القارب حيث استطاع من لا يرتقون الى مستواه أن يحققوا الغرض • ولقد استطاع أن يضيف الى علمه وهو يشاهد هذا الحادث ما لم يستطعه اولئك الذين اشتركوا فيه بجهودهم • فلقد عرف الآن — أنه حين يتردد الجميع — فسيكون الوحيد الذى يعرف كيف يجابه التهديد الكاذب للمد والريح — لقد عرفهما الآن على حقيقتهما • فلو حكمنا عليهما بعيدا عن العاطفة لما كان لهما غير الاحتقار • ولقد اختفى الآن كل اثر للعاطفة فى نفسه وأصبحت الحصيلة النهائية لذلك الحدث الكبير فى تأثيره عليه هو انه كان يجلس بعيدا عن زحام زملائه ودون أن يشعروا به ليتلذذ بشعور السعادة المنبثق من ثقته الجديدة التى لا حد لها فى طبيعته النهمة للمغامرات واحساسه بشجاعته فى كل ميدان •

الفصل الثانى

وبعد عامين من التدريب ذهب الى البحر . وحين دخل الى تلك الأقطار التى كان يعرفها حق المعرفة فى خياله ، وجدها خلوا تماما من المغامرات . ولقد قام برحلات كثيرة وعرف الرتابة السحرية للوجود بين السماء والماء . واضطر ان يتحمل نقد الرجال ، وما يفرضه عليه البحر من مطالب قاسية ، وأن يصبر على مصاعب عمله اليومى المسئم الذى يكسب منه قوته ، والذى كان جزاؤه الوحيد هو فى حب المرء الكامل له ، ولم يكن هذا الجزاء من نصيبه . ومع ذلك فلم ينكص على عقبيه لأنه ليس هناك ما هو أشد اغراء ولا ابعث على خيبة الامل ، ولا ما هو أشد استعبادا للمرء من حياة البحر . والى جانب هذا ، فلقد كان لهمستقبل باسم فى البحر . ولما كان «جنتلمانا» ، ثابت الجنان ، سهل القيادة، له دراية تامة بواجبات عمله ، فقد ساعد ذلك على حصوله بمرور الوقت ، وهو لا يزال بعد صغير السن جدا ، على مركز ضابط أول لسفينة جميلة دون أن يجتاز ذلك الامتحان الرهيب لذلك النوع من احداث البحر الذى يظهر فى ضوء النهار الساطع قيمة الرجل الدفينة ، وقوة

احتماله ، وصلابة عوده ، ومقاومته للشدائد وما قد ينطـوى عليه من زيف . ويظهر كل ذلك لا للناس فقط ، ولكن لذات الممتحن ايضا ليتعرف على نفسه .

ولم يصادف حيم طوال ذلك الوقت الذى مر منـــذ حـادث سفينة التدريب غير مرة واحدة ، رأى فيهـــا ما فى غضب البحر من جدية وتصميم . ولكن الحقيقة لا تظهر سافرة فى معظم الاوقات ، كما قد يكون الاعتقاد السائد . فللأخطار — سواء فى المغامرات أو الانواء — ظلال كثيرة تختلف كثافتهـا باختلاف الظروف . ولا يحـدث الا فى فترات قليلة متباعدة ان يلمح الانسان على وجه الحقائق تلك النية السوداء التى تنذر بالعنف . ذلك الشـعور الذى يصعب تعريفه ، والذى يفـرض نفســه على عقـل الانسان وقلبه ، بأن التعقيد فى الأحداث ، وتلك الثورة الجياشة لعناصر الطبيعة ، انما تتجه اليه بالذات ، وتجعل منه هدفا لهجومها الحاقـد فى قـوة لايمكن التحكم فيها ، وقسوة لا سلطان لأحد عليها . فيعتقد انها تريد تمزيق الأمل والخوف كليهما عن قلبه . وابعـــاد ألم الاجهاد ، والشوق الى الراحة ، عن كيانه . وتريد سحق وهدم ومحو كل ما رآه وعرفه واحبه واستمتع به وكرهــه . وكل ما لا يقـدر بثمن ، وما هو ضرورى كضـوء الشمس والذكريات والمستقبل . تريد كنس دنياه العزيزة بعيـدا عن ناظريه بذلك العمل السهل الفظيع الا هو سلبه الحياة .

ولقد حدث أن وقع على جيم عمــود من اعمدة الشراع أفقده الحركة . وكان ذلك فى الايام الأولى من اسبوع ، كان القبطان الاسكتلندى يصفه دائما بعد انقضائه بقوله : « انها لمعجزة من المعجزات أن استطاعت السفينة أن تصمد لأحداثه ». واضطر جيم بسبب اصــابته ان يمضى أياما كثيرة راقدا على ظهره ، وهو فاقد الصواب ، فاقد الأمل ، يشعر بالألم والعذاب وكأنما قد ســقط فى هوة عميقة من اليأس والقلق ، لم يعد يحفل معها كيف تكون النهاية . ولو أنه فى لحظات وعيه كان يبــالغ فيما يقــوله لنفســه عن عــدم اهتمامه بذلك .... والخطر ــ حين لا يرى ــ يتشكل فى تلك الصورة الناقصة الغامضــة التى هى من خصــائص فكر الانسان ، ويصبح الخوف ظلا من الظلال ، وحين لا يجد الخيال ــ وهو عــدو الناس وأصل جميع مخاوفهم ــ ما يلهبه فانه يغوص فى بطء الى الســكون الذى تخلد اليه العاطفة نتيجة للارهاق . ولم يكن جيم يرى شيئا فى بقية هذا الأسبوع غير الفوضى التى صنعتها حركة السفينة فى قمرته فلقد كان يرقد هناك مربوطا الى قطعة من الخشب وسط ذلك الخراب فى عالمه الصغير وقد شــعر سرا بالغبطــة لأنه لم يكن مضطرا للصــعود الى السطح . ولكنه كان يحس بين حين وآخــر بهجــوم من العذاب لا سيطرة له عليه يأخذ بتلابيبه فجــأة ، ويجعــله يتنفس بصعوبة شديدة ويتلوى تحت غطاء الفراش . وحينذاك

كانت هذه الوحشية التى لا عقـل لها للوجود والتى كـانت تخضعه الى هذا الاحساس بالعذاب تملؤه برغبة يائسـة للهـروب مهما كان الثمن ..... ولكن الجـو تحسن بعد قليل . ونسى جيم كل شيء عن ذلك . ولكن عرجه استمر . فاضطر الى مغادرة السـفينة حين توقفت فى مينـاء شرقى . وذهب الى المستشـفى . ولما كان شـفاؤه بطيئا فلقد تركته السفينة وراءها ورحلت .

ولم يكن هنـاك غير رجلين معه فى عنبر الرجـال البيض بالمستشفى . احدهما ضابط صـغير فى قارب حربى ، وكان قد كسرت رجله حين سقط من فتحة السفينة بين طابقين . والآخر رجل له صـلة بمقاولات الخطـوط الحـديدية فى ولاية مجاورة ، وقد اصيب بأحد تلك الامراض الغامضة من امراض المناطق الحارة . وكان يعتقد ان طبيب المستشفى حمار . ثم يسرف فى تعاطى الأدوية الجاهزة التى كان يهربها له خادمه « التاميل » بهمة لاتعـرف الـكلل . وكان الرجـال الثلاثة يجلسون معا ليقصوا تاريخ حيـاتهم أو ليلعبوا الورق فى بعض الاحيان ، أو كانوا يقبعون فى كراسيهم المريحـة طوال النهار يتثاءبون فى «بيجاماتهم» ولا ينطق أحدهم بكلمة . وكانت المستشفى مقامة على تل ، ويدخل اليها النسيم العليل من نوافذها التى كانت مفتوحة دائما على مصراعها حـاملا

معه الى الغرفة العارية شيئا من ليونة السماء ، وطراوة الارض ، وانفاس مياه الشرق الساحرة ، وكانما كان في هذا النسيم عطر وايحاء بالراحة الابدية ، ومنحة من الاحلام التى لا نهاية لها . وكان جيم ينظر — كل يوم من فوق تجمعات الأشجار فى الحدائق ، والى أبعد من سقوف البيوت فى المدينة ، ومن فوق سعف النخل النامى على الشاطىء الى ذلك الميناء الذى كان ملتقى خطوط الملاحة . وعلى الطريق الرئيسى للشرق ، وقد انتشرت عندها عقود الجزر الصغيرة كالنقط على صفحة زرقاء واضاءتها الشمس الساطعة وظهرت السفن فيها كاللعب . وكانت الحركة الدائبة فيها تحت أشعة الشمس أشبه بالمهرجان فى يوم عطلة . وكانت تلك السكينة الأبدية لمياه الشرق فوقها ، وسلام بحار الشرق الباسم ، ممتدين الى أبعد نقطة فى أفقها .

وفى اللحظة التى استطاع فيها جيم أن يمشى دون حاجة الى عصا ، نزل الى البلد ليبحث عن طريقة يعود بها الى وطنه . ولكنه لم يوفق حينئذ الى ذلك . وكان فى فترة الانتظار يختلط بالطبع مع أهل مهنته فى الميناء . وكانوا فريقين : فريق منهم — قليل العدد ويندر رؤية أفراده هناك — يعيش المنتمون اليه عيشة غامضة ، ويحتفظون بنشاط موفور ويتميزون بحدة طبع القرصان وعيون الحالمين . ويظهر أن حياتهم

كانت فوضى من الخطط والآمال والاخطار والمشاريع • فى الأماكن التى لم تصلها الحضـارة بعد ، من المجاهل المظلمة للبحار • ولعل الشىء الوحيد الذى كان يستطيع العقل ان يجزم بتحقيقه فى هذه الحياة الخيالية التى يمارسونها لم يكن الاموتهم •• أما الفريق الآخـر — وهم الغالبية العظمى — فكان من الرجال الذين ساقتهم الصدف مثله الى هذا المكان ثم استقروا فيه وعملوا كضباط للسفن المحلية فى تلك الأنحاء واصبح الفزع يتملكهم من مجرد التفكير فى الخدمة على سفن بلادهم بشروطها الصعبة ونظرتها الصارمة الى الواجب ، والأخطار التى تحيط بها فى المحيطات العاصفة • فلقد أصبح هذا الفريق الآن لا يصـلح لغير السلام والدعـة فى مياه الشرق وتحت سمائه • فهم لا يحبون الا الرحلات القصـيرة وكراسى السطح المريحة ، وأطقم البحارة الوطنيين بأعدادهم الكبـيرة • ثم تلك الميزة العظمى وهى بيـاض بشرتهم • أما العمل الشاق ، فان الرعشة كانت تصيبهم لمجرد التفكير فيه • وكانت حياتهم مريحة ولكن لا ضمان فيها • فهم اما على وشك الطرد من عمل قديم أو على وشـك الالتحاق بعمل جديد • وكانوا يخدمون كل سيد من عرب وصينيين ومولدين بل لم يكن لديهم مانع من خدمة الشيطان نفسه اذا جعل خدمتـه سهلة ومريحة بما فيه الكفاية ••• وكانوا دائما يتحدثون عن تغيير الحظ : كيف كان من حظ فلان ان حصـل على قيادة

قارب فى ساحل الصين وهو عمل خفيف لطيف ، وكيف ان علانا حصل على وظيفة فى اليابان ، أو فى البحرية السيامية يسرت له العيش الرغيد ، ومجمل القول ان الانسان كان يلمح فى حديثهم ، وفى أعمالهم ، وفى اشخاصهم ، وفى قسماتهم تلك الرخاوة وذلك العفن ، وذلك التصميم على الاسترخاء فى راحة وأمان ، طيلة وجودهم فى دنيا الاحياء .

وفى أول الأمر — حين استعرضهم جيم كرجال من رجال البحر — لم ير فيهم ألا أشباحا لا حقيقة لوجودها ، لكنه بمرور الوقت وجد نفسه مأخوذا بهؤلاء الرجال وما يظهر انهم يحصلون عليه من رغد العيش لقاء تلك النسبة الضئيلة من الجهد أو المخاطرة . ووجد بعد ذلك أنه كان ينمو عنده الى جانب شعوره الأول بالاستعلاء عليهم — شعور آخر جعله يترك فكرة العودة الى الوطن فجأة ، ويقبل وظيفة الضابط الأول للباخرة « بتنا » .

وكانت « بتنا » باخرة من عمر التلال ، نحيفة القوام كالكلب السلوقى ، علاها الصدأ حتى أصبحت كخزان للمياه تقرر اعدامه لعدم صلاحيته . وكانت ملكا لرجل صينى . وقد أجرها رجل عربى . . وعقد لواؤها لألمانى تنكر لجنسيته واستبدل بها الجنسية الأسترالية . وكان هذا الرجل الأخير حريصا على لعن بلاده التى نشأ فيها امام الناس

دائما . ولكنه وكان ذلك لاتتعـار سياسة بسمارك على ما يظهر كان حريصا أيضا على استعمال وسـائل الظلم والعسف مع كل من لا يخافه ، وأن يظهر بمظهر الحديد والدم الى جانب أنفه القانى وشاربه الأحمر . وبعد أن طليت الباخر «بتنا» من الخارج،ثم بالطلاء الأبيض من الداخل أيضا سيق اليها ثمانمائة من الحجاج — تحت العجز و الزيادة — حيث كانت تقف الى جانب رصيف خشبى ، وهى على أهبـة الاستعداد للسفر والبخار حاضر فيها . وكان الحجاج يدخلون اليها من ثلاثة مداخل يحدوهم الايمان والأمل فى جنـات النعيم دون كلمة ، أو همسـة ، أو نظـرة الى الوراء ، ودون صوت غير ما يحدثه وقع اقدامهم العارية وجرها ، حتى أذا ما أجتازوا المداخل بين حواجزها على الجانبين ، أنتشروا ليملأوا السطح ، ويفيضوا على السفينة من مقدمتهـا الى مؤخرتها ، وينزلوا من فتحاتها ليحتلوا كل فجوة فيها وكأنهم الماء وهو يصب فى حوض ، ويسيل فى كل منفذ فيه ، ويصعد حتى يبلغ الى مستوى حافته ... ثمانمائة رجل وامرأة . بايمانهم وآمالهم ، ومشـاعرهم وذكرياتهم . وقد أتوا من الشمال والجنوب ، وحدود الشرق البعيدة ، بعد أن شقوا طريقهم فى دروب الغابة ومنازل الانهار ، بعـد أن ركبـوا كتل الخشب فى الميـاه الضحلة ، والقوارب للوصـول من

جزيرة الى جزيرة • وبعد أن رأوا العذاب وشاهدوا العجائب ، وأحاطت بهم المخاوف التى لم يألفوها • ولقد صمدوا لذلك جميعا ، تحدوهم رغبة واحدة • ثمانمائة حضروا من أكواخهم المنعزلة وسط القفاز الموحشة ، أو من قراهم المزدحمة وسط المزارع ، أو على شـاطىء البحر • وتلبية لنداء قـلوبهم تركوا غاباتهم ، وتركوا الارض التى أخلوها من الأشـجار بكدهم وكدحهم • وتركوا حماية حكامهم ، وتركوا ثرواتهم وتركوا فقرهم وملاعب صباهم وقبور ابائهم • وحضروا الى السفينة يغطيهم العرق والتراب والوحل والاسمال • الرجـال الاقوياء على رأس أسرهم ، والرجال المسنون يجاهـدون فى خطوهم الى الامام وقد فقدوا الأمل فى الرجوع من رحلتهم سالمين • ثم الاولاد الصغار وفى نظراتهـم الجريئـة حب الاستطلاع والبنات الصغيرات الخجلات بشعورهن المرسلة ، والنساء وقد اختفين فى البردة واطفالهن وقـد التصـقوا بصدورهن تحت أطراف الطرح ، أولئك لحجاج الصـغار من ابناء هذه العقيدة الصارمة الذين لا يدركون بعد انهم يؤدون فريضة من فرائضها • (١)

---

(١) من الواضح أن المؤلف لـم يكن يعرف الكثير عن الاسـلام لانه وصفه بالصرامة اكثـر من مرة ، ولم يعرف انه دين اليسر .

وقال القبطان الألمانى لضابطه الأول الجديد . « أنظر الى هذه الماشية » . وكان آخر الوافدين الى السفينة رجلا من العرب . كان هو قائد هذه الرحلة المباركة . وكان حسن المنظر تحف به المهابة فى قفطانه الأبيض وعمته الكبيرة . وقد تبعه صف من الخدم يحملون متاعه . وأخيرا ابتدأت السفينة تتحرك مبتعدة عن الرصيف . وكانت تسير بين جزيرتين صغيرتين . وقد عبرت المكان الذى ترسو فيه السفن الشراعية . ثم انحرفت فجأة لترسم نصف دائرة فى ظل أحد التلال ثم سارت بعد ذلك قريبا من بعض الصخور المغطاة بحباب الماء ووقف العربى فى مؤخرة السفينة يتلو صلاة المسافرين فى البحر فطلب من العلى القدير أن يبارك هذه الرحلة ، وأن يجزى عباده المؤمنين خير الجزاء ما تجشموا من مشاق وعلى قدر ما تحويه قلوبهم العامرة من نيات الخير وكانت السفينة تطوى فى طريقها مياه المضيق عند الغسق ووراءها فنار ارساه « الكفار » على هذه الصخور الخائنة التى تختفى تحت الماء . ولقد بدأ ، وكأنه يرمش للسفينة بعين من لهيب ، ساخرا من رسالتها المقدسة .

ثم انتهت السفينة من عبور المضيق ، ثم الخليج ، واستمرت فى سيرها طبقا لما يسمى فى الملاحة « بالدرجة الواحدة » ميممة وجهها شطر البحر الأحمر تحت سماء هادئة

مشتعلة خالية من السحاب • وفى ضوء الشمس المتوهج الذى يقفل تفكير الانسان ويثقل قلبه ويقضى على كل بادرة للنشاط أو القوة فيه • وتحت هذه العظمة المهلكة للسماء كان البحر الازرق العميق هادئا كالزئبق ، كثيفا ، آسنا وميتا لاحركة ولا موجة صغيرة ولا حتى تجعيدة على سطحه الأملس • وكانت السفينة « بتنا » تمر فى هذا البحر ملء العين ، لا معة تنزلق فى يسر تاركة وراءها على السماء شريطا أسود من الدخان وعلى الماء شريطا أبيض من الحباب كان يختفى فى الحال كما لو كان وهما لأثر يحدثه شبح سفينة فوق بحر لا حياةفيه •

وفى كل يوم كانت الشمس وكأنما رتبت حركتها فى السماء ، طبقا للمسافة التى يقطعها الحجاج نحو مكة تظهر فجأة فى انفجارها الضوئى على نفس المسافة خلف السفينة ، ثم تلحق بها وقت الظهيرة • وهى تصب نار أشعتها المركزة على قلوب الرجال الاتقياء صبا مارة بعد ذلك فى طريقها الى مستقرها حيث تغطس فى مياه البحر بتلك الطريقة الغامضة — مساء بعد مساء — حافظة لنفس المسافة بينها وبين مقدمة السفينة وهى تسير ، وكان الرجال الخمس البيض يعيشون فى أعلى السفينة عند وسطها بعيدين عن بقية الشحنة الآدمية التى تحجبها عن نظرهم الخيمة التى تغطى

السفينة من أولها الى آخرها • ولم يكن هناك ما يجعلهم يحسون بهذا العدد الكبير من الناس فوق مياه المحيط المشتعلة ، بما تعكس من أشعة الشمس ، غير طنين ضعيف ، أو همس هادىء ، لأصوات حزينة • وهكذا مرت الايام ساكنة حارة ، ثقيلة ، مختفية فى جوف الماضى واحدا بعد واحد ، كما لو كانت تسقط فى هوة فغرت فاها وراءالسفينة لا تبرحها • وظلت السفينة فى عزلتها تحت تلك النفثة الخفيفة من الدخان الاسود تجرى فى طريقها المرسوم ، سوداء مشتعلة ، فى الفسحة الهائلة لهذا العالم المتضىء ، كما لو كانت تحترق بلهب سلط عليها دون رحمة من السماء • ثم كانت الليالى تهبط عليها بعد ذلك وكأنها لطف من عند الله •

الفصل الثالث

وساد العالم سكون رائع ، وبدا وكأن النجـوم ومـا في أشعتها من سكينة ، قد أضفت عليه شعورا بالطمأنينة والأمان الدائمين . وكان القمر الصغير هلالا يسطع في الغرب قريبا من الأرض كقطعة ضئيلة من النشارة ، انفصلت عن عمود ذهبي . وكان بحر العرب أملس باردا حين تنظر اليه وكأنه صفحة من الثلج ، امتد سطحها الكامل الاستواء الى الدائرة الكاملة للافق المعتم . وكان محرك السفينة يدور دون عائق كما لو كانت ضرباته جزءا من طبيعة الكون الذى يوحى بالأمان . وعلى كل جانب من جانبى السفينة كان هناك ... تجعيدتان عميقتان من الماء ، دائمتان ، ومعتمتان على تلك الصفحة المضيئة الملساء ، وبين حافتيهما المستقيمتين المنفرجتين المتباعدتين بعض دوامات صغيرة من حباب الماء تنفجر فى حفيف خافت ، وبعض المويجات ، وبعض الدوائر ، وبعض الارتفاعات والانخفاضات التى كانت حين تتخلف وراء السفينة ، تسبب اضطرابا لسطح البحر بعد مرورها للحظة قصيرة . ويهدأ البحر بعدها الى حركة بطيئة ، ثم يختفى الاضطراب بعد ذلك فى حدود الدائرة الهادئة التى يرسمها التقاء الماء والسماء . وفى مركزها دائما كانت تتحرك تلك النقطة السوداء لهيكل السفينة .

وكان جيم على سطح القيادة ، يسرى فى كيانه احساس قوى من الاطمئنان والسلام ، اللذين لاحد لهما ، وهو يقرأهما على ذلك الوجه الهادىء للطبيعـة ، كما لو كان يقرأ يقـين الحب الدافق على وجه أم ارتسم الحنان الهادىء على قسماته • وتحت سقف الخيمة الأبيض كان الحجاج نائمين ، وقد استسلموا الى حكمة الرجال البيض والى شجاعتهم ، وأمنوا الى قوتهم وهم كفار ، والى الهيكل الحديدى لسفينتهم التى تسير بالنـار • ولقد نام هؤلاء الحجاج الذين ينتمون الى تلك العقيدة الصارمة على الحصير ، أو على البطاطين ، أو على الخشب العارى ، على كل سطح فى السفينة وفى كل ركن مظلم فيها ، وقـد لفـوا أنفسهم فى قماش مصبوغ وتلفعوا بأسمال قذرة ، ورؤوسـهم مسندة الى صرر صغيرة ، ووجوههم على أذرعهـم المثناة •• الرجال والنساء والأطفال منهم ، وقد اختلط الشيوخ بالشباب والعجزة بالأقوياء ، وتساوى الجميع فى النوم الذى هو أخـو الموت •

وكانت هناك نسمة من الهواء ، تهب من الأمام بسبب سرعة السفينة ، وتسير بثبات خلال الظلمة الطويلة بين حواجز الخيمة المرتفعة مارة فوق صفوف أجساد الراقدين • وكان هناك بضعة مصابيح كروية علقت هنا وهناك فى عروق الخشب الأفقيـة للخيمة • وفى دوائر الضوء غير الواضحة على الأرض ، والتى

كانت ترتعش قليلا مع هزات السفينة التى لاتنقطع ، كان يظهر ذقن متجه الى أعلى أو عينان مغلقتان ، أو يد سمراء بها خواتم من فضة ، أو طرف نحيل فى غطاء ممـزق ، أو رأس مائل الى الوراء ، أو قدم عارية أو عنق كشف عن نفسه وامتـد كما لو وكان قد استسلم للسكين •وكان ميسورو الحال منهم قدصنعوا لأسرهم مكانا أمينا أحاطوه بالصناديق الثقيلة والحصير المترب• ورقد الفقراء منهم جنبا الى جنب وكل ما يملكونه من متـاع الدنيا ملفوف فى صرة وضعوها تحت رءوسهم • ونام الشـيوخ منهم على سجاجيد الصلاة ، وأرجلهم مسـحوبة الى أعلى وأيديهم على آذانهم وأذرعهم تحيط بوجوههـم • وكنت ترى والدا أكتافه الى أعلى وركبتاه تحت جبهته ، يغفو فى كآبةالى جانب صبى ينام علىظهره ، بشعره الأشعث وذراعهمفرودة كمن يلقى أمرا ، وامرأة يغطيها قماش أبيض من أعلى رأسها الى أخمص قدميها ، كالكفن ، وهى تحمل طفلا عاريا فى تجـويف كل ذراع من ذراعيها • وكنت ترى حاجيات العربى وقـد كومها فى مؤخرة السفينة ، وهى تشكل تلا صـغيرا تكسرت خطوطه الخارجية ، وعـلاه مصباح معلق يهتز فـوقه ، وفوضى من الأشكال الغريبة خلفه ، مثـل لمعان آنيـة النحاس المتعجة ، أو الجزء الذى يستعمل لراحـة الأقـدام من كراسى السـطح ، أو أسـلحة الحراب أو جـراب

سيف قديم على كومة من الوسائد ، أو الفم الطـويل لا بريق القهوة . وكان جهاز مقياس السرعـــة المعلق فى الحـــاجز الخلفى لسطح المركب يدق جرسه دقة واحدة فى نهاية كل ميل تقطعه السفينة فى هذه الرحلة المقدسة . وكانت تحلـــق فوق جمهرة النائمين بين حين وآخر تنهيدة خفيفة صبورة ، ربما كانت زفيرا أثناء حلم مزعج . وكان هناك صوت معدنى قصير ينبعث فجأة من أعماق السفينة ، ربما كان الصوت الخشن لاحتـــكاك جاروف أو لاغلاق باب لفرن بعنف . وكان لهـــذه الأصوات انفجار عنيف ، كأنما كانت صدور الرجال الذين يتولون هذه الأعمال فى أسفل السفينة مليئة بالغضب الشديد . بينمـــا كان هيكل السفينة النحيل العالى يســير قدما الى الأمام ، دون أن تهتز شراعه العارية ، مخترقا على الدوام هدوء الماء تحت سكينة السماء التى لا وصول اليها .

وكان جيم يذرع السفينة من جنب الى جنب . وكان وقـع خطواته فى هذا السكون المخيم عاليا فى آذانه ، كما لو كانت النجوم الساهرة تردد صداها . وكانت عيناه اللتان تجولان فى خطوط الأفق ، تبدوان وكأنهما تنظران بجوع الى المنطقة التى لاتستطيعان الوصول اليها ، دون أن تلمحا ظل الحوادث القادمة . فلم يكن هناك ظل على البحر غير ظل الدخان الأسود الذى كان ينطلق من المدخنة فى عمود كثيف لا يلبث طرفه أن يذوب فى

الهواء • وكان هناك رجلان من الملايو ، يمسكان بعجلة القيادة، واحد على كل جنب منها ، وهما ساكنان لا ينطقان بكلمة ولا يكادان يتحركان، وكان صندوق البوصلة يرسل ضوءا بيضاوى الشكل يضىء جزءا من النحاس اللامع للدائرة الخارجية لهـذه العجلة • وبين حين وآخر ، كانت تظهر فى هذا الضوء يد بأصابع سوداء ـ تدفع محـاور العجلة ثم تمسـك بها على التوالى • وكانت حلقات سلاسل العجلة تطحن طريقها المحفور فى البرميل طحنا ثقيلا • وكان جيم ينظر أحيانا الى البوصـلة ، أو حول الأفق البعيد ، أو يمـد قامته حتى يسمع صوت مفاصـله مع انحناءة بطيئة لجسمه تنبىء عن شعوره الدافق بطيب العيش ، وكأنما قد دفعه هذا الشـعور الداخلى بالسلام الى التهـور ، فلقد أحس أنه لم يعد يحفل بأى شىء يمكن أن يحدث له حتى نهاية أيامه • وبين حين وآخر كان يلقى نظرة على رسم بيانى ثبت بأربعة دبابيس على منضدة منخفضة ذات ثلاث أرجـل ، وراء صندوق عجلة القيادة • وكانت هذه الورقة التى تبين عمق البحر ، ذات صفحة لامعة تحت ضوء المصباح المستدير المثبت فى عمود • وكان المصبح يركز ضوءه على وسط الورقـة التى كانت لها صفحة ملساء مستوية كصفحة الماء اللامعة •

وكان هناك مسطرتان وبرجـل على الورقة • وكان موقـع السفينة ظهر اليوم السابق مسجلا بصليب صغير أسود • وكان

الخط المستقيم المرســـوم بالقلم الرصاص بيد ثابتة حتى « بريم » يمثل سير السفينة . كان طريق الأرواح الى الأماكــن المقدسة ، ووعد الخــلاص والغفران ، وجــزاء الخــلود . بينما كان قلم الرصاص وطرفه الحاد يتصل بساحل الصومال يرقد مستديرا ساكنا وكأنه عمود شراع عار ، طاف وسط بركة ماء ، داخل حوض لاصلاح السفن . وقال جيم لنفســـه بشيء من العجب ، أو ربما بشيء من الوفاء والعرفان بالجميل لهــذا السلام المخيم على الماء والسماء . « ما أثبتها فى ســيرها » . وكان عقله فى مثل هــذه الأوقات يمتلىء بأعمال الشـــجاعة والبطولة . وكان مغرما بأحلامه هذه ، ونجــاحه فى الوصول الى مايريد فى عالم الخيال . فقد كانت ذلك عنده أفضــل مافى الحياة ، بحقيقتها المستترة وصدقها الخافى على الناس . فلقد كان فى هذه الأحلام خصب هائل مذهل وغمـــوض ساحر . وكانت تمر أمامه فى خطوات البطولة تحمل معها روحه بعيدا ، وقد أسكرها الاكسير المقدس وزرع فيها الثقة التى لاحد لها . فلم يكن هناك شىء فى الدنيا يعجز عن مواجهته . ولقد سرته هــذه الفكرة الى درجة جعلته يبتسم وهــو لايزال ينظر أمامه بطريقة آلية . وحين نظر خلفه صدفة رأى الخط الأبيض خلف السفينة ، وقد رسمته حافة القاع فيها على البحر ، كما يرسم القلم الرصاص خطه الأسود على ورقة الرسم البيانى .

وسمع ضوضاء جرادل الرماد فى حجرة الغلايات ، وقد نبهه هذا الصوت بقرب انتهاء نوبته . فتنهد بارتياح ، وان كان فى تنهيدته بعض الأسف على فراقه لتلك السكينـــة التى أطلقت العنان لأفكاره المغامرة . وكان يشعر بحاجة الى النوم أيضا . فأحس باسترخاء لذيذ يسرى فى كل طرف من أطرافه ، كما لو كان كل مافى عروقه من دم قد استحال الى لبن ساخن . وكان القبطان قد صعد الى سطح السفينة دون ضوضاء ، فى منامته . وكان الجزء الأعلى منها مفتوح الأزرار . وكان أحمر الوجــه نصف متيقظ فقط ، وعينه اليسرى نصف مقفلة ، وعينه اليمنى تحملق فى غباوة ، وكأنها من زجاج . وعلق رأسه فوق الرسم البيانى ، وهرش فى ضلوعه وهو يغالب النعاس . وكان فيــه شىء يتقزز منه الانسان ، ويمت الى الفحش بصلة ، فى منظــر لحمه العارى . فقد كان لحم صدره يلمع بالطراوة والشــحم ، كما لو كان قد ساح شحمه فى نومه ، ونطق بملحوظة تتعلق بالعمل فى صوت أجش ميت كصوت فارة النجار على لوح من الخشب . وكانت طية ذقنه فى ازدواجها معلقة كالكيس المربوط تحت فكه مباشرة . ففــزع جيم حين رآه فجــأة وأجاب على سؤاله فى احترام شــديد . ولكن منظر هذا الجسد الكــريه بشحمه ولحمه ، وكأنما رآه للمرة الأولى فى لحظة صفت فيها بصيرته ، انطبع على ذاكرته الى الأبد ، كتجسيد لكل مايقبع فى عالمنا الذى نحبه من شرور ودناءة . ففى قلوبنا نحن نؤمن —

لخلاص نفوسنا ـ في الرجال الذين يحيطون بنا ، وفي المناظر التي تملأ أعيننا ، وفي الأصوات التي تملأ آذاننا وفي الهواء الذي يملأ رئتينا .

وكان ذلك الهلال الذي يشبه قطعة من نشارة الذهب ، وهو يطفو في بطء الى أسفل، قدأختفى اخيرا، في صفحة الماءالمعتمة وقد بدت الأبدية وراء السماء وكأنها تقترب من الأرض بلمعان النجوم الذي أخذ يشتد ، وبالاعتام الذي ازداد عمقا في لمعان القبة نصف الشفافة ، التي كانت تغطي القرص المستوي للبحر غير الشفاف . وكانت السفينة تتحرك الى الأمام في يسر شديد حتى أن الانسان لم يكن يحس بها ، وكأنها كوكب مزدحم يسرع خلال فضاء الأثير ، خلف الشموس المجتمعة ، في الوحدة الهادئة المخيفة التي تنتظر تنفس مخلوقات المستقبل . وقال صوت فجأة ، « ان كلمة حار لا تعبر عما يحس به الانسان هناك في أسفل السفينة » فتبسم جيم دون أن ينظر الى الخلف .

وصدر القبطان عرض ظهره الذي لم يتحرك ، وكانت هذه حيلة ذلك المرتد (عن جنسيته) ليظهر لك متعمدا انه غير شاعر بوجودك ، الا اذا كان يجد أن من مصلحته أن يستدير نحوك، وعيناه تقدح شررا ، ليرميك بسيل من الشتائم بلهجته الخاصة، يوجهها اليك ، وكأنها ماسورة للمجاري قد انفجرت . ولم يصدر

منه الآن غير صوت يدل على عدم الرضا ، ولكن المهندس الثانى فى أعلى سلم سطح القيادة ، وهو يعصر بين يديه الرطبتين خرقة قذرة مما يستعمل لمسح العرق ، استمر — دون خجل — وهو يبث شكواه فقال ، ان البحارة يتمتعون بوقتهم هنا فى أعلى السفينة ، وماهى فائدتهم فى هذه الدنيا — انه يريد أن يعلم • ان المهندسين المساكين ملزمون بتسيير السفينة على كل حال ، ولن يضيرهم أن يضطلعوا بالعمل الباقى أيضا • وقسما بالله •• فجأر القبطان الألمانى قائلا «اخرس» ولكن الرجل الآخر استمر — « نعم — اخرس • هذا ما تقوله الآن ، وحين يحدث شىء فانك تطير الينا ، أليس كذلك ؟ » وكان يعلم أنه أكثر من نصف ثمل ، ولكنه لم يعد يهتم الآن — على كل حال — بعظم الخطيئة التى سيرتكبها • لأنه فى الأيام الثلاثة الماضية كان قد مر بتجربة قاسية ، تؤهله للمكان الذى يذهب اليه غير الصالحين من عباد الله بعد موتهم ، الى جانب أنه كاد يفقد سمعه من جراء تلك الضوضاء التى لاحد لها فى أسفل السفينة • فان تلك الآلات التى ماهى الا كومة من الخردة ، كانت تهتز وترتطم هناك كأنها آلة رفع قديمة • وماذا يجعله يخاطر بحياته فى كل يوم وكل ليلة خلقها الله ، وسط تلك الآلات التى توشك أن تستحيل قطعا صغيرة ، وهى تدور سبعة وخمسين دورة فى الدقيقة ذلك لأكثر مما يستطيع أن

يجيب عليه . فلابد أنه قد ولد شجاعا لايهاب شيئا . فسـأله الألمانى بلهجة وحشية « أين حصلت على الشراب؟ » ولكنه قال ذلك دون أن يتحرك وقد سقط عليه ضوء صندوق البوصلة ، فظهر وكأنه دمية رجل قطعت من كتلة كبيرة من الشحم . واستمر جيم يبتسم للأفق المنحسر ، وكان قلبه مليئا بالأحاسيس الكريمة، وكان فكره مشغولا بتفوقه العظيم ..

... وقال المهندس باحتقار ، لايخلو من الود « شراب » . وكان متعلقا بكلتا يديه بالحاجز ، وشكله كالظـل ، له ساقان مرتنان ـ كظل بساقين متحركتين ، « ليس منـك ياعزيزى القبطان لأنك بخيل أكثر من اللازم ياصديقى . وأنك لجـدير بأن تترك الرجل يمـوت قبل أن تعطيه نقطة واحـدة من « الاشنابس » وهذا هو التصرف الذى تسمونه انتم الألمـان بالاقتصاد ـ اقتصاد الملاليم وتضييع الجنيهات . ثم صـار عاطفيا ، وقال ان رئيسه أعطاه جرعة لايزيد حجمها عن أربعة قراريط « جرعة واحدة فقط ـ بحق السماء » . ولكن حـين أراد أن يوقظ ذلك المحتال العجوز ويجعله يغادر الفراش فقد وجد أن رفعة من حمولة خمسة أطنان ستعجز عـن ذلك ـ على الأقل فى هذه الليلة ـ فقد كان ينام نوما هادئا كطفـل برىء ، وتحت وسادته زجاجة من البراندى الفاخر . ومن حلق قبطان الباخرة « بتنا » الغليظ كانت تصدر أصوات كأنها الرعد

البعيد وكانت كلمة حنزير بالألمانية (أشفين) ترتفـع وتنخفض على حافتها كريشة حائرة فى مهب الريح • فلقد كان هـو والمهندس الأول أصدقاء لعدة سنوات — يخدمان نفس الرجل الصينى العجوز الماكر — بنظـارته ذات الاطـار القرنى والشريط الأحمر الذى يتخـلل ضفير شعره الرمـادى •

ولقد اتفق الرأى فى مرسى السفن فى المينـاء الذى تنتمى اليه بنتنا • أن هذين الرجـلين قد ارتكبا معـا فى باب السرقات المكشوفة وتبديد العهد « كل مايمكن أن يخطر لك على بال » • وفى ظاهر الأمر كان الرجلان غير متجـانسين ؛ فأحدهما انطفأ لمعان عينيـه وكان شريرا وكله دوائر طـرية من اللحم والشحم ، بينما كان الآخر رأسه طويل بادى العظـام كرأس حصان عجوز بخدين غائرين ، وصدغين غائرين ونظرة زجاجية تدل على عدم الاكتراث • وكانت سفينته قد غرقت به فى مكان مافى الشرق ، فى كانتون، فى شانجهاى ، أو ربمـا فى يوكاهوما! — أنه على الأرجح لا يريد أن يتذكر أين حدث له ذلك على وجه التحديد وهو قطعا لايريد أن يتذكر سـبب هذه الكارثة • وكان — رحمة بشبابه — قد طرد من سفينته منذ عشرين عاما أو يزيد • ولربما كان هذا الحادث أشد وقعا عليه لأن ذكراه لم تكن تحمل أى سوء حظ فى ثنـاياها — ثم كان أن اتسع مجال الملاحة فى هذه البحار • ولما كان عـدد من

يحترفون مهنته قليلا فى أول الأمر ــ فقد أمكنه أن يعيش بطريقة ما ــ وكان حريصا أن يخبر الغرباء فى كلمات مدغومة أنه « من الرجال القدماء فى هذه الانحاء » . وحين كان يتحرك فكأنما كان هناك هيكل عظمى يترنح فى ملابسه . فكانت مشيته عبارة عن مجرد حركة بلا هدف . وكان من عادته أن يتحرك هكذا بلا هدف حول ضوء النجوم فى حجرة الآلات ، وهو يدخن ــ دون لذة ــ تبغا مخلوطا فى جفنه نحاسية فى طرف أنبوبة من خشب الكريز يبلغ طولها أربع أقدام ، وعليه امارات الجد (البلهاء) لمفكر يريد ان يستخلص منهجا فلسفيا ــ فلسفة جديدة ــ من نظرة غير واضحة الى الحقيقة والصدق . وكان ــ عادة ــ أبعد مايكون عن الكرم فيما يتعلق بالتصرف فيما يملكه من الشراب ولكن يظهر أنه تخلى عن مبادئه فى هذه الليلة . وكانت النتيجة أن مساعده ، وهو طفل ذو رأس ضعيف من « وابينج » ، من جراء هذه المفاجأة غير المنتظرة لنوبة الكرم ــ من جهة ــ ومن قوة الشراب من جهة أخرى ــ قد أصبح سعيدا جدا وجريئا وكثير الكلام ... وكان غضب الألمانى الاسترالى شديدا ، فكان ينفخ كأنبوبة العادم . وكان جيم ، وهو يتسلى قليلا بهذا المنظر لا يكاد يطيق صبرا على حلول موعد نزوله الى سريره . فقد جعلته الدقائق العشر الأخيرة فى نوبته فى غاية من الضيق ، وكأنها

مدفع مصوب الى قلبه . فلم يكن هؤلاء الرجال ينتمون الى دنيا المغامرات البطولية . نعم انهم ليسوا رجالا فى غاية من السوء ، ولا حتى القبطان ... واذا به يحس أنه يريد أن يلفظ ما بجوفه وهو يرى كتل اللحم اللاهثة ، وهى تلفظ أصواتا منكرة ، وسيلا بطيئا من الشتائم القذرة . ولكن جيم كان يحس برخاوة سعيدة تسرى فى كيانه ، الى الحد الذى لا يستطيع أن يكره المنظر الذى يراه أمامه كرها ايجابيا ، أوأن يكره أى منظر آخر . ان نوع هؤلاء الرجال لا يهمه . صحيح أن أكتافهم تلمس أكتافه ، ولكنهم لا يستطيعون الاتصال به . أنه يتنفس الهواء الذى يتنفسونه ، ولكنه ليس من طينتهم .. هل يهاجم القبطان المهندس ؟ أن الحياة سهلة ، وهو واثق من نفسه . واثق من نفسه الى حد أن .. وكان الخط الفاصل بين أفكاره ، وبين غفوة استرقت طريقها اليه وهو على أقدامه أوهى من خيط العنكبوت .

وكان المهندس الثانى يقترب بخطوات سهلة الى الكلام عن أحواله المالية وعن شجاعته ـ فقال «من السكران ؟ أنا ؟ لا .. هذا كلام لايفيد فيجب عليك أن تعلم الآن بعد مرور ذلك الوقت الطويل ، أن المهندس الأول لم يبلغ من الكرم قدرا يكفى حتى لاسكار عصفور ـ ثم اننى لم يحدث لى قط من قبل أن جعلنى الشراب أسوأ حالا مما أنا . فالشراب الذى

يستطيع أن يسكرنى لم يصنع بعد • وانى لمستعد لشرب نـاو سائلة معك وأنت تتعاطى الوسكى ـ كأسا بكأسا ـ أو جالونا بجالون ـ وأن أظل بعد ذلك محتفظا بهدوئى كمـا لو كنت لا أشرب غير الماء • فلو خطر لى أننى سكران لرميت نفسى فى الماء ، وأنهيت حياتى ، نعم كنت أفعل ذلك ـ وفى الحـال • ثم أنى لن اترك «قنطرة» القيـادة ، فأين تتـوقع أن أذهب لاستنشاق الهواء فى ليـلة كهذه ؟ على السطح مع هـذه الحشرات هناك ؟ معقول ـ أليس كذلك ؟ وانى اخبـرك أنى لست خائفا من أى شىء يمكنك أن تفعله » •

فرفع الألمانى المنحنى يديه الثقيلتين الى السماء ، وهزهما قليلا دون أن ينطق بكلمة • واستمر المهندس الثـانى فى حديثه فى حماسة المقتنع « اننى لا أعرف ماهو الخوف ، اننى لسـت خائفا من القيام بجميـع ما يلزم من الأعمال فى هذه السـفينة الحقيرة العفنة • وانه لشىء جميل بالنسبة اليك ، أن يوجد فى هذا العالم أمثالنا الذين لا يخافون على حياتهم ، والا فخبرنى ماذا كنت تفعل أنت وهذه السفينة الأثرية التى صـارت الواحها كالورق الأسمر ، نعم الورق الأسمر ، ولترحمنـا السماء • انه عمل مجد بالنسبة اليك لأنك تستطيع أن تحصل على كومة من النقود منها ، بطريق أو بآخر • ولكن ماذا عنى؟ وما هو نصيبى ؟ مائة وخمسون دولارا هـزيلة • أنى أريد أن

أسألك باحترام — باحترام أقول لك — منذا الذى يقبل عملا لعينا كهذا؟ انه عمل لايأمن الانسان فيه على نفسه من الاخطار. عمل لا يؤمن جانبه على الاطلاق • كل مافى الأمر أننى رجل من هؤلاء الذين لايعرفون الخوف »

وترك الحاجز وبدأ يحرك يديه فى حركات معبرة كمن يريد أن يرسم فى الفضاء شكل شجاعته وحدودها • وكان صوته الرفيع يمرق ، فى صيحات طويلة الى البحر • وكان يمشى على أطراف أصابعه جيئة وذهابا ليؤكد ما يقول واذا به يسقط على الأرض فجأة ورأسه أولا كأنما ضرب عليها من الوراء بجسم ثقيل • وقال «اللعنة» ثم تلت ذلك فترة من السكون •• واندفع جيم والقبطان معا فى نفس اللحظة الى الأمام وقد كادا يفقدان توازنهما • ثم استطاعا أن يسندا نفسيهما ، فوقفا مشدودين يحملقان مشدوهين الى مستوى البحر الهادىء الذى لم يضطرب — ثم نظرا الى ما فوقهما نحو النجوم •

ماذا حدث ؟ ان ضربات الآلات — بصوتها المنقطع — لم تتوقف ، أتوقفت الأرض عن دورانها ؟ انهما لم يستطيعا أن يفهما • وفجأة ظهر البحر الهادىء ، والسماء التى لا أثر للسحاب فيها ، وهما غير مأمونى الجانب فى سكونهما الذى كان يقف على حافة الخراب الذى فغرفاه •• وقفز المهندس

صالبا طوله رأسيا ، ثم سقط ثانية فى هيئة كومة غير واضحة المعالم . وقالت الكومة فى نبرات أجشة تنبىء عن حزن عميق ، «ما هذا ؟» ثم سمعوا ضوضاء خفيفة كأنها رعد — رعد بعيد بعد اللانهاية — لا يكاد يكون صوتا ، و يكاد يزيد عن أهتزازة تمر فى بطء . وارتعشت السفينة تجاوبا معه ، كما ولو كان الرعد يقصف فى أعماق الماء . ولمعت عينا رجلى الملايو عند عجلة القيادة نحو الرجال البيض ، ولكن أيديهما ظلت قابضة على محاور العجلة . وبدا وكأن هيكل السفينة الحاد ، قد ارتفع بضع بوصات على التوالى خلال طول السفينة كما لو كان هذا الهيكل قد استحال الى معدن لين . ثم رجع بعد ذلك سيرته الأولى صلبا يشق البحر الاملس . ثم توقفت رعشتها ، وتوقف كذلك صوت الرعد الخافت فى الحال ، كما لو كانت السفينة قد عبرت حزاما ضيقا من الماء المتذبذب والهواء المهمهم .

الفصل الرابع

وبعد شهر أو ما يقرب من ذلك ، حين كان جيم وهو يجاوب على الأسئلة الهادفة ويحاول أن يروى الصدق عن قصة التجربة التى مر بها قال عن السفينة ما يأتى : « مهما كانت طبيعة الشيء الذى مرت فوقه فانها قد مرت عليه بالسهولة التى تزحف بها الحية على عصا » وكان ذلك تشبيها جيدا • وكانت الأسئلة تهدف للوصول الى الحقيقة ، وكان ذلك فى تحقيق رسمى يجرى فى أحدى موانى الشرق ، وجيم يقف على منصة عالية فى مكان الشهود ، وقد كاد خداه يحترقان فى الغرفة الباردة الهواء العالية السقف • وكان اطارا مروحتى « اليونكا » الكبيران يتحركان فى رفق على مسافة عالية فوق رأسه • وفى أسفل الغرفة كانت هناك أعين كثيرة تراقبه من الوجوه السمراء والوجوه البيضاء والوجوه الحمراء ، ومن وجوه منتبهة مأخوذة بجاذبيته كما لو كان كل هؤلاء الناس الذين يجلسون على تلك الصفوف المتراصة من الكراسى الضيقة قد أسروا بسحر صوته الذى كان عاليا جدا بحيث كان يفزعه وهو يرن فى آذانه بل كان يخيل اليه أنه الصوت الوحيد فى هذه الدنيا ، لأن هذه الأسئلة بوضوحها

الفظيع الذى كان يعتصر الألم فى صدره كانت تصـــله حادة ساكنة كما لو كانت صوت الضمير •• وكانت الشمس ملتهبة خارج المحكمة ، أما فى الداخل فكان هواء مراوح اليـونكا الذى يجعلك ترتعش ، وكان العـــار الذى يجعلك تحترق ، وكانت العيون المنتبهة التى تطعنك بنظراتها • وكان وجه القاضى الذى يرأس المحكمة حليقا يظهر عليـــه أى تعبير ، وهـــو ينظر اليه فى صفرة قاتـلة بين الوجهين الأحمرين لمســاعديه البحريين ، وكان الضوء يسقط من شباك عريض تحت السقف، من أعلى على رءوس وأكتاف الثلاثة الرجـــال الذين كـانت أشخاصهم تظهر فى وضوح غير عادى فى نصف الضوء الذى كان فى غرفة المحكمة الكبيرة حيث كان النظارة يبدون وكأنهم ظلال محملقة • وكانوا يريدون الحقـــائق ! الحقـــائق ! كانوا يصممون على الحصول منه على هــذه الحقائق ، وكأنما كانت تستطيع الحقائق أن تفسر شيئا •

وسأله المساعد الذى كان يجلس على اليسار « عنــــدما استنتجت انك قد تصادمت مع شىء طاف تدفعـه الأمواج ــ كبقايا سفينة من الكتل الخشـــبية مثلا ــ وأمرك قبطانك أن تمشى الى المقدمة وتتأكد أن كان هناك ضرر قد حـدث • فهل كنت تعتقد أن ذلك محتمل مما أحسسته من قوة الصدمة ؟ » •

وكان لعضو اليسار هذا ، ذقن يشبه حدوة الحصان الرفيعة،

وعظمتان بارزتان فى جانبى وجهه • وكان يضع مرفقيه على مكتبه ويشبك يديه أمام وجهه وهو ينظر الى جيم بعينين زرقاوين مفكرتين ، وكان عضو اليمين رجلا عريض العظام يفيض بالاحتقار ، وقد ارتمى الى الخلف فى مقعده ، وفرد ذراعه اليسرى حتى آخرها ، وهو ينقر برقة على النشافة بأطراف أصابعه • بينما جلس القاضى مستقيما فى مقعده الكبير فى الوسط ، وقد أمال رأسه قليلا على كتفه وربع يديه على صدره ، وظهر الى جانب المحبرة أمامه ، بعض الازهار فى آنية من الزجاج • وأجاب جيم : «كلا انى لم أكن أظن ذلك محتملا • وكانت التعليمات التى تلقيتها تقول أنه لا يجب أن أستدعى أحدا أو أحدث ضوضاء ، خوفا من اثارة فزع جماعى • وقد بدا لى ذلك احتياطا معقولا • فأخذت أحد المصابيح المعلقة فى الخيمة ، وذهبت الى مقدمة السفينة ، وبعد أن فتحت الفتحة المؤدية الى المخزن الأمامى سمعت صوت ماء متدفق — وأنزلت المصباح الى نهاية مايصل اليه الحبل الذى كان معلقا منه ، فرأيت ان المخزن الأمامى قد امتلأ أكثر من نصفه بالماء حتى تلك اللحظة وعلمت حينذاك أن هناك ثغرة واسعة حدثت فى السفينة تحت خط الماء » • وسكت جيم فشجعه عضو اليمين بقوله : «ثم؟» • وكان يبتسم ابتسامة حالمة موجهة نحو النشافة • وكانت أصابعه تلعب فى حركة مستمرة وهى تمس

ورقة النشاف ، من غير صوت • واستمر جيم قائلا : « انني لم أفكر في الخطر في هذه اللحظة • ولربما كنت مشدوها بعض الشيء ، لأن كل ذلك كان قد حدث بطريقة هادئة وبشكل مفاجيء جدا • وكنت أعلم أنه ليس هناك في السفينة حاجز رأسي يفصل بين مخازنها المعزولة عن الماء ، فيما عدا الحاجز الذي يفصل بين مقدمتها والمخزن الذي يليها — فرجعت لاخبار القبطان • ورأيت المهندس الثاني وهو ينهض عند آخر الدرج الذي يوصل الى قنطرة القيادة • وكان يبدو عليه أنه يعاني من دوار • وأخبرني أنه يظن أن ذراعه اليسرى قد كسرت • وكان قد أنزلق من أعلى درج القيادة حين وجودي في المقدمة وقال المهندس « يا ألهي » ،

ان هذا الحاجز الرئيسي سوف ينهار في دقيقة ، وحينذاك ستغطس بنا السفينة ككتلة من الرصاص » • وأزاحني بذراعه اليمنى وجرى قبلي صاعدا الدرج وهو يصرخ — وذراعه اليسرى معلقة في استرخاء الى جانبه • وتبعته الى أعلى ، فوصلت في اللحظة التي رأيت فيها القبطان يهجم عليه ويرميه أرضا على ظهره ، ولكنه لم يضربه ثانية • بل وقف منحنيا عليه وهو يحدثه بغضب ولكن في صوت خافت • ويخيل الى انه كان يسأله لماذا لم يذهب ليوقف الآلات بدلا من تلك الضوضاء التي يحدثها بسبب ذلك الحادث على السطح •

وسمعته يقول : « انهض — اجر — طر » وكان يلعن أيضاً. فنزل المهندس على الدرج فى يمين السفينة • وجرى فى ضوء النجوم الى الجانب الأيسر حيث كان السلم المؤدى الى حجرة الآلات ، وكان يولول طول الوقت وهو يجرى ••

وكان جيم يتكلم ببطء ، ويتذكر كل شىء بسرعة وبوضوح زائد الى درجة أنه كان يستطيع أن يعرض — كالصدى — اطفاء لظمأ هؤلاء الناس من طلاب الحقائق صـــورة صوتية طبق الأصل لولولة هذا المهندس • فبعد شعوره الأول بالتمرد وصل الى الرأى الذى يقول أن سرد الحوادث فى عبارة لا لبس فيها ولا ابهام ، ولا زيادة ولا نقصان ، هو الطريق الوحيـــد الكفيل باظهار الحقيقة المفزعة وراء وجه الأشياء • فالحقـائق التى كان هؤلاء الرجال يتحرقون شوقا لمعرفتها كانت مفهومة ظاهرة للعيان تعيها الحواس ، ولها وضعها فى عالم الزمـان والمكان ، ولا يحتاج حدوثها الى أكثر من سفينة حمولتها ألف وأربعمائة طن وفترة من الوقت لا تزيد عن سبع وعشرين دقيقة على وجه التحديد .ولقد صنعت الحقائق كيـــانا كاملا ، له قسماته ، وظلال التعبير عنه • وله صـــورة معقدة يمكن أن تذكرها العين ، وصورة أخرى الى جانب هذه لا تراها العين : صورة روح مدمرة موجهة سكنت فى داخلها ، كما لو كـانت روحا شريرة داخل جسد كريه ، وكان جيم يســعى جاهدا فى

توضيح ذلك فلم تكن هذه الحادثة ـ فى رأيه ـ شيئا عاديا بل كان لكل شيء فيها أهمية عظيمة ، ومن حسن الحظ انه كان يستطيع أن يتذكر كل شيء ، وأراد أن يستمر فى كلامه من أجل الصدق أو ربما من أجله هو ايضا . فحتى وأن كانت طريقة كلامه تدل على الثقة بالنفس ، فان عقله كان بالتأكيد يدور ويدور فى دائرة هذه الحقائق المتراصة جنبا الى جنب والتى أرتفعت من حوله لتحاصره وتقطع صلته مع جنسه جميعا . فكأنه كان مخلوقا وجد نفسه مسجونا فى مكان يحيط به سور عال فأخذ يدور منطلقا ، ولا يتوقف فى اندفاعه حول المكان ، وقد طاش عقله فى الليل وهو يحاول أن يجد لنفسه نقطة ضعيفة أو شرخا أو مكانا يتسلقه أو ثغرة صغيرة يستطيع أن يخرج منها ولو يعصر جسده عصرا ... وكان هذا النشاط العقلى المزعج هو الذى يجعله يتردد أحيانا فى كلامه.

« وقد استمر القبطان فى الحركة هنا وهناك فى قنطرة القيادة ، وكان يبدو هادئا بما فيه الكفاية فيما عدا أنهقد تعثر عدة مرات وأنه مشى حتى ارتطم بى مرة وأنا أقف أمامه أحدثه ، وكأنه أعمى لايبصر شيئا ، وأنه لم يكن يستطيع ان يعطينى جوابا حاسما عما كنت أسأله عنه . بل كان يتمتم متحدثا مع نفسه طول الوقت وكل ما استطعت أن أستخلصه منه كان بضع كلمات مثل « البخار الملعون » .. البخار الجهنمى « عن شيء يتعلق بالبخار على كل حال ، ولقد ظننت ..

وابتدأ جيم يبتعد عن الموضوع ، ولكن سؤالا فى الصميم قطع حديثه الطويل فجأة كأنه أصيب بألم مفاجىء ، وأحس بيأس ، وارهاق . أنه كان سيذكر ذلك فى وقته . نعم سيذكره فى وقته ، ولكنه الآن قد حوصر بفظاعة وكان لابد له أن يجيب بنعم أو بلا — فأجاب باختصار وهو يقول الحق « نعم — لقد فعلت » وبوجهه الجميل وهيكله الكبير القوى ، وعينيه الشابتين الحزينتين أخرج من صدره وفرد كتفيه ليظهرا مستقيمتين فوق الحاجز فى مكان الشهود بينما كانت روحه تتلوى داخله . ثم أضطر للاجابة على سؤال آخر من الأسئلة التى فى الصميم ، والتى لا فائدة منها مطلقا . ثم انتظر مرة ثانية . وكان فمه جافا من غير طعم ، كما لو كان قد أكل ترابا . ثم كان مالحا ومرا . كما لو كان شرب من ماء البحر .. ومسح العرق عن جبهته ومر بلسانه على شفتيه اللتين حجرهما الظمأ ، وأحس برعشة تجرى الى أسفل عموده الفقرى ، وكان العضو الضخم قد أسقط أجفانه واستمر ينقر بأصابعه ، دون صوت وفى غير انتباه ولا سعادة ، وكانت عينا العضو الآخر فوق أصابعه المتشابكة التى أضفى عليها ضوء الشمس سمرتها ، تلمعان شفقة . وكان القاضى قد تحرك فى مقعده الى الأمام ، وصار وجهه يرتفع وينخفض قريبا من آنية الزهر . ثم تحرك الى جانب من جانبى المقعد وأسند

رأسه فى راحة يده ، وكان الهواء الذى تحركه مراوح اليونكا فى السقف يهبط على الرءوس . على رءوس الوطنيين ذوى البشرة السوداء وهم يلتفون فى ملابسهم الفضفاضة ، وعلى رءوس الأوربيين ، وهم يجلسون معا فى ملابسهم القطنية التى كانت من الضيق بحيث تحيط بهم كجلودهم ، ويحملون على ركبهم قبعات الشمس المصنوعة من الفلين . بينما كان ينزلق بين حوائط الغرفة سعاة المحكمة بمعاطفهم البيضاء الطويلة الضيقة وأزرارها المقفلة ، وهم يجرون بخفة جيئة وذهابا على أمشاط أقدامهم العارية بأحزمتهم الحمراء ، وعممهم الحمراء دون ضوضاء كأنهم الأشباح ، وكلهم انتباه كأنهم كلاب صيد .

وكانت عينا جيم وهما تتنقلان فى فترات السكون بين أجوبته قد استقرتا على رجل أبيض يجلس بعيدا عن الآخرين ، وله وجه ترك عليه الدهر أثره ، وأظلته سحابة ، ولكن فيه عينين هادئتين تنظران اليك مباشرة وفى اهتمام ووضوح .. ، وأجاب جيم على سؤال آخر وكان يريد أن يصرخ : « ما فائدة هذا كله ؟ ما فائدته ؟ » وخبط الأرض بقدمه يرقق ، وعض على شفتيه ونظر فى خط مستقيم فوق رءوس الحاضرين والتقى بعينى الرجل الأبيض ، ولم تكن النظرة التى وجهت اليه مثل نظرات الآخرين المسحورين ، التى تسمرت اليه بفعل جاذبيته

بل كانت عملا اراديا واعيا • وكان أن نسى جيم نفسه بين سؤالين فترة ، خطرت له فكرة فيها ، وكانت الفكرة — هى أن هذا الرجل ينظر اليه كما لو كان يستطيع أن يرى انسانا أو يرى شيئا وراء كتفيه ، وأنه ربما قد التقى بهذا الرجل من قبل فى الشارع ، وأنه كان متأكدا بأنه لم يتحدث اليه قط • فمنذ أيام — أيام كثيرة — لم يتحدث الى أحد • بل كان يتحدث الى نفسه فقط حديثا ساكنا غير مفهوم وبلا نهاية • كما لو كان مسجونا سجنا انفراديا أو عابر طريق ، ضل طريقه فى البرية • ففى هذه اللحظة كان يجاوب على أسئلة لا داعى لها وان كان المفروض أن لها هدف • ولكنه كان يشك ان كان سيستطيع فى المستقبل أن يتحد ثمرة أخرى بصراحة عما يجول فى صدره •• فصوته وهو يدلى بتصريحاته الصادقة كان يزيد فى اقناعه بأن الكلام أصبح لا فائدة منه على الاطلاق ، وهذا الرجل هناك كان يحس بحالة اليأس العسرة التى كان فيها • فنظر جيم اليه ، ولكنه أدار وجهه بعد قليل بحركة تدل على العزم ، كمن يدير وجهه على فراق أخير •

وبعد ذلك كثيرا ما أظهر مارلو استعداده فى نواح بعيدة من الدنيا لأن يذكر جيم ، لأن يذكره ويطيل فى ذكره ، ولأن يذكره بكامل التفاصيل ، ولأن يذكره بصوت عال •

وربما كان ذلك بعد العشاء على شرفة «فراندا» عليها نبات متنساق تعلوه الأزهار فى الغسق العميق الذى ترصعه النار فى أطراف السيجار المتوهجة ، وقد جلس سامع منصت على كل كرسى من الكراسى المستطيلة المصنوعة من الغاب . وبين الفينة والفينة كانت تتحرك شعلة حمراء على حين فجأة لتلقى ضوءها على أصابع يد رخوة . أو جزء من وجه فى حالة استرخاء تامة ، أو تعكس لمعانا أحمر فى عينين مستغرقتين فى التفكير . يظلهما جزء من جبهة ملساء ، وعند أول كلمة كان يمتد جسد مارلو فى راحة شاملة على المقعد الطويل . ثم يسكن بعد ذلك سكونا تاما ، كما لو كانت روحه شقت لها طريقا بجناحيها فيما طواه الزمان من أبعاد ، كانت تتحدث الآن من الماضى من خلال شفتيه .

الفصل الخامس

فكان مارلو يقول : « نعم ، لقد حضرت المحاكمة ، وحتى هذا اليوم لا أزال أدهش لماذا ذهبت الى هناك . وانى لمستعد للتسليم بأن لكل منا ملكا حارسا اذا كنتم — أيها الرفاق — تسلمون معى بأن لكل منا شيطانا يعرفه أيضا . انى أريد منكم أن تعترفوا بذلك ، لأنى لا أريد أن أشعر بأنى أختلف عن غيرى فى أى شىء من الاشياء ، وأنا أعلم أن لى شيطانا خاصا . حقا اننى لم أره ولكنى أحكم بالقرائن والظروف أنه يلازمنى ، ولا شك فى ذلك ، ولأنه شيطان شرير ، فهو يغرينى بمثل هذه الاشياء . ولقد تتساءلون عما هى هذه الاشياء التى أعنيها . وأنا أجيب بأن هذه الأشياء هى : هذه المحاكمة مثلا أو هذا الكلب الأصفر . نعم فمن كان يتوقع أن كلبا أجرب لا نسب له، يمكن أن يباح له الدخول الى شرفة المحكمة ليتعثر به الناس هناك ويفقدون توازنهم .... مثل هذه الأشياء التى تتسبب بطرق شيطانية غير مستقيمة ، وغير متوقعة ، كأن أجد نفسى وجها لوجه مع رجال فيهم من نقط الضعف أو نقط القوة أو نقط الطاعون الخفية ما يجعلهم يطلقون السنتهم من عقالها بمجرد أن يقع نظرهم على ليفضوا بأسرارهم اللعينة الى ،

وكأنما ليس عندى ما يكفينى من الأسرار التى أحدث نفسى عنها — وكأنما يرحمنى الله — ليس عندى من الأشياء التى أخفيها ما يكفى لكى يقض مضجعى ويعذب ضميرى الى آخر أيامى . ثم ماذا فعلت لكى استحق هذا الامتياز فى المعاملة . أنى أريد أن أعرف . اننى أعلن أن عندى من المشاغل الخاصة ماعند الآخرين ، وأن عندى من ذكرياتى ما عند باقى الحجاج الى هذا الكوكب . واذن ، فأنتم ترون اننى لست أهلا لأن أكون مصبا لاعترافات الغير . اذن لماذا ؟ لا أعلم . اللهم الا اذا كان السبب هو جعل الوقت يمر فى يسر بعد العشاء . فياصديقى شارلى أن عشاءك كان ممتازا ، وكانت نتيجة ذلك أن ضيوفك صاروا ينظرون الآن الى لعب الورق وكأنه لا قبل لهم به . فهم يغطسون فى مقاعدك المريحة ويقولون لأنفسهم — « فليسقط الاجهاد ، ولندع هذا الـ « مارلو » يتحدث الينا .

« فلأتحدث اذن مادام هذا رأيكم . والحديث عن السيد جيم ، حديث سهل على ، وخاصة بعد هذا العشاء الذى جمع فأوعى ، فى مكان يرتفع عن سطح البحر بمائتى قدم وصندوق سيجار فاخر فى متناول اليد ، وفى مساء أعتدل هواؤه وظهر ضوء نجومه ، وهى ظروف يجدر أن تجعل خيرنا ينسى أن ضيافتنا فى هذه الحياة موقوتة — وأنه من واجبنا أن نختار

طريقنا بين الأضواء المتعارضة ونحن نرقب كل دقيقة ثمينة ، وكل خطوة لا رجوع فيها من خطواتنا ، ونأمل أننا سنستطيع بعد ذلك ان ننجح — حين ينتهى كل شيء — فى الخروج منها بطريقة لا غبار عليها ، ولكن لا سبيل الى الوثوق من هذا الأمر ، ولن يمد الينا هؤلاء الذين تلتقى أكتافنا مع أكتافهم — يمينا ويسارا — أى يد لمساعدتنا ان احتجنا لذلك .. وطبعا هناك بعض الناس ممن ينظرون الى هذه الحياة جميعا ، وكأنها ساعة مابعد العشاء التى يدخنون فيها سيجارهم اللذيذ . فهى عندهم : سهلة لذيذة ، فارغة ، وربما دب فى حياتهم شيء من الحيوية بسبب قصة كفاح من قصص الخيال ينسونها حتى قبل أن يسمعوا نهايتها . نعم قبل أن يسمعوا نهايتها ، حتى لو تصادف أن كان لها نهاية .

« وتلاقت عيناى مع عينيه أثناء هذه المحاكمة ، ويجب أن تعلموا أن كل من كان له صلة بالبحر كان هناك فى تلك القاعة لأن الحادث كان له شهرة سيئة قبل ذلك بأيام ، منذ اللحظة التى وصلت فيها تلك البرقية الغامضة من عدن لتجعلنا جميعا لاننكف عن الحديث فى ذلك الموضوع . وانى أصف هذه البرقية بالغموض لأنها كانت فعلا غامضة فى بعض النواحى رغما عن الحقيقة العارية التى احتوتها ، وكانت عارية وقبيحة كأعرى وأقبح ما تكون . واصبح لا حديث للشاطىء

جميعه عن شىء آخر • فأول شىء كنت أسمعه فى الصباح وأنا أرتدى ملابسى فى الغرفة الرئيسـيـة فى السفينة ــ خـلال الحاجز ــ كان صوت «دوباش» الهندى وهو يتحدث برطانته عن الباخرة «بتنا» مع رئيس الخدم وهو يشرب فنجـانا من الشاى ــ تفضلا من مضيفة ــ فى حجرة التخـديم • ثم على الشاطىء • ماكنت أكاد أرى أحدا أعرفه حتى يصـيح بى : « أسمعت شيئا فى حياتك أغرب من هذا ؟ » وتبعا لطـراز الرجل كان اما أن يبتسم ابتسامة من لا يرجـو خيرا من طبيعة الانسان ، واما أن تظهر على وجهه علامات الحزن أو يفلت من لسانه لعنة أو لعنتان • بل كان يحـدث أن يوقفه رجلان أحدهما الآخر فى الطريق دون معرفة سابقة ليتحـدثا معا حديث الاصدقاء ، كى يتخلصا من بعض مـا تفيض مشاعرهما عن هذا الموضوع ، واستطاع كل عاطل فى المدينة أن يحصل على كمية لا بأس بها من الشراب بفضل هذا الحادث وكنت تسمع عنه فى مكتب الميناء وعند سمسـار السفن ، وعند وكيلك ، ومن البيض ، ومن سكان البـلاد ، ومن المخلصين ، ومن رجال القوارب نصف العراة ، وهم رقـود على الدرج الحجرى فى طريقك وأنت تصعد الى الشاطىء•• وكان هناك بعض الغضب ، وعدد غير قليـل من النوادر المضحكة ، وقدر لا ينتهى من النقاش حول مصيرهم المجهول •• واستمر هذا مدة تقرب من أسبوعين • ابتدأ بعدها ترجيح

الرأى الذى يقول ان الأشياء الغامضة فى هذا الحادث سيكون لها انى جانب هذه الصفة أيضا ، طبيعة المأساة • الى أن كان ذات صباح جميل وكنت أحتمى بالظل فى جوار درج مكتب الميناء ، واذا بى ألمح أربعة رجال يمشون على رصيف البحر متجهين الى • ففكرت برهة فيمن يكون هؤلاء الرجال ذوو المنظر الغريب ومن اين أتوا • وفجأة صرخت فى نفسى قائلا « هاهم قد أتوا » •

وكانوا هم ـ بلحمهم ودمهم ـ دون شك على الاطلاق : ثلاثة منهم بالحجم الطبيعى ، أما الرابع فقد كانت ضخامته عند محيط الوسط أكبر مما يحق لأى انسان أن يكون • وكانوا قد نزلوا لتوهم الى الشاطىء بعد افطار جيد من باخرة تتبع شركة (ديل لين) كانت قد وصلت الى الميناء بعد شروق الشمس بساعة فى طريقها الى الابحار ، ولم يكن من الممكن أن أخطىء فقد عرفت القبطان المرح للباخرة « بتنا » من النظرة الاولى ، لأنه كان أسمن رجل فى هذه الرقعة التى تشمل الحزام الاستوائى الذى يلتف حول كرتنا الأرضية• وفوق ذلك ـ فلقد وقع عليه نظرى مصادفة فى سمارانج قبل ذلك بحوالى تسعة أشهر • وكانت باخرته تنتظر اتمام شحنتها فى الميناء الداخلى ، وكان يشتم ويلعن ممروح الظلم والطغيان فى الامبراطورية الألمانية ، ويغرق نفسه فى عب البيرة (الجعة)

طول النهار ، ويوما بعد يوم فى الغرفة الخلفية لمحل دى يونج ، حتى كان دى يونج الذى كان يتقاضى جولـــدر (عمـلة فضية هولاندية) بتمامه عن كل زجاجـة بيرة دون أن ترمش له عين يشير الى بالخروج من المحل ثم يقول لى هامسا ، وقد ظهرت كل التجعدات بوضوح على بشرة وجهه المتجـعدة : « صحيح أن العمل هو العمل — ياصديقى القبطان — ولكن منظر هذا الرجل يسبب لى الغثيان » .

« وكنت أنظر اليه — وأنا فى الظل — وكان يسرع قليلا فى مقدمة رفقائه ، وقد أظهر ضوء الشمس الذى كان مســلطا عليه شكله الضخم فى صورة غريبة جعلتنى أقارن فى مخيلتى بينه وبين فيل صغير تعلم كيف يمشى على رجليه الخلفيتين . ثم انه كان قد أسرف فى زينته أيضا ، حيث كان يرتدى «بيجاما» قذرة ذات خضرة لامعة تتخللها خطوط رأسية برتقاليـة اللون وفى رجليــه العاريتين خفان مهلهلان من القش ، وعلى رأسه قبعة من الفلين لابد أن صاحبها كان قد استغنى عنها منـــذ زمن طويل لأنها كانت غاية فى القذارة ، وكانت أصـغر كثيرا من رأسه . وقد ربطت بحبل الى قمة رأسه الضخم ، وطبعـا يمكنكم أن تتصوروا أن فرصة رجل كهذا فى اقتراض مايلائمه مـن الملابس تكاد تكون معدومة . حسن اذن هـــكذا حضر فى هذه الصورة وهو فى عجلة شـــديدة من أمره لا يتلفت

يمنة ولايسرة ، ومر على بعد ثلاث خطـــوات منى ، وفى سذاجة بريئة مضى مندفعا يصعد الدرج الى مكتب الميناء ليؤدى شهادته أو يودع تقريره أو يفعل ما يعجبكم أن تسموه » .

« ويظهر أنه قابل أول من قابل ضابط الملاحة فى الميناء . وكان (أرتش رؤتفيل) قد حضرلتوه ، وكان طبقا لكلامه على وشك أن يبدأ يومه الطويل بتوبيخ كبير كتـابه ، ولربمـا كان البعض منكم يعرفونه فهـو برتغالى مولد خـدوم ، ضئيل الحجم ، له رقبة كلها جلد على عظام لا تسر الناظرين ، وكان يرى دائما فى حركة دائبة جريا وراء قباطنة المراكب كى يعطوه شيئا يؤكل كقطعـــة من لحم الخنزير المملح أو كيس من البسكويت ، أو بعض البطاطس ، أو مايمـاثل ذلك من الأشـيـاء . وانى لأتذكر أننى فى رحلة من رحلاتى نفحته بخـروف حى تخلف لدى من مؤن البحر ، لا لأنى كنت أريده أن يؤدى خدمة لى فهو لم يكن يستطيـــع ذلك كما تعلمـــون ، ولكنى فعلت ذلك لأن اعتقاده الذى يشبه اعتقاد الأطفال فى حقه المقـدس فى الكسب الاضافى الى جانب مرتب وظيفتـــه ، كان يمس شغاف القلب . وكان هذا الشعور عنده من القوة بحيث كاد أن يكون جميلا . فالجنس الذى ينحدر منه . أعنى الجنسين والجو .. ولكن دعونا من هذا فمجمـــل القول أننى أعرف أين أجد رجلا سيظل صديقا فى مدى الحيـاة . ولنرجع الآن

الى قصتنا ، فقد قال لى روتفيل انه كان يعطى كاتبه الأول درسا قاسيا . ولعلى يجب أن افترض الآن موضوعه كان عن الأخلاق ، واذا به يسمع وراء ظهره حركة وضوضاء مكبوتة وحين أدار رأسه رأى — على حد تعبيره هو — شيئا مستديرا وضخما يشبه برميلا للسكر من زنة الستة عشر قنطارا يقف على رأسه وسط بلاط الحجرة الواسعة . وأعلن انه قد أخذ بهذا المنظر على حين غرة حتى انه مكث وقتا ليس بالقصير قبل أن يكتشف أن هذا الشيء كان حيا ، وجلس ساكنا يحاول أن يعرف سببا لوجود هذا الشيء أمام مكتبه والوسيلة التى وصل بها الى هناك . وكان الممر تحت السقف المقوس الذى يصل الحجرة المجاورة بمكتبه مزدحما بالعمال الذين يحركون مراوح اليونكا ، والكناسين ، وسعاة الشرطة ، وقائد وبحارة القارب التجارى للميناء ، والجميع يمدون رقابهم ويكادون يتسلقون ظهور بعضهم بعضا . فكانت مظاهرة صاخبة .

وفى أثناء هذا الوقت أمكن للرجل أن يشد قبعته بعيدا عن رأسه وتقدم بضع خطوات وهو ينحنى قليلا أمام روتفيل الذى قال لى ان هذا المنظر هز كيانه الى درجة لم يستطع معها أن يدرك ماذا يريد منه هذا الشبح المنجسد ، الذى كان يتكلم بصوت أجش ، ولكن دون خوف . ثم انكشف لأرتشى قليلا قليلا أن مايرى أمامه كان له علاقة بحادث الباخرة

«بتنا» وقال انه بمجرد أن أدرك شخصـية الواقف أمامه ، أصابه الغثيان ، وكان أرتشى رجلا عاطفيا من السهل ازعاجـه الا أنه استطاع أن يجمع شتات نفسه وصاح : «قف لا تتكلم فلست أستطيع أن أصغى اليك . انه يجب عليـك أن تذهب الى رئيس الميناء ، فكابتن اليوت هو الرجـل الذى يجب أن تراه . اتبعنى . اتبعنى» وقفز واقفا وجرى حول المنضـدة ، وهو يشده ويدفعه بيديه ، وقد تركه الرجل الآخر يفعل ذلك . وكان سدهوشا وان كان مطيعا فى أول الأمر ، ولكنه عند باب الغرفة الخاصة المغلق ، أحس بشىء يشبه غريزة الحيوان جعله يتقهقر ويقاوم وينفر من منخريه كالثور اذا أصابه الفـزع ، وهو يقول : «انظـر الى ــ ماذا تنوى أن تفعل ؟ اترك يدى» ولكن أرتشى دفع الباب دون استئذان وصرخ : «قبطان «بتنا» ياسيدى . ادخل أيها القبطان . » ورأى الرجل العجوز يرفع رأسه عن الورقة التى كان يقرؤها بحركة حادة أوقعت نظارته التى كانت مشبوكة على أنفه . ثم قفل البـاب بعنف ، وهرب راجعا الى مكتبه حيث كانت بعض الأوراق تنتظر امضـاءه . ولكنه قال لى ان الضوضاء التى كانت تنبعث من داخل الغرفة المقفلة كانت من الشدة بحيث لم يستطع أن يجمـع حواسـه الى الدرجة التى تجعله يتـذكر هجاء اسمه .. ولعـل أرتشى هو أكثر ضباط الملاحة حساسية وأرقهم شعورا فى نصـفى

الكرة الأرضية • فقد قال لى انه شعر حينئذ وكأنه قد ألقى
برجل بين فكى أسد جائع • ولاشك أن الضوضاء كانت شديدة
فلقد سمعتها من مكانى فى أسفل المبنى • وليس لدى شك
فى أنها كانت مسموعة بوضوح عبر الطريق المواجه للشاطىء
حتى مكان الموسيقى • وكان المعروف عن الأب اليوت أنه كان
غنيا بحصيلته الوافرة من الكلمات ، وأنه كان يستطيع الصراخ
وأنه كان لايهتم فى وجه من يكون هذا الصراخ • فلقد
كان يستطيع الصراخ فى وجه نائب الملك نفسه • وكان من
عادته أن يقول لى : « اننى قد وصلت الى أعلى مايمكن أن
أصل اليه ومعاشى مضمون ولقد ادخرت الى جانب ذلك بعض
المال • فان كان لايعجبهم فكرتى عن تأدية الواجب فانه
سيان عندى ان كنت أرجع الى وطنى أو أظل هنا • اننى رجل
عجوز الآن ولقد اعتدت طوال عمرى أن أقول ما أعتقد • وكل
مايهمنى الآن هو أن أرى بناتى وقد تزوجن قبل أن أموت»
ولقد كان مجنونا بعض الشيء فيما يتعلق بهذا الموضوع •
فلقد كانت بناته الثلاث غاية فى الرقة ولطف المعشر ، وان كن
يشبهنه شبها عجيبا • وفى صباح الأيام التى كان يستيقظ فيها
وهو غير متفائل باحتمال سنوح الفرص الكافية أمامهن للزواج،
كان كل من فى مكتبه يقرأون ذلك فى عينيه ويرتعشون ،
لأنهم كانوا متأكدين على حد قولهم أنه لا محالة سيفط،

بأحدهم . ولكنه لم يأكل الألمانى المرتد فى ذلك الصباح ، وان سمحتم لى بالاستمرار فى هذه الاستعارة — فانه قد اكتفى فقط بمضغه مضغا أحاله الى جرم صغير . ثم .. قذف به بعد ذلك بعيدا .

وعلى هذا فقد رأيت كتلته الضخمة تهبط الدرج فى سرعة شديدة ثم تقف بلا حراك على السلم الخارجى وتصادف أن توقف قريبا منى ليستغرق فى تفكير عميق ، ووجنتاه السميكتان القرمزيتان ترتعشان ، وكان يقضم ابهامه . ثم بعد برهة أمكن أن يلحظ وجودى بعد أن ألقى على نظرة جانبية طويلة بها شىء من الغضب . وكان الثلاثة الآخرون الذين نزلوا معه الى الشاطىء يقفون معا على مسافة قريبة . كان فيهم رجل ضئيل الجسم شاحب الوجه حقير المظهر يضع ذراعه فى رباط .. ورجل آخر طويل فى معطف أزرق من قماش «الفلانل» وكان جافا كقطعة من الخشب ونحيلا كيد المكنسة ، وله شارب رمادى ذابل قد تدلى طرفاه ... ينظر حواليه نظرات رجل أبله معجب بنفسه .. وكان الثالث شابا مستقيم الظهر ، عريض الكتفين ، يضع يديه فى جيبه وقد أدار ظهره للاثنين الآخرين اللذين كانا يتحدثان معا باهتمام ظاهر . وكان يرسل بنظرة عبر طريق الشاطىء .. وجاءت عربة يجرها حصان فى حالة سيئة من القدم وكلها تراب وستائر ، ووقفت مرة واحدة أمام الجماعة . ووضع سائقها قدمه اليمنى على ركبته اليسرى

وأخذ يتفحص أصابع قدميه فى استغراق عميق • ولم يأت الشاب بأى حركة ولا حتى غير رأسه عن وضعه ، بل استمر يحملق فى ضوء الشمس • وكانت هذه هى المرة الأولى التى وقع فيها نظرى على جيم ، وظهر وكأنه غير مهتم • وأنه من غير المستطاع الاقتراب منه ، كما يظهر فقط على الشباب • وكان يقف هناك نظيف الأطراف ، نظيف الوجه ، ثابتا على قدميه ، كأن الشمس لم تشرق على فتى يبشر بالخير أكثر منه • وحين كنت أنظر اليه وأنا أعلم كل مايعلم ، وأكثر مما يعلم أيضا ، اجتاحنى شعور بالغضب كما لو كان يريد أن ينتزع منى شيئا عن طريق الغش والخداع • انه لم يكن من حقه أن يظهر على هذه الصورة الجميلة المشرفة وقلت لنفسى « اذا كان مثل هذا الشاب يستطيع أن يرتكب مثل هذه الخطيئة •• » وشعرت وكأنى أستطيع أن أرمى بقبعتى على الأرض وأرقص عليها ، مما كنت أشعر به من الغيظ والخجل ، كما رأيت قبطانا ايطاليا لمركب شراعى يفعل ، حين وضع مساعده نفسه فى مأزق وهو يرمى مرساة وسط ميناء مزدحم بالسفن ، ولقد سألت نفسى وأنا أراه هناك وقد ظهر أمامى خلى البال « أهو مغفل أهو مجرد من الشعور ؟ » وكان يبدو عليه وكأنه سيبدأ فى صفير احدى النغمات •• ولاحظوا أننى لم أهتم مطلقا بسلوك الرجلين الآخرين ، فلقد رأيت فى شخصيتهما ما يناسب

دورهما فى القصة الشائعة التى أوشكت أن تكون موضع تحقيق السلطات وقال قبطان الباخرة «بتنا» «ان الرجل الشرير العجوز فى الطابق العلوى قال اننى كلب» . ولست أعلم ان كان قد تعرف على ، وان كنت أميل الى ذلك الرأى . ولكن أنظارنا تلاقت على كل حال . وكانت عيناه تقدحان شررا ولكنى تبسمت لأن كلمة كلب كانت أخف الشتائم التى وصلت الى سمعى من خلال الشباك المفتوح . وقلت له مدفوعا بشعور غريب بعدم القدرة على امساك لسانى « أقال لك ذلك ؟ » هز رأسه بعلامة الايجاب ، وقضم ابهامه ثانية وشتم بصوت غير مسموع . ثم رفع رأسه ونظر الى بوقاحة محنقة ، وقال بلكنته الألمانية «باه . ان فى المحيط الهادى متسعا ياصديقى . ويمكنكم أيها الانجليز الملاعين أن تفعلوا مافى وسعكم ، فأنا أعلم أين يمكن أن يعيش رجل مثلى على الرحب والسعة . انى أعرف فى آبيا ، فى هونولولو ، فى .. » ثم سكت وهو يفكر ، بينما استطعت دون مشقة أن أصف لنفسى نوع هؤلاء الناس الذين كان يعرفهم فى هذه الأماكن . ولن أتحرج من القول علنا بأنى أنا نفسى أعرف عددا غير قليل من هذا النوع من الناس . فهناك وقت يفرض فيه على الانسان أن يتصرف كما لو كانت الحياة حلوة المذاق أيا كان الرفاق . ولقد عرفت مثل هذا الوقت . وزيادة على هذا فانى لن أرسم على وجهى صورة

الغضب من ذكرى اضطرارى لمعاشرة هؤلاء الناس لأن الكثيرين من قرناء السوء هؤلاء ، اما بسبب افتقارهم الى .. ما يمكن أن نسميه الوضع الخلقى ، أو لأى سبب آخر لا يقل عن ذلك عمقا كانوا اكثر افادة للانسان ، بل يزيدون الضعف فى هذا المجال . وكانوا من حيث خفة الدم والتسلية يزيدون عشرين ضعفا على الأقل عن لص التجارة العادى المحترم الذى تدعونه للجلوس على موائدكم دون ضرورة نزولا على حكم العادة ، الجبن ، أو الطيبة أو لمائة سبب آخر لا أساس لها ولا اقناع فيها .

واستمر المواطن الاسترالى من فلنزبورج او اشتتن ، ولا أتذكر الآن أى ميناء نظيفة على بحر البلطيق كانت قد تدنست بصيرورتها عشا لهذا الطير الغريب ، فى حديثه فقال : « انكم جميعا لا أخلاق لكم أيها الانجليز . من أنتم حتى تصرخوا فى الناس — هل تستطيع أن تخبرنى ؟ انكم لستم خيرا من غيركم من الناس . اذن لماذا يجرؤ هذا العربيد العجوز على الصراخ فى وجهى ؟ » وكانت جثته الضخمة ترتجف على رجليه اللتين كانتا كزوج من العمدان . كانت ترتجف من رأسه الى قدميه .. « هذا هو ماتفعلونه دائما أيها الانجليز ، تجعلون من الحبة قبة ، وتثيرون ضوضاء لاداعى لها لأنى لم أولد فى بلادكم اللعينة . اسحبوا منى شهادتى ، خذوها ، فانى لا أريدها .

فرجل مثلى لايحتاج الى شهادتكم البغيضة .. اننى أبصق عليها ، اننى سأصير مواطنا أميركيا » . وجعل يشكو ، وينفخ ويحرك قدميه كما لو كان يريد أن يحرر كعبيه من قيد غامض غير مرئى ، سمرهما الى هذه البقعة وجعل من المستحيل عليه أن يبرحها .

وكان من نتيجة ذلك أن ارتفعت حرارته حتى تصاعدالدخان فعلا من قمة رأسه المستدير . أما أنا فلم يكن السبب الذى منعنى من ترك مكانى غامضا ، لأن حب الاستطلاع الذى هو أوضح الدوافع ، كان هو الذى أبقانى فى مكانى ، لكى أرى تأثير الأخبار كاملة على هذا الشاب الذى كان يضع يديه فى جيوبه ويدير ظهره للممشى الجانبى ، ويرمى بنظره عبر الأشكال الهندسية المغطاة بالخضرة فى الطريق الرئيسى أمام الشاطىء ، الى المدخل الأصفر ذى الأعمدة ، لفندق ملابار ، وكأنه على وشك القيام بنزهة على قدميه بمجرد أن ينتهى صديقه من عمله ليصحبه . كانت هذه صورته . وكانت صورة منفرة بالنسبة الى ، فانتظرت وأنا أترقب أن أراه فى صورة أخرى ، وقد طغت عليه الأحداث وركبته الحيرة وأحس بالطعنة تخترق شغاف قلبه وتغوص فيه الى الأعماق ، وقد أخذ يتلوى مثل خنفسة اخترقها سيخ من الحديد ... ولكنى كنت أيضا نصف خائف أن أرى ذلك يتحقق ، ان كنتم تفهمون ما أعنيه .

فليس هناك أفظع من مراقبة رجل ضبط متلبسا لا فى جريمة ولكن فى نوبة ضعف يفوق ضعف الاجرام • فأكثر أنواع الشجاعة والصبر انتشارا بيننا تقينا عادة من السقوط فى هوة الاجرام بمعناه القانونى • ولكنه نوع آخر من الضعف هو الذى نجهله وان كنا نشتبه فى وجوده كما يشتبه الناس فى بعض أجزاء الأرض فى وجود حية فى كل شجرة • انه نوع آخر من الضعف ، هو الذى قد يكون مختفيا سواء أكان مراقبا أم غير مراقب • هو نوع من الضعف قد نصلى الى الله أن يقينا منه ، أو قد نحتقره فى رجولة • هو نوع من الضعف قد نكبته أو نتجاهله ببساطة لأكثر من نصف حياتنا • وهذا هو النوع الذى لا ضمان لأحد فى النجاة منه • اننا قد نجد أنفسنا مضطرين لارتكاب أشياء نجازى عليها بالشتم ،وأشياء أخرى نجازى عليها بالشنق • ومع ذلك فقد لايمس التجريح أو الحبل أرواحنا • ولكن هناك أشياء أخرى قد تبدو أحيانا صغيرة ، وكلها قد تقضى على البعض منا قضاء مبرما ••

ووقفت أرقب الشاب هناك ، وأعجبتنى هيئته ، وتعرفت عليها ، عرفت أنه جاء من مكان لاغبار عليه • عرفت انه فرد منا • انه كان يقف هناك ممثلا للأصول والبطون التى خرج منها أمثاله • ممثلا للرجال والنساء الذين لم يشتهروا لا بالمهارة ولا بالقدرة على تسلية الناس واشاعة المرح بينهم ، بل كان كل

مما يميزهم هو أن وجودهم قد أسس على مجرد ايمانهم الصادق وشجاعتهم الغريزية . ولا أعنى بذلك شجاعتهم فى الحرب أو شجاعتهم المدنية ، أو أى نوع خاص من الشجاعة . وانما أعنى فقط تلك القدرة الطبيعية على مواجهة الاغراء بنظرة ثابتة لا تتزعزع وفى استعداد يعلم الله ألا علاقة له بالفكر، ولكنه بعيد عن التصنع . أعنى تلك القدرة على المقاومة التى قد لاتتسم برقة الحاشية ، ولكنها مع ذلك لاتقدر بثمن . فهى ذلك النوع من الصلابة المباركة الذى لا يفكر ، ولكنه يقف فى وجه المخاوف المفزعة : الداخلى منها والخارجى ، ويقف أيضا فى وجه قوة الطبيعة ، وفى وجه فساد الرجال واغرائه يسانده ايمان لايضعف أمام قوة الحقائق ، ولا عدوى المثل ، ولا منطق الأفكار . سحقا للأفكار . فما هى الا المتشردون والمتسكعون الذين يقرعون باب عقلك الخلفى ليأكل كل منهم قليلا من جوهر كيانك ، ويحمل كل منهم معه فتاتا من اعتقادك فى تلك الأراء القليلة التى يجب عليك أن تتمسك بها ان أردت أن تحيا نقى الذيل وتموت خلى البال

«ولا علاقة مباشرة لجيم بكل هذا . فكل ما هنالك انه كان يبدو على شكله الخارجى أنه ينتمى الى النمط الأصيل لذلك النوع الطيب الغبى من الرجال الذين نحب أن نحس بوجودهم عن يسارنا ويميننا فى رحلة الحياة . ذلك النوع الذى لاتقلقه غلواء الذكاء ولا انحراف ... الأعصاب —

ولنسمها بهذا الاسم • فلقد كان من ذلك الطـراز من الرجال الذين نســـتطيع اعتمادا على مظهرهم فقط أن نعهـد اليهم بمسئولية قيادة السفينة حقيقة ومجازا •

« وانى لأصرح لكم بأنى كنت أفعـل ذلك دون تردد ، — ولعلكم توافقوننى فى أن لى من الخبرة ما يؤهلنى للحكم على هذه الأشياء • أفلم أدرب عددا كافيا من الشبان فى زمانى لخدمة (الخرقة الحمراء) تشبيها بالخرقة الحمراء التى يلوح بها للثور لاهاجته ، أى لتحدى البحر) أى حرفة البحر • هذه الحرفة التى يمكن أن يعبر الانسان عن كل ما خفى من أسرارها فى جمـلة واحدة قصيرة • ومع ذلك فيجب ادخال هذه الفكرة يوميا فى تلك الرءوس الفتية حتى تصبح جزءا من كل فكرة تخطر لهم فى حالة اليقظة ، ومن كل حلم لهم فى حالة النوم • حقا ان البحر قد عاملنى معاملة طيبة • ولكنى حين أستعرض الماضى وأتذكر كل هؤلاء الفتيان الذين مروا بين يدى ، والذين بلغ بعضـهم أشده الآن ، وغرق البعض الآخر ، والذين كان جميعهـم خاما جيدا للعمل فى البحر • حين أتذكر كل هؤلاء فانى أعتقد أننى أيضا قد أحسنت معاملة البحر ، ورددت له بعض جميله ••• واننى لأراهـن أننى لو رجعت الى بلادى باكـــرا ، فانه لن يمر على يومان هنالك قبل أن يلحق بى أحد الضباط الأول الشبان عند احدى بوابات الميناء ، وانى سأسمع صوتا عذبا عميقـــا يوجه لى سؤالا فوق قبعتى قائلا : « الا تتذكرنى ياسيدى ؟

انني فلان وكانت السفينة كذا ، وكانت تلك أولى رحـــلاتى فى البحر » وسوف أتذكر حينئذ فتى صغيرا حائرا لا يعلو عن ظهر هذا الكرسى صحبته أمه ، وربما أخته الكبرى أيضـــا حتى مرسى السفينة على الشاطىء وهما هادئتا المظهر . ولكنهما فى حالة عاطفية مضطربة لا تستطيعان معها التلويح بمنديليهما للسفينة وهى تنزلق على صفحة الماء بين رصيفى المينـــاء ... أو ربما كان مصحوبا بأبيه الذى كان رجلا طيبا متوسط العمر حضر الى السفينة مع ابنه قبل أن تبحر بوقت طويل ، ثم بقى هناك طول الصباح لأنه — على ما يظهر — كانت تعجبه اسطوانة الكابل التى ترفع الأثقال الى السفينة . ثم اكتشف فجأة أنـــه قد مكث اكثر ممايجب فأضطر الى النزول بأسرع مايمكن دون أن يستطيع أن يقول لابنه كلمة وداع . ويصيح المرشـــد فى مؤخرة السفينة فى صـــوت كالغناء قائلا : « أمسكها بالحبل المساعد لحظة ياسيدى الضابط . فهناك ســيد يريد أن ينزل الى الشاطىء . هيا انزل يا سيدى . لقد كدت أن تبحر معها الى تلكاهوانو . أليس كذلك ؟ انزل الآن — وعلى مهل ... حسن الآن . أرخ الحبـــل ثانيـــة . وأنتم هنـــاك الى الأمام وتأخذ الجرارات الكابلات ، والدخان ينبعث منهـــا كأنهـــا حفرة من جهنم ، وهى تثير الغضب على صفحة النهر القـــديم بينما يكون السيد على الشاطىء قد أخـــذ ينفض التراب عن

ركبتيه وقد رمى له رئيس الخدم الطيب مظلته التى تركها وراءه • وكل شيء على مايرام • لقد قدم قربانه الصغير الى البحر ويمكنه الآن أن يقفل راجعا الى بيته وكأنه لم يعد يشغل باله بذلك بعد الآن • ولا بأس ان أصاب البحر الضحية الجديدة التى أسلمت نفسها وهى راضية لنوبة شديدة من دواره قبل بزوغ شمس اليوم التالى ••• وبمرور الوقت حين يتعلم الفتى كل الألغاز الصغيرة للحرفة مضافا اليها معرفة السر الكبير ، فانه سيصبح بعد ذلك صالحا للحياة أو الموت كما يقرر البحر • وسيكون الرجل الذى كان له دور فى هذه اللعبة المجنونة التى يكسب فيها البحر كل مرة ، مسرورا حينما يحس يدا ثقيلة شابة تضرب على ظهره ويسمع صوتا مؤنسا لجرو من جراء البحر يصيح به «أتذكرنى ياسيدى ؟ فلان الصغير » •

وانى أقول لكم ان هذا جميل • فمعناه ان الانسان على الأقل فى مرة واحدة لم يضل السبيل فى عمله • ولقد ضربت على ظهرى بهذه الطريقة ، وشعرت بألم شديد فى بعض الأحيان من ثقل الضربة • ولكن مثل هذه الضربة كانت تملأ قلبى بالرضا والدفء طول النهار • وكنت أذهب بعدها الى فراشى ليلا ، وأنا أقل شعورا بوحدتى فى هذا العالم • ألا أتذكر فلانا الصغير ؟ • وانى أقول لكم اننى أعرف من

هيئة هؤلاء الفتيان من يصلح منهم لهذه الحيـاة • وما كنت أتردد بعد نظرة واحدة أن أعهد بقيادة سفينتى الى ذلك الشاب وأن أذهب بعد ذلك الى فراشى لأنام مـلء جفنى • ولكنى أعلم الآن أن ذلك كان سيكون مليئا بالمخاطرة بحق السماء • وأن هناك أعماقا سحيقة للفزع فى هذه الفـكرة • ولقد كان شكله يوحى بأن معدنه من الذهب الخالص ، ولكن هـــذا المعدن كان يحتوى أيضا على مزيج آخر جهنمى • كم نسبته ؟ شىء صغير جدا ، نقطة واحدة متناهية فى الصـغر من شىء نادر يحمل لعنة من اللعنات • ولكنـه كان يجعلك تشـك وأنت تراه واقفا هناك فى مظهر من لايحفل ولا يكترث بشىء على الاطلاق ، أنه ربما كان جميعه من معدن ليس أندر من النحاس •

ب

« اننى لم أرد أن أصدق ذلك • وأردت أن اراه وهو يتلوى أمامى من الألم من أجل شرف المهنة • أما الرجـلان الآخران اللذان كانا لافى العير ولا فى النفير ، ولا يمكن أن يحفل بهما أحد ، فقد لمحا قبطانهما وبدآ يتحركان نحونا ، وكانا يتحدثان فى طريقهما الينا • ولم يزد اهتمامى بهما عما لو كانا غير ظاهرين للعين المجردة : وكانا يضحكان وكأنما يتبـادلان النكات — فلست أعلم • ورأيت أن أحدهما كان هـو صـاحب الذراع المكسورة ، وأن الثانى الطويل ذا الشارب الأبيض كان هـو

المهندس الأول • وكان رجلا ذا شهرة سيئة فى نواح كثيرة • وكانا نكرتين • ثم اقتربا فنظر القبطان الى مابين قدميه نظرة لاحياة فيها • وكان يبدو وكأنه قد انتفخ الىهذا الحجم الهائل بسبب مرض فظيع أو بسبب تأثير غامض لسم غيرمعروف•ورفع رأسه ورأى الرجلين أمامه ينتظران — ففتـح فمه مسجلا على وجههالمنتفخ شكلا ممسوخا تقلصتقسماته بدرجةلاتكادتصدق وكان ذلك ليتحـدث اليهم كما أظن ، ولكن فكـرة أخرى خطرت له فجأة ، فزم شـفتيه القرمزيتين السـميكتين على بعضهما دون صوت ، وشق طريقه فى ثبات الى العـربة الواقفة وهو يمشى كالبطة • ثم أخذ يحرك مزلاج بابها بعنف شديد لايعرف الصبر حتى لقد توقعت أن أرى العربة ومعها الحصان أيضا ، وقد أنقلبا على جنبيهما فى الأرض • وأفاق السائق بعنف من تأماه لأسفل قدمه • وظهرت كل عـوارض الفزع الشديد عليه ، فأمسك بالعربة بكلتـا يديه وهـو يلتفت من مكانه ليرى تلك الجثة الضخمة وهى تحاول اقتحامها واهتزت العربة الصغيرة من أعماقها وأخذت ترتفع وتنخفض فى اضطراب شديد • وكان منظر قفاه القرمزى وهو يحنى رقبته ، وحجم فخذيه المجهدتين ، وارتفـاع وانخفاض ذلك الظهـر الأخضر البرتقالى القذر مع تنفسه — وبالاجمال ذلك المجهود الضخم لادخال تلك الكومة القذرة القبيحة الشـكل ، ذات

الألوان الغامضة الى داخل العربة مما يحمل طاقة المعقول والممكن عند الانسان أكثر مما يجب ، ويجعلها تقع تحت تأثير غريب مخيف أشبه مايكون بتأثير تلك الرؤى التى يراها الانسان فى هذيان الحمى . تلك الأشكال الواضحة ذات الصور التى لا تخضع فى غرابتها لمنطق ولا عقل ، والتى تخيفنا وتستهوينا فى آن واحد .. ثم اختفى ، وكنت أكاد أتوقع أن ينشق سقف العربة الى قسمين وينفتح ذلك الصندوق الصغير المركب على العجل كما تنفتح لوزة القطن عند نضجها . ولكن العربة سقطت بدلا من ذلك على (سستها) التى فقدت تقوسها وتسطحت تحت حملها بصوت مسموع . وفجأة نزل ستار احدى نوافذ العربة محدثا ضوضاء ، وظهرت كتفاه وهما محشورتان فى الفتحة الصغيرة ، وظهر رأسه معلقا فى الخارج . وقد تمدد وتحرك مع الريح كبالون مربوط ، وقد سال منه العرق ، وظهر عليه الغضب ، وتدافعت الكلمات منه كالمطر ، واجتهد أن يصل الى السائق بتحريك قبضته ـ التى كانت رطبة حمراء ككتلة لحم نىء ـ فى الهواء بشدة متناهية . وصرخ فيه صرخة منكرة أن يتحرك ، وأن يسرع . الى أين ؟ الى المحيط الهادى ، ربما ؟ وأهوى السائق بسوطه . ونفر الحصان ، فقفز على رجليه الخلفيتين مرة قبل أن يمرق كالسهم - الى أين ؟ الى أبيا ؟ الى هنولولو ؟ أنه كان أمامه

ستة آلاف ميل فى الدائرة الاستوائية يستطيع أن ينفى نفسه فى أى مكان فيها . ولكننى لم أسمع العنوان على وجـــه التحديد . فلقد اختطفـه حصـان ، يرسـل الريح بعنف من منخرية ، من نقطة السكون الى حالة الحركة فى غمضة عين . ولم أره بعـد ذلك قط . وزيادة على ذلك فاننى لا أعـرفه أحدا قابله أو وقع نظره عليـه منذ تلك اللحظة التى خـرج فيها من عالمى وعلمى ، الى داخل عربة قديمة مفككة الاجزاء اختفت به حول ناصية الشارع القريبة فى سـحابة من التراب فلقد غادر المكان ، واختفى ، وانقطع أثره ، وزال وجـوده . ويظهر أيضا — وان كان ذلك من الصعب تصديقه — انه قد أخذ معه العربة التى أقلته فاننى لم التق بعد ذلك أبدا بذلك الحصان الذى كان لونه الأحمر يضرب الى السمرة ولا بسائقه ذى الأذن المخروقة ، وهيئته الكسول وقدمه التى التهب جلدها .. ان مما لاشك فيه أن المحيط الهادى واسع جدا ، وسـواء وجد فيه مكانا يعرض فيه ملكاته أم لم يجد فان الحقيقـة والواقع هو انه قد طار الى الفضاء كما تطير ساحرة القصص على يد مكنسة ... وبدأ الرجل الذى كانت ذراعه فى الرباط يجرى وراء العـربة وهو يصيـح بصـوت كمأمأة الغنم . « أيها القبطان — أيها القبطان » ولكنه توقف بعـد خطوات قليلة ، وطأطأ رأسه ، وقفل راجعا فى بطء ، وكان الشـاب

قد استدار حول نفسه بسرعة حين سمع الضوضاء الحادة لصوت العجل على الأرض ، ولكنه لم يات بحركة أخرى ، ولا باشارة ، ولا علامة ، وظل ينظر فى الاتجاه الجديد حتى بعد أن اختفت العربة فى ناصية الشارع •

وكان كل ذلك قد حدث فى وقت أقصر من الوقت الذى أحتاج اليه لسرده عليكم • حيث أنى أريد أن أفسر لكم بكلام بطىء ذلك التأثير الذى تحدثه المرئيات العابرة فى نفس التو واللحظة التى تراها فيها • وحضر بعد قليل الكاتب ذو الدم المخلوط الذى أرسله أرتشى ليرعى شؤون هؤلاء المساكين الذين تركتهم الباخرة بتنا وسط البحر ، وكان يجرى فى متزاز ظاهر برسالته عارى الرأس يتلفت يمنة ويسرة ، ولايكاد يستطيع السيطرة على رغبته الجامحة فى سرعة تنفيذ ماعهد به اليه • وبالطبع كانت هذه الرسالة مستحيلة التنفيذ فيما يتعلق بالشخص الرئيسى فيها ، ولكن الكاتب تقدم من الاخرين بشىء من الاستعلاء ، وفى صورة فجة اعتقد أنه سيدخل بها فى روعهم أنه رجل على جانب عظيم من الأهمية • ولكنه لم يلبث أن وجد نفسه فى الحال داخلا فى مناقشة كلامية حامية الوطيس مع الرجل الذى يضع ذراعه فى الضماد ، والذى ظهر أنه كان يتحرق شوقا للدخول فى معركة من هذا النوع • فقال له أنه لن يتلقى الأوامر من أحد « ليس هو • بحق

السماء ! . » انه لن يفزع من تلك الأكاذيب الكثيرة التى يهيلها عليه أحد صغار حملة الاقلام المتعاظمين من ذوى الدم المخلوط . انه لن يخاف من تهديد نكرة من هذا النوع ان كانت القصة صحيحة : «لن يخاف أبدا» ثم صرخ معربا عن رغبته ، وعن شوقه وعن تصميمه على الذهاب الى الفراش . ثم سمعته يصيح — قائلا — « مالم تكن أحد هؤلاء البرتغاليين الذين تخلى عنهم ربهم — لكنت عرفت أن المستشفى هو المكان الوحيد الذى يجب أن أذهب اليه » وكان يمد قبضة يده السليمة الى ماتحت أنف الرجل الذى يخاطبه . وابتدأ الناس يتجمعون حولهم وشعر الرجل ذو الدم المخلوط بالحرج ، ولكنه عمل كل مافى وسعه لكى يحتفظ بوقاره وهو يحاول الاعراب عما ينوى عمله ... ولكننى تركت المكان دون انتظار النتيجة .

ثم تصادف أن كان أحد رجالى فى المستشفى فى ذلك الوقت ، وحين ذهبت لأراه هناك فى اليوم الذى كان يسبق اليوم الذى تحدد للمحاكمة رأيت فى قسم الرجال البيض ذلك الرجل وذراعه فى الضماد بين قطعتين من الخشب ، وقد ظهرت عليه عوارض خفة العقل بشكل ظاهر وهو يتقلب على ظهره فى الفراش . ولدهشتى شاهدت الرجل الطويل ذا الشارب الأبيض أيضا ، وقد وجد هو الآخر طريقه الى هناك . وتذكرت

أنى كنت رأيتـه وهو يحاول الاختفـاء وقت تلك المعركة وهو يجر رجليه حينا ، ويشب عليهما حينا آخر يحاول اخفاء رعبه الشديد ، ويظهر أنه لم يكن غريبا على هذا الميناء ، ورغم حيرته كان قد استطاع أن يوجه خطاه الى قاعة البليارد ومكان بيع الخمور الذى يملكه مريانى قريبا من السوق . وكان مريانى يعرف الرجل وقد سبق أن أدى له خدمات غير أخلاقية فى أماكن أخرى . وكان أيضا رجلا متشردا تعجز الكلمات عن وصف رذائله فاستقبله وهـو يقبل الأرض بين قدميه اذا صح هذا التعبير مجازا . وأغاق عليه باب غرفته العليا فى مكانه السيىء السمعة مع بعض زجاجات الشراب . ويظهر أنه كان تحت تأثير فكرة غامضة بأن حياتهمهددة بالخطر وأنه يجب أن يختفى عن الأنظار . وعلى كل حال فقد أخبرنى ماريانى بعد ذلك بمدة طويلة (وكان قد حضر الى السفينة على غير انتظار ليفاجىء رئيس الخدم هناك مطالبا اياه بثمن بعض السيجار) أنه كان مستعدا لعمل أكثر من ذلك له دون أن يسأله سؤالا واحدا . وكان ذلك كما فهمت من سياق الحديث ردا لجميل لا يمت الى القداسة بصلة كان قد أسداه اليه المهندس منذ زمن طويل ، وضرب ماريانى وهـو يحدثنى صدره القوى مرتين بيديه ، وأدار الى عينين كبيرتين يلمع سوادهما وبياضهما بالدموع وقال «أنطونيو لاينسى الجميل .

أنطونيو لاينسى أبدا » ولم أستطع مطلقا أن أعرف سر هـذه الخدمة غير الأخلاقية التى أداها اليه • ولكن أيا كانت طبيعتها فان هذا المهندس قد منح كل التسهيلات التى تمكنـه من البقاء فى غرفة أحكم اغلاقها ، مع مقعد ومنضدة وحشية فى أحد الأركان ، وحفنة من البياض سقطت من السـقف على أرضيتـها ، وفى حالة من الرعب لا أسـاس لها من المنطق ، وفى صحبة كميـة من الشراب المقـوى قدمـه ماريانى ليستطيع به رفع معنوياته كلما احتـاج • واستمر استمتاعه بهذه الضيافة حتى مسـاء اليوم الثالث حين وجـد نفسـه مضطرا بعد أن أطاق بضع صرخات قـوية لأن يهرب انقـاذا لحياته أمام حشد من الدود السام ذى السيقان المسمى بالسنتييد هى دودة لها سيقان كثيرة ، الزوج الأول منهـا فى المقدمة سام) فدفع الباب بقوة فتحته على مصراعيـه • وقفز قفزة واحدة لانقاذ حياته الغالية على السلالم الصغيرة خارج الغرفة، فسقط كتلة واحدة فوق بطن ماريانى • ثم نهض من كبـوته وأطاق ساقيه للريح كالأرانب فى الشـوارع • وفى بـكور الصباح الثانى التقطه رجال الشرطة من فوق كومة للقاذورات• وكانت الفكرة الأولى التى خطـرت له هـو انهم سيحملونه الى المشنقة ، فقاتلهم قتال الأبطال دفاعا عن حياته الغاليـة • ولكنى حين جلست الى جانب سريره فى المستشفى كان قـد

مضى عليه يومان وهو فى هدوء تام وكان رأسه البرنزى النحيل وشاربه الأبيض لهما منظر جميل هادىء على الوسادة ، كمنظر جندى قديم تعب من الحرب ، وله روح طفل ، لولا شبهة من شبح للخوف كان يكمن فى لمعان نظرته الشاردة تشبه صورة لا يمكن وصفها للرعب ، تجلس القرفصاء فى هدوء وراء لوح من الزجاج الشفاف .. وكان غاية فى الهدوء الى درجة أن الأمل بدأ يداعبنى فى سماع شىء يفسر ما حدث فى القضية المشهورة من وجهة نظره الخاصة . أما لماذا كنت أتحرق شوقا لبذل ما فى استطاعتى بحثا وراء التفاصيل المؤسفة لهذا الحادث الذى لم يكن يعنينى على أية حال الا كعضو فى هذه الهيئة المغمورة من الرجال ، الذين يجمع بينهم ذلك المجهود المضنى المشترك الذى لا شهرة ولا مجد وراءه ، وذلك الاخلاص بينهم لمستوى خاص من السلوك يستمسكون به ، فانى عاجز عن الاجابة على هذا السؤال . يمكنكم أن تسموه مرض حب الاستطلاع ان أردتم . ولكنى أذكر تماما أننى كنت أبحث عن شىء . ولعلنى دون وعى كنت آمل أن أعثر على ذلك الشىء . ان أعثر على سبب عميق غاب عنى يعيد له الاعتبار ، أو تفسير رحيم أو على شبهة من عذر يقبله العقل . ولكنى أرى الآن أننى كنت أبحث عن المحال . كنت أريد أن اسقط ذلك الشبح الذى هو اكثر الأشباح عنادا فى خلق الانسان .

كنت أريد أن أريح نفسى من ثورة الشك المرهقة ـ وهى ترتفع كالضباب ، وتنهش فى الظلام كالدود ، وتحيل روح الانسان الى جليد كما يفعل انتظار الموت المحقق ـ ذلك الشك الذى تصدره السلطة الحاكمة التى تتربع على عرش ، لمستوى ثابت فى السلوك . انه أصعب الأشياء التى يصطدم بها الانسان . انه الشىء الذى يولد حالات صارخة من الفزع ، وكثيرا من حالات الانحراف . انه الظل الحقيقى للكوارث .. ولكن هل كنت أعتقد فى حدوث معجزة ؟ ولماذا كنت أطلبها بكل هذه الحرارة ؟ هل كان حافزا شخصيا هو الذى دفعنى الى التعلق بأمل العثور على أى عذر لذلك الشاب الذى لم أره من قبل ولكنه أثار فى ـ بمجرد رؤيتى اياه شعور العطف والاهتمام، الى جانب ذلك الشعور الآخر الذى سببه علمى السابق بضعفه . وجعلنى كل ذلك أشعر بفزع غامض لعل سببه هو الا ضمان للقدر الذى قد يضربنا الضربة التى تحطمنا فى أية لحظة . نحن أيضا الذين كان شبابنا ـ فى أيامه ـ يشبه شباب ذلك الفتى . اننى أظن أن ذلك كان السبب وراء سعيى ولقد كنت دون شك أبحث عن معجزة . ولكن الشىء الوحيد الذى يبدو لى الآن من قبيل المعجزات على بعد الزمن الذى يفصل بيننا هو الحد الذى وصلت اليه بلاهتى حينذاك . فلقد كنت آمل حقا أن أجد عند ذلك الرجل المريض

المتداعى، الذىلا أخلاق له ، تعويذة ضد شبح الشك . ولابد أننى كنت فى عجلة من أمرى أيضا لأننى بعد أن نطقت ببعض كلمات جوفاء للود والمجاملة أجاب عليها بيسر وكمل كما يفعل أى رجل مريض حميد الخلق لم أضيع بعد ذلك ذلك وقتا ، بل ذكرت كلمة « بتنا » بين طيات سؤال رقيق كأنه قطعة صغيرة ناعمة من الحرير . وكانت الأثرة هى التى جعلتنى رقيقا حين لم أرد مفاجأته بما لا يسره دون تمهيد . ان شأنه لم يكن يهمنى . اننى لم أكن حانقا عليه ولا آسفا على حالته ولم تكن تجربته عندى ذات موضوع ولا كان رد اعتباره أيضا . لقد كان من ذوى التاريخ الطويل فى الخطايا وأصبح بذلك عاجزا عن التأثير فى النفس ، ولا يبعث فيها شعورا بالاشمئزاز ولا بالشفقة .

فكرر كلمة «بتنا» بطريق الاستفهام . وبدا عليه أنه يجمع ذكرياته للحظة قصيرة ثم قال : « نعم هذا صحيح . اننى من الرجال القدامى فى هذه الانحاء . ولقد رأيتها وهى تختفى تحت الماء » وكنت على وشك أن أنفس عن غضبى لسماعى هذه الكذبة البلهاء حين أضاف فى نعومة : « لقد كانت مليئة بالزواحف » .

فأوقفتنى هذه الكلمات . ماذا يعنى ؟ ورأيت شبح الخوف غير المستقر خلف عينيه اللتين ظهرتا وكأنهما من زجاج . وكأنما

كان الشبح يقف ساكنا ينظر فى أسف الى عينى •• ثم استأنف حديثه وكأنه يفكر : « لقد اخرجونى من فراشى وقت النوبة الوسطى لأنظر اليها وهى تغرق » ثم سمعت صوته وهو يدوى فجأة فى قوة مخيفة • فأسفت على نزقى • ولم أر وقتها واحدة من غطاءات الرأس الثلجية المجنحة التى ترتديها الأخوات الممرضات تنتقل فى خفة كالفراشة فى هذه الغرفة • ولكن كان هناك واحد من ضحايا الحوادث فى مرسى السفن ــ يجلس بعيدا ــ وسط صف طويل من الأسرة الحديدية المعمدة • وكان رجلا أسمر نحيلا وضعت جبهته فى ضماد بطريقة أضفت عليه منظر الرجل العربيد • وفجأة أخرج مريضى المثير يدا نحيلة كرجل العنكبوت من تحت غطاء الفراش أنشبها فى كتفى ، وقال « عيناى فقط هما اللتان كانتا تستطيعان أن تريا • فأنا مشهور بقوة نظرى • وهذا هو ما حملهم على استدعائى كما أظن • فلم يكن فيهم من يستطيع بسرعة نظره أن يراها وهى تختفى • ولكنهم استطاعوا بسهولة أن يلحظوا اختفاءها • وغنوا حينذاك هذه الأغنية •• » وسمعت صيحة ذئب تجلجل فى أعماق نفسى الى القرار • وسمعت الرجل الجريح يقول بصوت رفيع ملؤه الضيق « اجعله يقفل هذا الفم المزعج » •• ولكن الرجل الآخر استمر فى حديثه فى غرور وود : « أظنك لا تصدقنى • انى أقول لك انه ليس هناك عينان كعينى فى هذا الجانب من الخليج الفارسى ••

أنظر تحت السرير » . وطبعا انحنيت فى نفس اللحظة لأنظر . وانى لأتحدى كائنا من كان ألا يفعل ما فعلت وقال لى : «ماذا تستطيع أن ترى ؟ » قلت «لا شىء» وأنا أكاد أذوب خجلا من نفسى ، فامتحن وجهى بنظرة مجنونة تفيض بالاحتقار القاتل « نعم هذا ما كنت أتوقعه . ولكن اذا كنت أنا الذى أنظر فانى كنت سأرى ... انى أقول لك انه لا يوجد مثل عينى » وأنشب يده فى ثانية ، وهو يشدنى اليه فى تشوقه للتنفيس عن نفسه بما يريد أن يسر به الى : « ملايين من الضفادع الحمراء. لا يوجد مثل عينى ، ملايين من الضفادع الحمراء . انه أسوأ من رؤية سفينة وهى تغرق . اننى أستطيع أن أشاهد السفن تغرق وأنا أدخن غليونى طوال اليوم ... لماذا لا يرجعون الى غليونى؟ انى أستطيع أن أدخن وأنا أراقب هذه الضفادع . ان السفينة كانت تزخر بها . انها يجب أن تراقب ، كما تعلم» . ورمش الى فى مجون . وكان العرق يتساقط من رأسى عليه . وقد التصقت ملابس الصيف التى كنت ألبسها بظهرى . ثم هبت ريح العصارى بشدة لا توقف فيها فوق صف الأسرة ، وعلى ثنايا الستائر الصلبة التى كانت تتحرك حركة رأسية وتحدث ضوضاء بارتطامها بالأسياخ النحاسية (من الواضح أنها كانت من النوع الذى يسمى بستائر البندقية) وطارت غطاءات الأسرة الخالية بلا ضوضاء قريبا من الأرض على طول الصف .

وأحسست أنا برعشة تخترق جسدى حتى العظام • ولقد كان هبوب هذا النسيم الاستوائى الناعم على هذا الجناح العارى باردا كريح الشتاء العاتية حين تهب على مخزن قديم من مخازن المزارع فى انجلترا • وصاح الرجل الجريح من بعيد صيحة غاضبة فيها نبرات الاستغاثة ، جاءت تجلجل بين الجدران فى رنين أشبه بصدى صرخة فى نفق قائلا : « لاتدعه يبدأ صرخاته من جديد أيها السيد» وشدت اليد النحيلة كتفى ونظر الى نظرة أهل العلم وقال ، « ان السفينة كانت تزخر بهم كما تعلم واضطررنا الى مغادرتها فى سرعة تامة » ثم همس فى سرعة شديدة « كلها حمراء • حمراء • وكبيرة ككلاب الماستيف بعين فى قمة الرأس ومخالب حول أفواهها القبيحة • أف أف» ثم أظهرت هزات كهزات الكهرباء تحت الغطاء الخفيف ، الخطوط الخارجية لرجليه النحيلتين المضطربتين • ثم أفرج عن كتفى وحاول أن يمسك بشىء فى الهواء • وارتعش جسده بشدة كوتر من أوتار القيثارة لمسته اليد ثم تركته • وبينما كنت أنظر اليه • أفلت شبح الخوف منه خلال نظرته الزجاجية • وفى الحال تحلل أمام عينى وجهه الذى كان وجه محارب قديم بخطوطه النبيلة الهادئة • تحلل بفعل فساد المكر الخبيث، والحيطة الملعونة ، والخوف اليائس وكبت صرخة « آش ش ش وماذا يفعلون هناك الآن فى أسفل ؟» وسأل هذا السؤال وهو

يشير الى أرض الغرفة بحيطة غير معقولة في الصوت والاشارة جعلتني حين تفتح لها عقلي في ومضة كالبرق .. أحس بالغثيان من مهارتي وأنا أقول «انهم جميعا نيام» وراقبته عن كثب . وعلمت أني موفق فذلك هو ما كان يريد أن يسمع . وكانت هي الكلمات بعينها التي كان يمكن أن تهدئه . فأخذ نفسا طويلا وقال «سش ش ش .. اهدأ واثبت . انني هنا من زمن طويل . انني أعلم طبيعة هذه الوحوش . ضربة على رأس أول من يتحرك منها . ان هناك عددا أكثر من اللازم منها . ولكن التي تتلقى الضربة لا يمكنها أن تعوم أكثر من عشر دقائق » وابتدأ يلهث ثانية وأخذ يصيح من جديد ، واستمرت صيحاته تتدفق بلا انقطاع وهو يقول : « انها جميعا مستيقظة . ملايين منها وهي تسحقني بأرجلها . انتظر انتظر . سأسحقها أنا جميعا كالذباب . انتظرني . النجدة النجدة .» وأخذته بعدذلك نوبة مستمرة من الصرخات المتقطعة أكملت ماكنت أحس به من ضيق خانق . ورأيت الرجل الجريح يرفع كلتا يديه الى رأسه التي في الضماد . ثم ظهر في آخر الغرفة الكبيرة ممرض يلبس «مريلة» تصل الى ذقنه . ولقد بدا على البعد صغيرا كأنك تراه من طرف تلسكوب مقلوب . وكنت عندئذ قد اقتنعت بهزيمتي الكاملة . فخطوت دون جلبة أخرى من أحد الأبواب الطويلة المفتوحة الى الشرفة الخارجية . وكانت

صرخاته تتبعنى كأنها انتقام السمـــاء • واتجهت الى ممشى مهجور بين الدرج وفجأة أحسســت بكل شيء ســاكنا هادئا حولى • وهبطت الدرج اللامع العادى فى سكون تمكنت معه من جمع أفكارى المشتتة • وقابلت فى أسفل الدرج أحـــد الجراحين المقيمين فاستوقفنى وقال ، هل كنت تزور رجلك أيها القبطان ؟ أظن أننا سنـدعه يخـرج باكرا • وان كان هؤلاء الأغبياء لا يحسنون العناية بأنفسهم • وعلى فكرة ان المهندس الأول لمركب الحجاج التى لابد أن تكون قد سمعت عنها هنا • انه حالة جديرة بالاهتمام ، حالة عقلية من أسوأ الحالات • فلقد قضى ثلاثة أيام وهو يشرب بشراهة فى محل ذلك الايطالى أو اليونانى • فماذا كنت تنتظر ؟ أربع زجاجات من ذلك النوع من البراندى • كما أخبرونى • مدهش ان صح هذا • لابد أنه مبطن بحديد الغلايات من الداخل • ورأسه •• آه ان رأسه قد ذهب • ولكن الشيء العجيب أنك تلحظ نوعا من المنطـق فى هذيانه • انى أحاول أن أتحقق من هذا • فذلك شيء نادر جدا أن تجد خيطا واضحا من المنطق فى مثل هذا الهذيان لقد كان يجب أن يرى الثعابين بحكم التقاليد ولكنه لا يرى ذلك • ولكن يظهر أن التقاليد قد فقدت سلطانها على الناس فى هذه الأيام • فرؤياه تتركز فى الضفادع • ها • ها • ولكن اذا تركنا المزاح جانبا • فانى لا أتذكر أن حالة من حالات الهذيان قد

استدعت اهتمامى مثل هذه الحالة . أتعلم أنه كان يجب أن يموت بعد مثل هــذه التجربة فى الترفيه عن نفسه ؟ أوه انه جسم صلب . وخاصة بعد أربعة وعشرين عاما فى المنطقة الحارة أيضا . انك يجب أن تلقى عليه نظرة . سـكير قديم له وجه وقور . أعجب رجل رأيته فى حياتى من الوجهة الطبية بالطبع . ألا تريد أن تراه ؟ » .

وكنت طول الوقت أظهر له علامات الاهتمام التى تقتضيها المجاملات العادية بين الناس ، ولكننى تفوهت الآن ببعض كلمات أعرب بها عن أسفى لأننى لا أجد الوقت الذى يسمح لى بذلك . وهزت يده فى عجلة . وصاح ورائى : « نسيت أن أقـول لك انه لن يستطيع حضور المحاكمة باكر . هل تظن أن شهادته لازمة ؟ » فقلت وأنا عند البوابة : « كلا . لالزوم لها البتة » .

الفصل السادس

ومن الواضح أن السلطات كانت من رأيي . فلم تؤجل المحاكمة . وعقدت الجلسة في اليوم المحدد ارضاء للقانون . وكان الاقبال عليها شديدا بسبب الجوانب الانسانية المثيرة فيها . ولم يكن هناك أي ظل من الشك فيما يختص بثبوت الحقائق . أعني فيما يختص بثبوت الحقيقة المهمة فيها .. أما عن كيف أصيبت الباخرة «بتنا» بما وقع من الضرر ،فكان من المحال الكشف عنه . ولم يكن هناك رجل واحد في ذلك الجمع الذي حضر يحفل بذلك أو يعيره أي التفات . ومع ذلك كما ذكرت لكم من قبل فقد حضر رجال البحر جميعا . وكان رجال الأعمال في الميناء ممثلين تمثيلا كاملا . سواء كانوا يعرفون ذلك أولا يعرفونه . فقدكان الاهتمام الذي أغراهم بحضور المحاكمة اهتماما نفسانيا كتوقع الكشف عن قوة أو سلطة ، أو فظاعة المشاعر الانسانية . ومن الطبيعي أن شيئامن هذا لم يكن من الممكن الكشف عنه . وكان سؤال الرجل الوحيد الذي يستطيع ــ وكان مستعدا ــ لمواجهة التحقيق ــ نوعا من الدوران دون جدوى حول الحقيقة المعروفة . وكان توجيه الأسئلة حولها له من الفائدة ما للضرب بالمطرقة على صندوق مقفل من الحديد بقصد معرفة ما بداخله .

وعلى كل حال فان التحقيق الرسمى ما كان يمكن أن يكون شيئا آخر . فان هدفه الأساسى لم يكن الوصول الى «لماذا» العميقة لهذه المسألة ، ولكن الى «كيف» السطحية لها فقط . «ولقد كان فى وسع هذا الشاب أن يخبرهم . ومع أن هذا هو الشىء الوحيد الذى كان موضــــع اهتمام الحــاضرين فان الأسئلة التى كانت توجــه اليــه كانت بالضرورة تبعــده عن الحقيقة . انكم لا تستطيعون أن تتوقعوا من السلطة المختصة أن تتبين مافى نفس الانسان . أم هل كانت الكبد هى المختصة فى هذه الحالة ؟ (كلمة الكبد كناية عن الجبن) . فلقد كانت مهمتهم تنحصر فى النتائج ، وبصراحة فان قاضيا من قضــاة الشرطة العاديين واثنين من رجال البحر كخبراءلم تكن صلاحيتهم تتعدى هذا الحد . وأنا لا أريد أن أقول ان هؤلاء الرجال كانوا أغبياء . فلقد كان القاضى رجلا واسع الصدر جــدا .

وكان أحــد الخبراء رئيسا لمركب شراعية ، ذا لحية تميل الى الحمرة . وكان هو يميل الى التــــدين . وكان الآخر هــو « بريرلى » . ولابد أن بعضكم قد سمع عنه فقد كان قبطانا لتلك السفينة الفريدة فى شركة « البلولاين » ذلك هو الرجل بعينه . وكان يلوح عليه الملل الشــديد من ذلك الشرف الذى فرض عليه . ولم يكن قد ارتكب خطأ فى حياته ، ولا حدث له ــ بطريق الصدفة ــ حادث أو سوء حظ ، ولا قام فى طريق

رقيه المستمر عائق . كان يظهر عليه أنه من أولئك الرجال الذى لا يعرفون شيئا عن التردد . ويعرفون أقل من ذلك عن عدم الثقة بالنفس . وعند بلوغه الثانية والثلاثين كانت له احدى القيادات الممتازة فى تجارة الشرق . وزيادة على ذلك فلقد كان اعتزازه كبيرا بما وصل اليه . فلم يكن هنالك مايشبه ذلك فى الدنيا . وأظن أنكم لو سألتموه سؤالا صريحا لاعترف لكم أنه لم يكن فى الدنيا أيضا قائد آخر يشبهه . فلقد وقع الاختيار فى هذه الحالة على الرجل الذى يصلح . أما بقية الجنس الانسانى ، الذى لم يعقد لهم الأمر فى قيادة الباخرة «أوشا» المصنوعة من الصلب والتى تسير بسرعة ست عشرة عقدة ، فلقد كانوا من المساكين . ولقد انقذ حياة الكثيرين فى البحر . وأسرع لتخليص السفن فى الخطر . وقدم له المؤمنون كرونومترا ذهبيا . وقدمت له احدى الحكومات الأجنبية منظارا بحريا سجلت عليه الصيغة المناسبة للاهداء كتذكار لهذه الخدمات . وكان عنده حساسية حادة بمزاياه وبما نال عليها من جزاء . وكنت أشعر نحوه بشىء من الميل . وان كان بعض من كنت أعرفهم ، وكانوا ممن لا ينقصهم الشعور بصداقة الغير ولا التواضع ، كانوا لا يطيقون صحبته بأى ثمن . وكنت أعلم دون ذرة من الشك أنه كان يعتبر نفسه أفضل منى بما لا يقاس . والحق أنك حتى لو كنت ملكا

على الشرق والغرب فانك لن تستطيع التخلص من الشعور بالنقص فى حضرته . ولكننى رغم ذلك لم أستطع أن أوقظ فى نفسى شعورا بالغضب منه . فهو لم يكن يحتقرنى لشيء كنته أو لشيء كنت أستطيع عمله . ألا ترون ذلك ؟ اننى كنت كمية مهملة عنده لسبب واحد لأننى لم أكن رجل الدنيا المحظوظ . لم أكن مونتاجيو بريرلى العظيم الذى يقود الباخرة «أوشا» . لم أكن أملك الكرونومتر الذهبى ولا منظار البحر المطعم بالفضة شهودا على كفاءتى الممتازة وتفوقى فى مهنة الملاحة وعلوم البحار ولشجاعتى التى لا تقهر . ولأننى أخيرا لم أكن أملك تلك الحساسية المرهفة بمزاياى وبما حصلت عليه من تقدير الى جانب الحب والعبادة اللذين كان يختصنى بها كلب أسود من نوع «الرتريفر» كان أعجب وأقيم أفراد جنسه على الاطلاق . لأنه لم يحدث من قبل أن حظى رجل من هذا الطراز بكلب من هذا الطراز وعلى حب من هذا الطراز . وما من شك أنك تشعر بشيء من الضيق حين يلقى فى وجهك بكل ذلك . ولكنى حين فكرت أننى أتقاسم ذلك الحرمان القاتل من كل هذه المزايا مع ألف ومائتى مليون ممن يمتون الى البشرية بصلة ما ، فلقد رأيت أنه ليس من الصعب على أن تحمل نصيبى من تلك الشفقة التى تتسم بشيء من طيبة القلب المشوبة بالاحتقار لشيء غامض جذاب كنت أراه فى الرجل . اننى

لم أتعرف قط على سر هذه الجاذبية فيه . ولكنى كنت أحسده عليها فى بعض الأحيان . فسم الحياة لم يكن يستطيع أن يؤثر فى هذه النفسية الراضية أكثر مما يفعل مرور ابرة رفيعة على سطح صخرة ناعمة . وكان هذا يدعو للحسد . فلقد كان راضيا عن نفسه وهو يجلس على أحد جانبى القاضى المتواضع ذى الوجه الذابل كمن يواجهنى ويواجه الدنيا بسطح فى صلابة الجرانيت ... ومع ذلك فلقد انتحر بعد فترة قصيرة من هذه المحاكمة .

ولا عجب أن كانت محاكمة جيم قد بعثت فى نفسه الملل . فعندما كنت أفكر بشىء من الخوف فى جسامة الاحتقار الذى لابد أنه كان يكنه لهذا الفتى ، الذى كان يواجه المحاكمة . كان هو — فى أغلب الظن — يعقد محاكمة خاصة فى سكون ، للنظر فى قضيته هو ، ولا بد أن الحكم الذى أصدره على نفسه كان بالادانة التامة وأنه قد أخذ أدلة الاثبات معه حين قفز الى البحر . وان كنت أفهم شيئا عن طبيعة الرجال فلاشك أن المسألة كانت على غاية من الخطورة . أعنى احدى تلك التفاهات التى توقظ فى روءوسنا الأفكار ، وتبعث الحياة فى فكرة لا يستطيع معها الرجل الذى لم يعتد على مثل هذه الصحبة أن يستمر فى الحياة . واننى لفى مركز يسمح لى بالقول بأن الباعث على الانتحار لم يكن المال ولا الخمر ولا

المرأة . ولقد قفزالى البحر قبل أن يمر أســـبوع على انتهاء المحاكمة ، وقبل أن تنقضى ثلاثة أيام على مغادرته الميناء فى طريقه عبر البحار . كما لو كان قد رأى فى تلك النقطة المحددة أبواب العالم الآخر وقد انفتحت على مصراعيها لاستقباله .

ومع ذلك فانه لم يتخذ قراره فجأة . فلقد كان ضابطه الأول وهو رجل أشيب ، وبحار من الطراز الأول ، دمث الخلق مع الغرباء ، وان كان من أسوأ الضباط الأول سلوكا مع قبطانه .. كان ذلك الرجل يروى قصة الانتحار والدموع فى عينيـــه ، ويظهر أنه حين جاء الى السطح فى الصباح المبكر كان بريرلى يكتب فى غرفة القيـادة .. ولقد قال لى : « كانت الســاعة الرابعة صباحا الا عشر دقائق ولم تكن النوبة الوســطى قد انتهت بالطبع . وحين سمع صوتى وأنا أكلم الضابط الثانى على السطح . دعانى الى الدخول . وكنت كارها لاجابة هـــذه الدعوة . وهذا هو الصدق يا كبتن مارلو فاننى لم أكن أطيق كابتن بريرلى المسكين .. وأنا خجل الآن من الاقرار بذلك فنحن لا نستطيع أن نتعرف أبدا على طبيعة الرجال . ولا من أى معدن كان قوامهم ، وكان قد تخطى فى ترقيته رءوس الكثيرين من الرجال — غيرى . وكانت له عادة مثيرة ملعونة يجعلك تشعر بصغرك أمامه دون أن يفعل شيئا سوى الطريقة التى يقول لك بها « نهارك سعيد » . ولم أكن أتحدث اليه أبدا ياسيدى الا

فيما يتعلق بالعمل ، وكان ذلك يقتضينى كل ما استطيع بذله من مجهود كى أحفظ لسانى عن الخروج عن نطاق الأدب . (لقد كان يتملق نفسه بهذا القول . فلقد كنت أعجب كثيرا كيف كان بريرلى يستطيع احتمال سلوكه لأطول من نصف رحلة) . واستمر فى حديثه قائلا : « ان لى زوجة وأولادا . وقد قضيت فى خدمة الشركة عشر سنوات وأنا دائما أتوقع ترقيتى الى القيادة التالية الخالية . ما أحمقنى ! .. ثم يناديني بذلك الصوت المختال « تعالى هنا يا مستر جونز . تعالى هنا يامستر جونز » ودخلت . فقال : « اننا سنحدد الآن موقعها» وهو ينحنى على الخريطة ، والبرجل فى يديه . وكانت الأوامر تقتضى بأن الذى يجب عليه تحديد الموقع ضابط النوبة عند انتهاء نوبته . ولكنى لم أقل شيئا ووقفت أراقبه، وهو يحدد الموقع بصليب صغير ويثبت التاريخ والوقت . واننى أستطيع أن أتخيله الآن وهو يضع أرقامه الأنيقة ١٧ـ٨ـ٤ صباحا ، وكان تاريخ السنة يثبت فى أعلى الخريطة بالحبر الأحمر . ولم يكن من عادته أن يستعمل خرائطه التى تبين خط السير لأكثر من عام . اننى أحتفظ الآن بهذه الخريطة ..وحين انتهى من ذلك وقف ينظر الى العلامة التى رسمها وهو يبتسم لنفسه . ثم رفع رأسه الى ، وقال : «بقى لنا اثنان وثلاثون ميلا فى اتجاهها هذا . ثم سنكون قد تخطينا العقبات ويمكنك

حينئذ أن تغير فى اتجاهها عشرين درجة الى الجنوب » .

وكنا سنمر الى شمال «شاطىء هكتور» فى هذه الرحلة . وقلت له : « حسن يا سيـدى » . وأنا أتعجب من كل ذلك الاهتمام الذى لا لزوم له . حيث أنى كنت سأستدعيـه على كل حال قبل تغيير الاتجـاه . وفى هـذه اللحظة دق الجرس ثمانية دقات . وخرجنا الى السطح . وذكر الضابط الثانى قبل مغادرة السطح كالعادة «واحد وسبعين على كتلة الخشب» .

ونظر الكابتن بريرلى الى البوصلة ثم نظر حـوله ، وكانت الدنيا ظلاما ، ولكن لم تكن هنـاك سحب . وكنت تستطيع أن ترى النجوم جميعا كما لو كنت فى ليلة من ليالى الصقيع فى الشمال . وفجأة قال فى شبه تنهيـدة : « اننى ذاهب الى الخلف ، وسأضع الرقم على بيان السرعة بحيث يكون صفرا وعلى ذلك فلن يكون هناك أى مجال للخطأ . اثنان وثلاثون ميلا فى الاتجـاه وستصـبح آمنا . دعنا نر . ان التصحيح على أرقام بيان السرعة هو ستة فى المائة بالجمع . فلنقـل اذن . بعد ثلاثين ميـلا على بيـان السرعة .. يمكنك تغيير

---

* كتلة مسطحة مربوطة فى خيط طويل على بكرة يلقى بها وراء المركب ويعطى طول الخيط المسحـوب من البـكرة سرعة المركب والمسافة التى تقطعها .

اتجاهك عشرين درجة الى يمينك فى الحال . فلا داعى لضياع الوقت أليس كذلك ؟ » ولم أسمعه قبل هذه المرة يطيل الحديث الى هذا الحد ، ومن غير داع ، كما تصورت حينذاك . ولم أقل شيئا . وهبط هو الدرج وكلبه الذى لم يكن يفارقه قط ليلا أو نهارا وراءه . وسمعت صوت كعبيه على السطح الخلفى . تاب .. تاب . ثم توقف فجأة ووجه حديثه للكلب « ارجع يادوفر . ارجع يا ولدى الى سطح القيادة . هيا . هيا » . ثم سمعته ينادينى فى الظلام « مستر جونز ، احبس هذا الكلب فى غرفة الخرائط . أتسمح » .

« وكانت هذه هى المرة الأخيرة التى سمعته يتحدث فيها . وكانت هذه هى الكلمات الأخيرة التى ألقاها فى سمع آدمى حى ، يا كابتن مارلو » . وأخذ صوت الرجل العجوز يهتز حينما وصل الى هذه المرحلة من قصته وقال : « لقد خاف أن يقفز الكلب المسكين وراءه . ألا ترى ذلك ؟ » واستمر حديثه فى صوت مرتعش « نعم يا كابتن مارلو . لقد صحح عداد السرعة لى . وهل تصدق أنه وضع فيه نقطة من الزيت أيضا ؟ . فلقد وجدنا المزيتة حيث وضعها قريبا من العداد ... ثم أحضر الرجل المختص خرطومه ليغسل سطح السفينة الخلفى . ولم يلبث بعد ذلك الا قليلا حتى رمى بخرطومه الى الأرض وجرى مسرعا نحوى فى سطح القيادة ، وهو يقول : « أتسمح

يا سيدى بالهبوط معى الى سطح السفينة الخلفى ، فهناك شىء عجيب لا أحب أن ألمسه » وكان هذا الشىء هو ساعة الكرونومتر الذهبية للكابتن بريرلى وقد علقها بحرص على الحاجز الحديدى للسفينة من سلستها •

« وعندما رأيتها خطرت لى فكرة فى الحال ، وعرفت السبب يا سيدى ، وأحسست برجلى وهما لا تقويان على حملى وكأنما كنت قد رأيته وهو يقفز الى البحر وكنت أعرف المسافة بيننا وبينه الآن • وأشار العداد الى أن المسافة التى قطعناها منذ أن رأيته هى ثمانية عشر ميلا • وان هناك أربعة مسامير حديدية كبيرة قد فقدت من حول الشراع الكبير، ولقد وضع هذه المسامير فى جيبه كما أظن لتساعده على الهبوط تحت الماء • ولكن — بحق السماء — ماذا يمكن أن تفعل هذه المسامير الأربعة لرجل قوى ككابتن بريرلى • ولكن ربما كانت ثقته بنفسه قد تزعزعت قليلا فى آخر الأمر • وعلى كل حال فان هذه هى علامة الضعف الوحيدة التى ظهرت عليه طول حياته ، على ما أظن • ولكنى مستعد للشهادة له أنه منذ اللحظة التى لمس فيها الماء لم يحاول العوم ولو بضرب الماء بيديه ضربة واحدة ، وهى نفس الارادة التى كانت ستجعله يعوم دون توقف أربعا وعشرين ساعة متواصلة انتظارا لفرصة ضئيلة فى النجاة ان كان قد سقط فى الماء

صدفة . نعم ياسيدى ، ان رجلا يفوقه لم يخلق بعـــد . وان كنت قد سمعت هذه الكلمات نفسها منــه مرة من المرات . وكان قد كتب خطابين أثناء النوبة الوسطى : احدهما للشركـــة والآخر لى . ولقد ترك لى تعليمات كثيرة بخصوص الرحلة ــ

والآخر لى . ولقد ترك لى تعليمات كثيرة بخصوص الرحلة ــ

أيضا اشارات لا حصر لهـــا عن سلوكى مع رجال الشركة فى شنجهاى حتى أستطيع أن أحتفظ بقيادتى للباخرة « أوشا » . ولقد كتب الى كما يكتب أب لولده المفضـــل يا كابتن مارلو مع أنى كنت اكبره بخمسة وعشرين عاما وذقت المـــاء الملح قبل أن يضعوه فى سرواله الأول : وفى خطابه الى أصحاب السفينة ، وكان قد تركه مفتوحا لأراه ، قال انه قـــد أدى واجبه نحوهم دائما على الوجه الأكمـــل حتى هذه للحظة . وحتى الآن ، فانه لم يكن يخون ثقتهم التى وضعوها فيه حيث انه سيترك السفينة فى يد بحار لا تقل كفاءته عن كفاءة خير بحار يمكن العثور عليه . وكان يعنينى أنا ياسيدى . نعم كان يعنينى أنا . وقال لهم انه ان كان آخر عمل له فى هذه الحياة لم يمح كل ما له من رصيد لديهم - فانه ينصحهم بتقدير خدماتى واخلاصى فى العمل لهم ، وتوصيته الحـــارة على حـــين يفكرون فى ملء القيادة التى خلت بمــــوته . وأشياء كثيرة ، من هـــذا النوع يا ســـيدى . حتى أننى لم

أستطع تصديق عينى . وابتدأت أشعر بشعور غريب يسرى فى كل كيانى » واستمر الرجل فى حديثه وهو فى حالة سيئة من الاضطراب ثم مسح طرف عينيه بابهام عريض كالملوق قائلا : « انه جعلنى أفكر — يا سيدى — انه قفز الى الماء ليعطى رجلا عجوزا سيىء الحظ آخر فرصة له للترقية . ولقد كدت أجن يا سيدى لمدة أسبوع ، وأنا اتمزق من الصدمة التى انتابتنى ، من اختفائه المفاجىء بهذه الطريقة المذهلة ، ومن شعورى بأننى قد نلت ما أتمنى بهذه الفرصة — ولكن لم يكن هناك داع لذلك ، فلقد نقل قبطان الباخرة « بليون » الى « أوشا » . وصعد الى السفينة فى شنجهاى . وكان رجلا ضئيلا مغرورا ، كالببغاء يا سيدى . يرتدى بدلة رمادية بها مربعات كالشطرنج ، وشعره مفروق فى الوسط . وقال : « أو .. أنا .. أو .. قبطانكم الجديد . مستر . أو مستر أو .. جونز » وكان مغرقا فى العطور بحيث كانت رائحته تزكم الأنوف ، ولربما كانت النظرة التى حدجته بها هى التى جعلته يتأنى . ثم أخذ يدمدم بشىء عن خيبة املى الطبيعية . وقال انه يحسن به أن يخبرنى فورا بأن ضابطه الأول قد رقى الى قيادة باخرته القديمة « بليون » ، وأنه لم يكن له يد فى ذلك طبعا . وانه يظن أن ادارة الشركة تعرف ما هو صالحها خيرا منا . وأنه آسف ... » وقلت

أنا « لا تشغل بالك بجونز العجوز ياسيدى . ولتنزل اللعنة على روحه . فلقد اعتاد على مثل هذه المعاملة » . ولاحظت في الحال انني قد صدمت أذنه الرقيقة بكلماتي . وحين جلسنا الى الطعام لأول مرة معا بدأ ينتقد بطريقة جارحة كل شيء في السفينة . ولم أكن سمعت صوتا مثل صوته حتى ولا في عرض للارجوز . فضغطت على اسناني ، وسمرت عيني في طبقي ، وامتنعت عن الكلام لأطول مدة استطعتها . ولكنى وجدت نفسي ملزما في آخر الأمر بأن أقول شيئا . واذا به يقفز عاليا على مشط قدميه نابشا ريشه الجميل كأنه ديك صغير من الديوك المقاتلة « ستجد انك ستتعامل مع شخص آخر يختلف عن المرحوم كابتن بريرلى » فقلت وأنا أشعر بحزن عميق ، ولكنى أتصنع أننى مشغول جدا بقطعة اللحم التى أمامى : « اننى قد وجدت ذلك فعلا » . واذا به يسرسع بصوته العجيب : « انك رجل فظ يا مستر ..أوه.. .. جونز .. وزيادة على ذلك فأنت معروف بفظاظتك عند الرؤساء . » وكان الرجال المكلفون بغسل الزجاجات واقفين يصغون الى الحديث ، وقد انفرجت أفواههم حتى لمست منهم الأذنين . فأجبته قائلا : « ربما كنت فى حالة صعبة . ولكنى لم أصل بعد الى الدرجة التى تجعلنى أرضى بالنظر اليك وأنت تجلس فى كرسى الكابتن بريرلى » . وبهذا وضعت

الشوكة والسكين على المائدة ، وقال بتهكم : « كنت تريد أن تجلس فيه انت ، وهذا هو ما يحز فى قلبى » . وتركت قاعة الطعام وذهبت الى غرفتى ، وجمعت كل خرقى القديمة ونزلت بها الى الرصيف قبل أن يرجع الحمالون الى السفينة لاستئناف عملهم . نعم ، كنت على الشاطىء كسفينة طافية على سطح الماء بلا هدف . وذلك بعد أن أتممت خدمة عشر سنوات مع هذه الشركة ، وبزوجة مسكينة وأربعة أطفال على بعد ستة آلاف ميل منى يعتمدون على مرتبى فى كل لقمة تدخل أفواههم . نعم يا سيدى . لقد تخليت عن عملى لأنى لم أستطع أن أصغى الى القذف فى كابتن بريرلى . ولقد ترك لى منظاره الليلى . وها هو هنا . وأعرب عن رغبته فى أن أعتنى بالكلب من بعده — وها هو : « هالو روفر أيها الولد المسكين . أين الكابتن ياروفر ؟ » فنظر الكلب الينا نظرة حزينة بعينيه الصفراوين . ونبح بصوت حزين وزحف تحت المائدة .

وكان ذلك اللقاء . بعد حوالى عامين . على ظهر ذلك الحطام البحرى المسمى «فيركوين» التى تولى قيادتها جونز بمحض الصدفة أيضا من ماذرسون المشهور «بماذرسون المجنون» . وهو الرجل الذى كان يتسكع فى «هاى-فونج» قبل الاحتلال . واستمر الرجل فى قصته بصوته المختنق .. «نعم ياسيدى . أن ذكرى كابتن بريرلى ، ستبقى حية هنا . ان لم يكن هناك مكان

آخر لها على ظهر الأرض . ولقد كتبت الى أبيه عن كل شيء .
ولم أتسلم ردا حتى ولو من كلمة واحدة . مثل أشكرك أو
اذهب الى الشيطان . كلا لا شيء ، ربما لم يريدوا أنه
يعرفوا . »

« وكان منظر جونز العجوز بعينيه الدامعتين وهو يمسح
عروق رأسه الصلعاء بمنديل أحمر من القطن ، وذلك النباح
المقتضب الاسيف من الكلب ، وتلك القذارة فى ذلك القارب
الحقير الذى كان مباءة لتفريخ لذباب ، وكان مع ذلك هو
النصب الوحيد لذكراه — كان ذلك مجتمعا ، يضفى على ذكرى
بريرلى جوا مقبضا من الحقارة يتسم بالرثاء والأسف والشفقة،
ولعل ذلك كان انتقام القدر منه بعد موته جزاء له على فرط
غروره واحساسه بالعظمة . ذلك الاحساس الذى كاد أن يحرمه
بخداعه من نصيبه الشرعى بما فى الحياة من فزع وخوف
وأقول « كاد » ولكنه ربما كان قد حرمه منه تماما .
فمن يدرى ، لعله كان ينظر الى انتحاره كعمل عظيم يستحق
التهنئة عليه . » وقال جونز وهو يضرب بكفه على جبهته الضيقة
المجعدة . «ولكن لماذا أقدم على هذه الحماقة . ياكبتن مارلو .
هل فكرت فى هذا ؟ اننى عاجز عن ايجاد الدافع وراء هذا
العمل . لماذا ؟ انه ان كان فقيرا أو عجوزا ، أو مغرقا فى
الدين ، أو عاطلا عن العمل او حتى مجنونا ، لكان التفسير
سهلا ولكنه لم يكن من ذلك الطراز الذى يمكن أن يجن .

لاليس هو . وثق بكلمتى هذه . فان مالا يعرفه الضابط عن رئيسه قبطان السفينة لا يستحق المعرفة .. لقد كان شابا ، متمتعا بالصحة ، غنيا ، بلا هموم ولا مسئولية .. اننى أجلس هنا فى بعض الأحيان أفكر ثم افكر ، حتى لأحس برأسى تكاد تنفجر . ومع ذلك فلابد من سبب» فقلت له : « تأكد ياكبتن جونز انه سبب لم يكن لينغص حياتى أو حياتك ان تصادف عبوره فى طريقنا . » وكأنما كانت هذه الكلمات ضوءا أومض وسط ظلام عقله وفوضاه . فجعلت جونز المسكين يتفوه بكلمة أخيرة تتسم بعمق عجيب . فنفخ أنفه وأحنى رأسه الى ، وقال بحزن : « نعم . نعم . ياسيدى . فلا أنت ولا أنا كان من الممكن لنا أن نقدر أنفسنا كل ذلك التقدير . »

« ومن الطبيعى . أن تتأثر ذكرى اجتماعى الأخير مع بريرلى بمعرفتى لنهايته التى كانت بعد ذلك اللقاء بوقت قصير . فلقد تحدثت اليه للمرة الأخيرة أثناء انعقاد المحاكمة وكان ذلك بعد انقضاء اليوم الأول منها حين خرجنا معا الى الشارع . وقد لاحظت حينذاك بشىء من الدهشة أنه فى حالة ظاهرة من الضيق . الأمر الذى كان يخالف سلوكه فى المرات القليلة التى كان يتفضل فيها بالحديث مع أحد . اذ كان سلوكه حينذاك يتسم دائما بالهدوء التام مصحوبا بشىء من التسامح المرح كما لو كان يعتبر مجرد وجود الرجل الذى يحدثه فى هذا العالم

نكتة لا بأس بها ... ثم ابتدأ بقوله : «لقد أقحمونى اقحاماً فى هذه المحاكمة كماتعلم» ثم استمر يشكو فى اطالة ، مايسببه له حضوره اليومى الى المحكمة من متاعب : « والسماء وحدها هى التى تعلم متى تنتهى . بعد ثلاثة أيام على ماأظن» .
وظللت أستمع اليه فى صمت عميق . وكان ذلك فى رأيى طريقة ذى السلوك لا تقل تأثيرا عن غيرها لعدم تشجيعه فى الاستمرار، ولكنه استمر فى حرارة قائلا : «ومافائدة كل هذا؟ انها أغبى أداة يمكن أن اتخيلها» فأجبته بأنه ليس هناك اختيار. واذا به يقاطعنى بنوع من العنف المكبوت « اننى أشعر وكأننى رجل أبله طول الوقت.» فرفعت رأسى اليه ولم أكن أتوقع هذه الكلمات مطلقا حين يتحدث بريرلى عن بريرلى . ثم اذا به يتوقف عن المشى ، ويشدنى من ثنية الصدر فى سترتى ويسألنى: «لماذا نعذب هذا الشاب ؟» ورأيت فى هذا السؤال انسجاما مع فكرة كانت قد عنت لى . فأجبته على الفور ، وأنا أتخيل أمامى صورة ذلك القبطان المرتد الذى هرب .. «فلتنزل على لعنة السماء ان كنت أعلم . اللهم الا اذا كان السبب أنه هو الذى يدعكم تفعلون ذلك به .» ودهشت حين رأيته يتفق معى ان صح هذا التعبير . وخاصة انى كنت أظن أن فى كلامى شيئا من الغموض . فلقد قال فى غضب : « هذا صحيح . ألم ير كيف هرب قبطانه اللعين ؟ فماذا ينتظر اذن ؟ انك تعلم ألا

شيء يمكن أن ينقذه . لقد انتهى .» ثم خطونا بضع خطوات في سكون قطعه بقوله: «لماذا يأكل كل هذا الوحل؟» ولقد وضع في هذه الكلمات كل ما في الشرق من قوة التعبير وهي النوع الوحيد من القوة أو النشاط الذي يمكن أن يصادفك شرق الخط الطولي الخمسين . ودهشت جدا من اتجاه أفكاره حينئذ . ولكني أعتقد الآن أن هذا الاتجاه كان منسجما مع صفاته تماما فبريرلي المسكين لم يكن يفكر الا في نفسه حينذاك . فبينت له أن قبطان «بتنا» كان معروفا عنه أنه قد ملأ عشه بالريش . وكان يستطيع في أي مكان تقريبا أن يحصل على الوسيلة التي يهرب بها ، وأن الأمر كان على خلاف ذلك بالنسبة لجيم ، فقد كانت الحكومة تأويه الآن في بيت البحارة . وأغلب الظن أنه لا يحتكم على بنس واحد في جيبه . انه لابد من بعض المال للهرب . فقال وهو يضحك ضحكة مرة : «اني أشك في ذلك . ليس دائما على كل حال » . ثم أجاب على ملاحظة أخرى لي قائلا : «اذن دعه يزحف الى عمق عشرين قدما تحت الارض ، ويمكث هناك وبحق السماء هذا ما كنت أفعله في مكانه» . ولا أعلم لماذا أثارتني هذه النغمة في كلامه . فقلت له ... « ان هناك نوعا من الشجاعة في مواجهته لكل هذا ، كما يفعل . وهو يعلم تماما أنه ان غادر المكان فلن يجري أحد وراءه » ولكن بريرلي صاح بشيء من الخشونة .. « الى الشيطان بهذه الشجاعة ، فهذا النوع من الشجاعة لا يستطيع أن يحفظ الرجل من الانحراف . وهو لا يساوي عندي

شيئا ، ولربما كان من الأصوب أن تقول انه نوع من الجبن، نوع من الطراوة . ولكن دعنى أقل لك انى مستعد لدفع مائتى روبيه على شرط أن تضيف اليها مائة من عندك وتتعهد بأن تجعل ذلك الشحاذ يغادر المكان فى بكور الغد . فالرجل جنتلمان حتى وان كان غير أهل للمس . ولكنه سيفهم . انه يجب أن يفهم . فهذه العلنية الجهنمية صدمة لاتحتمل . فهو يجلس هناك بينما يدلى هؤلاء الناس من وطنيين وهنود وأمناء مخازن ، بشهاداتهم ويقدمون من الأدلة مايكفى لتحويل الانسان الى رماد بشعور العار . ان هذه لعنة خالصة . ألا تشعر يامارلو بأنها كذلك ؟ ألا تشعر بذلك كرجل من رجال البحر ؟ فاذا ما غادر المكان فان كل ذلك سيتوقف فى الحال . ولقد قال بريرلى ذلك بحيوية زائدة عن الحد ، وحرك ذراعه كما لو كان يريد انيصل الى حافظة نقوده .فطلبت منه ألايفعل ذلك ، وأخبرته فى برود بأن جبن هؤلاء الرجال الأربعة لايستحق كل هذا الاهتمام فى نظرى . فقال فى غضب «وأنت تسمى نفسك رجلا من رجال البحر على ما أظن ؟ ». فقلت اننى أسمى نفسى ذلك ، وآمل أن أكونه ايضا ،فاستمع الى حتى أتممت كلامى . ثم أتى بحركة من ذراعه الكبيرة لاشك أنه كان يهدف بها الى حرمانى من شخصيتى ، وأن يطوح بى الى زحمة الجماعة وقال : « ان اسوأ ما

فى الأمـــر انكم لاتشعرون جميعكم باحســـاس الوقار ، ولاتفكرون التفكير الكافى فيما هو مفروض آن تكونوا عليه». التفكير الكافى فيما هو مفروض أن تكونوا عليه » .

وكنا نمشى الهوينا فى هذه الأثناء ، واذا بنا نجد أنفسنا أمام مكتب الميناء فى مواجهة نفس المكان الذى اختفى منـــه قبطان «بتنا» الضخم وكأنه ريشة صغيرة حملتها معهـــا ريح عاتية . فتبسمت واستمر بريرلى قائلا : «ان هذا عار . ان بيننـــا كل أنواع الرجال ، ومنهم بعض الاوغاد المقدسين . ياللعنة . ان من الواجب علينا ان نحتفظ للمهنة بمستواها الرفيع من الخلق الطيب والا أصبحنا لا نفضل جماعة من تجار الصفيح ، ترك لهم العنان . ان الناس يثقون فينا ، ولهم أمانة فى أعناقنا . ألا تفهم ؟ يثقون بنا . اننى بصراحة لايهمنى ـــ مثقال حبة مـــن الخردل ـــ مايصيب جميع الحجاج الذين جاءوا من آسيا منذ فجر التاريخ . ولكنه لم يكن من الممكن لرجل يحترم نفســه أن يسلك هذا السلوك حتى لو كانت حمولته من البال المملوء بالخرق القديمة . اننا رجال لايجمعنا تنظيم خاص ، وكل مايربط أحدنا الى الآخر هو ذلك النوع من الخلق السوى والاحساس بالواجب . ومن المؤكد أن مثل هذا الحادث يهدم ثقة الانسان. ان الرجل قد يقضى حياته بأكملها فى البحر دون أن يصـــادفه

مما يستدعى الصمود للأخطار •• ولكن اذا دعانا الداعى ••• آها •• لو كنت •• »

«وهنا قطع حديثه السابق ، وقال بلهجة مغايرة •• «ساعطيك المائتى روبيه الآن يامارلو ، ولتتحدث الى ذلك الشاب عليه اللعنة • ياليته ما حضر أبدا الى هذه النواحى • فالحقيقة اننى أميل الى الاعتقاد أن بعض أقاربى يعرفون أهله • فالرجل العجوز قسيس وأنا أتذكر الآن • أننى رأيته فى السنة الماضية عند ابن عم لى فى اسكس • وان لم تخنى الذاكرة فان الرجل العجوز كان فخورا بعض الشىء بابنه البحار • انه لشىء فظيع وأنا لا أستطيع أن أفعل شيئا ، ولكن أنت •• »

«وهكذا قبل أن أعرف جيم ،كان قدأتيح لى أن القى نظرة على بريرلى الأصيل قبل ان يودع حقيقته وتصنعه كليهما جوف البحر • وبالطبع رفضت هذه الوساطة ، فالطريقة التى قال بها «لكن أنت» كانت تبدو وكأنها تفترض (بريرلى المسكين لم يكن يستطيع التخلص من هذا التعالى) أننى لن ألفت نظر الناس الى أكثر مما تفعل الحشرة • ولقد جعلنى ذلك أنظر الى هذا الاقتراح نظرة الغضب •ولقد جعلتنى هذهالاثارة أو ربما كان ذلك لسبب آخر متثبتا من اعتقادي بأن هذه المحاكمة كانت عقابا صارما لجيم — وأن فى مواجهته لها بدافع من ارادته الحرة ، تقريبا ، عنصرا من عناصر الأمل • فى حالته التى

لاتبعث على الرجاء ، ولم أكن متأكدا من ذلك من قبل ••• ثم غادرنى بريرلى وهو غاضب وكانت حالته العقلية والنفسية حينذاك أكثر غموضا على ، مما هى الآن •

وفى اليوم التالى جئت متأخرا الى المحكمة وجلست وحدى بعيدا عن الآخرين • وبالطبع لم أنس الحديث الذى جرى بينى وبين بريرلى بالأمس • والآن كان كلاهما أمام عينى ، وكان سلوك أحدهما يوحى بوقاحة حزينة وسلوك الآخر يوحى بملل مشوب بالاحتقار • ومع ذلك فلم أكن متأكدا أن أحد السلوكين كان أكثر صدقا من الآخر — وكنت متأكدا أن أحد السلوكين لم يكن صادقا • فلم يكن بريرلى يشعر بالملل ولكنه كان يشعر بالضيق والغضب • وعلى هذا فلربما لم يكن جيم على ما كان يظهره من الوقاحة ، وطبقا لنظريتى ، وقحا كما يظهر • بل لعله كان يائسا • وبعد ذلك تلاقت نظراتنا • وكانت النظرة التى حدجنى بها لاتبعث على التشجيع فى الحديث اليه ان كانت هذه النية لاتزال لدى •• وفى كلتا الفرصتين — الوقاحة أو اليأس — شعرت بأننى لن أستطيع مد يد المعونة اليه، وكان هذا هو اليوم الثانى للمحاكمة • وبعد أن تبادلنا النظرات بلحظة قصيرة ، رفعت الجلسة حتى اليوم التالى • وبدأ الرجال البيض يغادرون القاعة فى الحال ، وكان قد سمح لجيم بالانصراف قبل ذلك وعلى هذا كان من أول من غادروا القاعة • ورأيت رأسه

وكتفيه العريضتين محددة بخطوط واضحة فى ضوء الباب . وكنت أراه ، وأنا أخطو ببطء فى داخل القاعة فى طريقى الى الخروج أتحدث مع رجل لا أعرفه . كان قد وجه الى الحديث صدفة ، وقد وضع مرفقيه على حاجز الشرفة وأدار ظهره للخارجين وهم يهبطون الدرجات القليلة وكان هناك دمدمة الأصوات الآدمية وضوضاء من وقع أقدام الخارجين .

وكانت القضية التالية قضية تعد بالضرب والاهانةعلىأحد المرابين كما أعتقد . وكان المتهم وهو قروى عجوزذو لحية بيضاء مستقيمة يجلس على حصيرة ملاصقة للباب من الخارج مع ابنائهوبناته، وأصهاره، وزوجاتهم .ثممع نصفسكان قريته أيضا على ما أظن ، قياما وقعودا القرفصاءحولهفى كل مكان . وكانتهناك امرأة نحيلة سمراء — تعرى جزء من ظهرها وذرع سوداء من ذراعيها ، وفى أنفها حلقة ذهبية — بدأت تتحدث فجأة بصوت عال رفيع ونغمة فيها نشاز ، فرفع الرجل الذىكان معى نظرة اليهابحكم الغريزة .وكنا الآن قد خرجنا لتونا من الباب مارين وراء ظهر جيم العريض ، ولست أدرى أكانهؤلاء القرويون همالذين أحضروا الكلب الأصفر معهم ، أملا.فعلى أية حال كان كلب هناك يمرق دخولا وخروجا من الباب بين أرجل الناس بتلك الطريقة الصامتة المتسحبة التى هى عادة كلاب تلك الأنحاء . ولقد حدث أن تعثر صاحبى فوقه فقفز الكلب

بعيدا عنه دون صوت ، فرفع صاحبى صوته قليلا وهو يضحك ضحكة بطيئة وقال : «انظر الى هذا الكلب التعس» • وتفرقنا فى الحال أمام ضغط عدد كبير من الناس • فتأخرت قليـــلا ووقفت الى جانب الحائط لحظة كانت كافية لأن يهبط الرجـل الغريب الذى كان معى الدرج ويختفى • وفجأة رأيت جيم يدور بسرعة حول نفسه ويخطو خطوة الى الأمام ويقطع على الطريق، وكنا وحيدين ، وحدجنى بنظرة غاضبة قرأت فيها أنه قـد اتخذ قرارا عنيدا •وأحسست حينئذ بأننى قد قطع على الطريق كمـا لو كنت فى غابة • وكانت الشرفة خالية الآن ، وقد انقطـــع الصوت وتوقفت الحركة فى المحكمة، وسقط على المبنى سكون عميق كان يقطعه فى مكان ما بعيدا فى داخلهـا صوت شرقى يولول فى فزع يدعو الى التقزز • وكان الكلب فى وســـط محاولة له للتسرب الى داخـل الباب ، قد جلس فجـــأة على الأرض يصيد البراغيث •

وسألنى جيم بصوت خافت جدا،وهو ينحنى الى الأمام— لا فى اتجـاهى ولكن الى مبـاشرة ــ ان كنتم تدركون ما أعنى ــ فقال : «هل كنت تتحدث الى ؟» فقلت «لا» على الفور • وقد أحسست بشىء فى نغمة صوته الهادئة ينذرنى بأن أكون على حذر وأخذت أراقبه •وكأنما كان لقاؤنا فى غابة موحشة ،الا أن الهدف هنا كان أقل وضوحا • حيث كان من المحـال أنه يريد

اغتصاب نقودى أو حياتى ، أو أى شىء آخر كنت أستطيع أن أسلمه اليه أو أقاتل دونه بضمير مستريح . وقال بحزن : «تقول انك لم تتحدث الى ؟ ولكنى سمعت ...» فقلت : «مجرد خطأ» وأنا فى حيرة شديدة من أمرى ، ولا أجعل عينى تكف لحظة عن النظر اليه . وكانت مراقبتى لوجهه كمن يرقب السماء قبل صوت الرعد وهى تظلم : ظل يزحف دون أن تحسه على ظل ، وهكذا تتركز الظلمات بعضها فوق بعض بطريقة غامضة فى السكون الذى يسبق نضج العاصفة .

« وقلت له وأنا صادق ، اننى على قدر ما أعلم لم أفتح فمى على مسمع منك ، وكنت قد بدأت أشعر بالغضب أيضا من هذه المجابهة التى لامعنى لها ، واننى لأعرف الآن اننى لم أكن فى حياتى أقرب الى التعرض للأذى منى حينذاك ، وأنى لأعنى بالأذى هنا الضرب الموجع بقبضة اليد . وأظن اننى كنت أحس احساسا غامضا حينذاك باحتمال حدوث شىء مثل هذا . ولم يكن ذلك لأنه كان فعلا يهددنى بذلك . كلا . فلقد كان بعكس ذلك فى غاية السلبية ، ولكنه كان ينحنى على . وبرغم أنه لم يكن من ذوى الطول غير العادى فقد كان يظهر عليه أنه من القوة بحيث يستطيع أن يهدم حائطا ، وكانت العلامة التى تبعث على الاطمئنان فى الموقف هى أنى لاحظت عليه بعض التردد والتفكير البطىء ولقد رددت ذلك الى الصدق الواضح فى سلوكى ونبراتى وواجه

أحدنا الآخر ، وكانت قضية التعدى بالضرب لاتزال تنظر أمام المحكمة . واستطعت أن أميز بضع كلمات منها كانت تصل متقطعة الى سمعى مثل ... «حسن» جاموسة ، عصا ، فى شدة خوفى من ..»

«وقال جيم أخيرا .. «ماذا كنت تعنى بتحديقك فى وجهى طيلة هذا الصباح ؟ ورفع نظره ثم خفضه ثانية . وأجبته فى حدة : «هل كنت تتوقع أن نجلس جميعا وقد خفضنا من أبصارنا خوفا من جرح شعورك الرقيق ؟» فلم يكن لدى استعداد للخضوع دون مقاومة لسخافاته هذه فرفع عينيه ثانية واستمر فى هذه المرة فى النظر مباشرة الى وجهى . وقال وكأنه يتداول مع نفسه فى مدى الصدق فيما سيقول : «كلا ، فانى لا أطلب ذلك . انى لا أطاب ذلك لأنى قد قررت أن أحتمل كل هذا ولكن .. » وهنا تكلم بسرعة أكثر من التى يتكلم بها : «ولكنى لن أسمح لأحد بشتمى خارج المحكمة . لقد كان هناك شخص آخر معك ، وكنت تتحدث معه . نعم هذا جميل انك كنت تتحدث معه ولكنك كنت تريدنى أن أسمع ..»

«فأكدت له أنه واقع تحت تأثير وهم كبير ، واننى لا أعلم كيف نشأ عنده هذا الوهم . فقال بلهجة مشوبة بقليل من المرارة . «انك ظننت اننى سأخاف من اظهار سخطى على ماتقول» وكنت مهتما بأن أبحث كل ظل من التعبير فى كلامه ، ولكننى

لم أستطع الوصول الى مايقصد مطلقا • ومع ذلك فان شيئافى هذه الكلمات ، أو لعلها نغمة الالقاء فقط أقنعتنى بالتسامح الى كل مايمكن من حدود • وأنهى ماكنت أشعر به من ضيق انتظارا للأذى الذى كنت أتوقعه على يديه •• لقد كان هناك خطأ من جانبه ، وكان لدى احساس بأن خطأه هذا كان من نوع شنيع منفر ، وموجب للأسف الشديد • وكنت متحرقا لأنهى هذا المنظر بدافع من حسن الخلق لأسباب يمليها حسن الذوق ومراعاة شعور الآخرين ، كما يريد الانسان أن ينهى حديثا لم يسع اليه، يتعلق بأسرار الآخرين • وكان مايوجب الضحك فى كل هذا اننى بين هذه الاعتبارات التى تنتمى الى المستويات العليا من الخلق أحس بشىء من القلق والخوف بأن من الجائز، بل من المرجح أن ينقلب هذا اللقاء الى مشاجرة من النوع الرخيص يستعصى على تفسير أسبابها ، وتجعلنى أضحوكة بين الناس • فلم أكن أتلهف شوقا الى ثلاثة أيام من الشهرة بسبب كونى الرجل الذى سود له ضابط «بتنا» الأول احدى عينيه أو أى جزء آخر من جسمه • أما هو فعلى الأرجح أنه لم يكن ليهتم بما فعل • ومهما يكن من أمر فسيجد نفسه محقا فى عينى نفسه • ولم تكن المسألة تحتاج الى ساحر لكى يعلم أنه فى شدة الغضب لسبب ما رغما عن سلوكه الهادىء الذى كان يصل أحيانا الى درجة الركود • ولست أنكر أننى كنت أريد

أن أهدىء غضبه بأى ثمن ، ولكننى لم أكن أعلم كيف • فلقد كان ظلام لبس فيه شعاع واحد من نور • وكنا نواجه أحدنا الآخر فى هدوء ، واذا به يتردد لمدى خمس عشرة ثانية يخطو بعدها نحوى خطوة واحدة ، واستعددت أنا لأمنع ضربته من الوصول الى ، وان كنت لا أظن أننى حركت عضلة واحدة فى جسمى • ثم قال لى بصوت فى غاية الليونة : «ان كنت فى طول رجلين وفى قوة ستة رجال ••» ثم فى سرعة زائدة : «لما منعنى ذلك من اخبارك برأيى فيك •• أنت •• » فصرخت فيه : «قف» • وقد أوقفته هذه الكلمة ثانية واحدة عن الكلام • واستمررت أنا بسرعة قائلا : « قبل أن تخبرنى برأيك فى هل تتكرم باخبارى ماذا قلت أو فعلت ؟ » وفى فترة السكون التى تلت ذلك أخذ يحدجنى بنظرة فاحصة ملؤها الغضب بينما كنت أبذل مجهود الجبابرة بحثا فى ذاكرتى ولكن كان يفسد على هذا المجهود ذلك الصوت الشرقى فى داخل المحكمة الذى كان يدفع عن نفسه التهمة الباطلة بلسان زلق ، ومشاعر ثائرة • ثم تكلمنا كلانا فى وقت واحد تقريبا فقال هو فى نغمة تنبىء بحدوث أزمة : «انى سأريك حالا أننى لست كما تقول» • وقلت أنا محتجا فى نفس الوقت : «اننى أعلن اليك أننى لا أعلم» • ثم أراد أن يسحقنى بما كان يملأ نظرته من الاحتقار • وقال : «انك الآن وقد رأيت أننى لست

خائفا تريد أن تزحف بعيدا عن التهمة . فمن هو الكلب الجبان الآن ؟ هه ؟» .. وأخيرا فهمت كل شيء .

«وكان يفحص الآن قسمات وجهى كمن يريد أن يختار مكانا يسدد اليه ضربة من قبضته . ثم همهم مهددا : «انى لن أسمح لانسان — ..» والحق أنه كان خطأ شنيعا . فلقد كشف عن نفسه وأظهرها وهى عارية تماما . وانى لأجد نفسى عاجزا عن التعبير عن مدى الصدمة التى أصابتنى حينئذ. وأظن أنه رأى صورة مشاعرى فى عينى . لأن تعبير وجهه تغير قليلا. وتأتأت قائلا : «يا للسماء ! انك لا تظن أننى .. » ولكنه قاطعنى فى اصرار رافعا صوته للمرة الأولى ، من بداية هذا اللقاء المؤسف وقال : «ولكننى متأكد أننى قد سمعت» ثم أضاف بصوت لم يخل من رنة احتقار : «انه لم يكن أنت اذن حسن جدا . سأجد الرجل الآخر» . فصرخت فيه وقد عيل صبرى : «لاتكن أحمق . فليست المسألة كما تفهمها اطلاقا» . ولكنه قال ثانية بمثابرة عنيدة مهددة : «لقد سمعت بنفسى» . وقد لاتخلو الدنيا من أولئك الذين كانوا يستطيعون أن يضحكوا من هذا العناد ، ولكنى لم أفعل . نعم لم أفعل فلم يحدث أن كشف رجل عن خبايا نفسه بلا رحمة على هذه الصورة مسوقا الى ذلك بدفعة حمقاء فى طبيعته هو بذاته. كلمة واحدة فقط جردته من تلك القدرة على الاحتفاظ بالأسرار التى

لا يجب أن نبوح بها للغير ، تلك القدرة التى هى ألزم لمقومات كياننا العميق من الملابس التى تستـــتر العورات لأجسادنا . وكررت قولى له : «لاتكن أحمق» ولكنه أجاب بوضوح وهو ينظر الى عينى دون أن تطرف عيناه : «ولكن الرجل الآخـــر قالها . انك لاتنكر ذلك ؟» فقلت له وأنا أرد له نظرته : «كلا، انى لاأنكر ذلك . » وأخيرا تابعت عيناه أصبعى ، الذى أشير به الى أسفل . فظهر عليه أولا عدم الفهم ، ثم الحـيرة ، ثم الخوف ثم ، الذهول كأنما الكلب الذى رآه كان غولا ، وكأنما لم يركلبا من قبل . وقلت له : «لم يحلم أحدباهاتنك» . وأخذ يتأمل الحيوان التعس الذى كان يتحرك كالدمية . وكان الكلب يجلس وقد انتصبت أذناه . واتجه الجزء الأمامى من رأسه الى فتحة الباب ، ثم أطبق فكيه بسرعة خاطفة على ذبابة كأنه آلـــة ميكانيكية . وكنت أراقبه فاذا بحمرة بشرته البيضـــاء التى لوحتها الشمس تزداد عند ذقنه ثم تغزو جبهته وتنتشر الى جذور شعره المتموج . واكتست أذناه بلون قرمزى عميـــق ، وحتى زرقة عينيه الصافية أظلمت قليلا ، حين اندفع الدم الى رأسه . وامتدت شفتاه وارتعشتا كأن الدموع توشك أن تنفجـــر من عينيه . ورأيت أنه قدأصبح عاجزا عن النطق بكلمة واحدةمن فرط شعوره بالمهانة .. وربما من خيبة الأمل أيضـــا . فمن يدرى ؟ لعله كان يتطلع بحرقة الى كيل اللكمـــات كالمطارق

الى جسدى رجاء أن يعيد بذلك الى نفسه الثقة التى ضاعت ، والهدوء الذى اضطرب ؟ من يدرى أى شعور بالراحة كان يتوقع من فرصة هذا الشجار ؟.. انه كان من الغفلة بحيث لايستبعد عليه أن يتوقع أى شيء . ولكنه كشف عن نفسه بلامقابل فى هذه الحالة ... لقد كان صريحا جدا مع نفسه ، ودعكم من صراحته معى ، وكان يأمل أملا بلا حدود أن توصله هذه الطريقة الى دفع التهمة بعيدا عن نفسه ولكن الحظ الساخر لم يكن مواتيا ... وخرجت من حلقه حشرجة لم أتبين منها شيئا ، كما لو كان قد أصيب بضربة مؤلمة على رأسه كادت تفقده الوعى . لقد كان منظره حقا يدعو للرثاء .

«ولم أستطع اللحاق به بعد ذلك الا خارج البوابة ، ولقد اضطررت للجرى فى آخر الأمر وحين عاتبته وأنا ألهث الى جانبه على هربه قال : «أبدا ، لم أهرب» ثم استدار الى كالحيوان الذى سدت عليه المسالك فاضطر الى القتال دفاعا عن نفسه . وأخبرته أننى لم أعن انه كان يحاول الهرب منى . فأجاب وعلامات العناد تظهر على قسمات وجهه : « ولا من أى رجل آخر . ولا من أى رجل على ظهر البسيطة» .. ولم أشأ أن أذكر له الاستثناء الوحيد من ذلك الذى يسرى على أشجع الشجعان بيننا ، فقد كنت أعلم أنه سيكتشف ذلك بنفسه فى وقت قريب . ونظر الى فى صبر وأنا أحاول أن

أفكر فى شىء أقوله ، ولكن البديهةلم تسعفنى بشىء فى تلك اللحظة . فابتدأيعاود السير فى طريقه وفى لهفتى على عدم افلاته منى قلت فىسرعة اننى لاأستطيع أن أتركه وهو لايزال يظن خطأ أننى — اننى ... ثم فأفأت ... وكانت سخافة العبارة تصدمنى وتملأنى بالاشمئزاز وأنا أحاول اتمامها ... ولكن تأثير الكلمة المنطوقة لايكاد يمت بصلة الىمعناها ، أوالى أسس المنطق فى تركيب العبارة ... والدليل على ذلك أن تلك الصورة البلهاء التى كنت عليها وأنا أمضغ الكلمات قد ظهر أنها سرته ، فأنهاها بقوله الهادىء المجامل الذى يدل اماعلى قوة هائلة فى ضبط النفس واما على مرونة عجيبة للروح التى تنبع منها مظاهره وتصرفاته المادية : «أنا الذى أخطأت» : ودهشت من هذا التعبير الذى نطق به كما لو كان يشير الى حدث تافه . وقلت لنفسى : ألم يفهم معنى ماحدث ؟ ثم استمر فى كلامه وهو يظهر شيئا من الضيق : «أرجو أن تعفو عن تصرفى فلقد بدا لى أولئك الذين كانوا فى المحكمة على درجة من الغباء لمأستبعد معها أن يصدر منهم ذلك التصرف الذى ظننت خطأ أنه قد وقع فعلا » .

« ولقد جعله ذلك لدهشتى يظهر فى ضوء آخر أمام عينى ، فنظرت اليه متفحصا والتقت عيناى بعينيه اللتين لم يبد فيهما أثر للخجل ولا كان يمكن النفاذ منهما الى داخله . وقال

وبساطة : «انني لاأستطيع أن اسكت على مثل هـذا التصرف ولا أقوى أن أفعل . ان الأمر مختلف فى المحكمة فانه لابد لى من مواجهة كل شيء هناك ، ثم انى قادر على هذه المواجهة أيضا » ولا أدعى أننى فهمته . فما سمح لى برؤيته منه ، كان أشبه بمايراه الرائى خلال الفجوات المتنقلة فى ضباب كثيف ، أجزاء هنا وهناك من التفاصيل ، التى تظهر واضحة ثم تختفى ، ثم بعد ذلك لاتعطيك فكرة متماسكة عن طبيعة المنطقة التى تنظر اليها . تغذى فيك رغبة حب الاستطلاع ، ولكنها لا تشبعها ، ثم أنها لاتفيد فى توجيهك الوجهة الصحيحة ... والخلاصة أنه كان لايعطيك فكرة خاطئة عن نفسه . وهذا كان مجمل ما استخلصته حين تركنى فى ساعة متأخرة من المساء . فقد كنت أقضى بضعة أيام فى فندق «مالابارهاوس» وكان قد قبل دعوتى للعشاء هناك بعد الحاحى عليه بذلك .

الفصل السابع

«وكانت احدى عابرات البحار من البواخر التى تحمل البريد قد وصلت عصر ذلك اليوم ، وكانت قاعة الطعام فى الفندق قد امتلأ نصفها بعدد من السائحين حول العالم يحملون تذاكرهم التى كان ثمن الواحدة منها مائة جنيه فى جيوبهم . وكان فيهم المتزوجون الذين ظهرت عليهم مسحة من ارتبطوا بالبيت ارتباطا وثيقا ، وقد مل كل منهم عشرة الآخر فى أسفارهم . وكانوا اقد انقسموا الى جماعات صغيرة، وجماعات كبيرة، وآحاد متفرقين يتناولون عشاءهم فى هدوء ، أو يحتفلون به فى ضوضاء . ولكن جميعهم كانوا امايفكرون ، واما يتحدثون واما يضحكون، واما يكشرون عن أنيابهم طبقا لعاداتهم التى كانوا يتبعونها فى بلادهم . وكان لهم من الاستجابة المستنيرة للتأثيرات الجديدة ما لحقائبهم التى تركوها فى الطوابق العلوية . ومن الآن فصاعدا ستلصق بهم الطوابع التى تنبىء عن وصولهم الى هذا المكان أو ذاك كما ستلصق على متاعهم وسيعتزون بهذا الامتيار لأشخاصهم وسيحتفظون بالأوراق الملصقة على حقائبهم كدلائل وثيقة على ذلك ، أو كالأثر الوحيد الباقى من ذلك المشروع الخطير الذى قاموا بتنفيذه

تحسينا لمعلوماتهم ومداركهم . وكان الخـدم السود يتحركون بخفة وبلا ضوضاء على بلاط القاعة الفسيحة ، وبين حـين وآخر كانت تسمع ضحكة فتاة ، ضحكة بريئـة جوفـاء كعقلها . وحين تسكن ضوضاء الصحون فجأة كانت تسمع بضع كلمات ، فى صوت متكلف يمد المقاطع ، من أحد من اشتهروا بحسن النكتة وشيق الحديث .وهو يوشى آخرحكاية مضحكة عن الفضائح فى السفينة لتسلية مائدة كاملة من رفاقه الباسمين. وكان هناك عانستان عجوزان من هذه القبائل الرحل قـد استعدتا بكامل زينتهما لتلك الوليمة القبلية وأخذتا تفحصـان قائمة الطعام بطريقة فجة وهما تهمسان بشفاه ذابلة ، ووجـوه خشبية ذات صورة غريبـة كما لو كانا شاخصين من شـخوص المقات قد غطيا بالملابس الفاخرة والحلى الثمينة .. وكان قليل من النبيذ كافيا لأن يفتح قلب جيم ويفك عقدة لسانه . وكانت شهيته حسنة أيضـا كما لاحظت ، وظهر عليه أنه قـد دفن الأحداث الأولى التى لابست أول معرفتنا فى مكان ما . وأنها قد صارت شيئا لايمكن أن يجىء ذكره مرة أخرى فى هـذه الدنيا . وكان أمامى طول الوقت هاتان العينـان الزرقاوان الصبيتان وهما تنظران مباشرة الى عينى ، وذلك الوجه الشاب وهاتان الكتفان القويتـان ، وتلك الجبهة البرنزية العريضـة ، وفيها الخط الأبيض الذى يحيط بجذور الشعر الكثيف الأشقر. وبالجملة هذه الصورة التى وجدتها قريبة الى قلبى منذ النظرة

الاولى بما فيها من صراحة المظهر ، وعذوبة الابتسامة ، وجدية الشباب . لقد كان من النوع الذى نحبه . بل لقد كان فردا منا . وكان يتحدث فى جد ونوع من عـدم التحفظ ، دون اندفاع ، وبطريقة هادئة ربما كان السبب الذى يمليها عليـه هو الرجولة وضبط النفس ، وربما كانت الوقاحة ، أو النقص فى الاحساس ، أو حتى انعدامه الكامل ، أو الخـداع كأعظم ما يكون الخداع . فمن يدرى ؟ فمن نغمة حديثنا كان يمكن أن يكون موضوع المناقشة بيننا رجلا آخر ، أو مباراة لكرة ، أو حالة الجو فى السنة الماضية . وكان عقلى يطفو غير مستقر على بحر من الأفكار ، حتى مكننى الطريق الذى اتجه اليـــه الحديث ، أن أقول له دون أن أجرحه ان هذه المحاكمة بوجـه عام لابد أن تكون محنة قاسية بالنسبة اليه.فرمى بذراعه فى حركة سريعة عبر المائدة وأمسك بيدى التى كانت بجوار صحنى وحدق فى عينى بنظرة ثابتة ، ففزعت من هـــذه المفاجأة وقلت مغمغما وأنا فى حيرة من هذا العرض العاطفى الصامت :« لابد أنها غاية فى القســوة » . فانفجر يقول فى صــوت مكبوت : « انها جهنم . »

ولفتت هـــذه الحركة وهذه الكلمات نظر رجلين حســنى الهندام منجوابى الآفاق ، كانا يجلسان فى المائدة المجاورة ، فرفعا أعينهما الينا من أطباق الحلوى المثلجة أمامهما . فنهضت

وانتقلنا الى الشرفة الخارجية لتناول القهوة والسيجارة . وكانت في الشرفة موائد صغيرة مثمنة الشكل وضعت عليها شموع مضيئة وسط كرات من زجاج ، وكانت الحواجز النباتية فيها تفصل بين مجموعة وأخرى من كراسى القش المريحة . وكان الليل فى ظلامه اللامع ، وكأنه وشى من القماش البديع يملأ الفراغ بين صفى الاعمدة التى انعكست على سوقها الحمراء لمعة النجوم الداخلة من نوافذ الشرفة الطويلة . وكانت أنوار السفن المتنقلة تومىء الينا من بعيد وكأنها نجوم غاربة ، والتلال حول الميناء تشبه كتلا سوداء مستديرة من سحب الرعد الحبيسة .

وبدأ جيم حديثه قائلا : «اننى لم أستطع الهروب . لقد هرب القبطان ، وكان ذلك صوابا بالنسبة اليه ولكننى لم أستطع . ولا كنت أريد أن أهرب ، ولقد استطاع الجميع الافلات من هذه المحاكمة بطريقة أو بأخرى ، ولكن ذلك لم يكن ممكنا بالنسبة الى » .

وجلست أصغى اليه اصغاء تاما ، وأنا لا أجرؤ على الحركة فى مقعدى فلقد كنت أريد أن أعرف ... ولكننى لا أعرف الى الآن شيئا فكل ما استطيعه هو أن أظن ... فلقد كان يثق ويضيق بنفسه فى نفس الوقت ، وكأن اعتقادا فى براءته كشىء من خصائص طبيعته كان يمنع الصدق الذى يتلوى

ويصرخ فى داخله من الانطلاق • وبدأ جيم بقوله بطريقة الرجل الذى يريد أن يعترف بعجزه عن القفز فوق حائط طولها عشرون قدما انه لن يستطيع أن يرجع الى بيته أبدا • وهنا قفزت الى ذاكرتى كلمات بريرلى حين قال : «ان القس العجوز يعتز بولده البحار اعتزازا غير قايل» •

ولا أستطيع أن أخبركم أكان جيم يعرف شيئا عن هذا الاعتزاز أم لا • ولكن طريقة حديثه عن أبيه «داد» كانت تهدف دون شك الى اقناعى بأن ذلك القس الريفى كان خير رجل احتمل وجاهد فى سبيل العناية بأسرته الكبيرة منذ بدء الخليقة الى الآن وهو وان لم يصرح بذلك قط كان يشير اليه وهو يحرص بشىء من القلق على ألا يكون هناك أى خطأ فى فهمى لهذه الحقيقة • ولقد اقتنعت بذلك ووجدته شيئا جميلا، وان كان قد أضاف على عناصر هذه القصة شعورا حادا بحياة أناس آخرين يعيشون بعيدا عن هذه الأحداث • وقال جيم : «لابد أنه قد رأى كل شىء فى الجرائد هناك ، ولن أستطيع بعد ذلك أبدا مواجهة الرجل العجوز» • ولم أجرؤ على رفع عينى اليه حتى سمعته يضيف هذه الكلمات : «اننى لن أستطيع أن أفسر له ذلك ، فهو لن يفهمنى أبدا» • وهنا رفعت نظرى اليه،وكان يدخن وهو مستغرق فى التفكير ، واستطاع بعد لحظة أن يرجع الى الموضوع ويعاود حديثه واكتشف فى نفسه

فى الحال رغبة أكيدة فى ألا أخلط بينه وبين زملائه فى ... فى الجريمة . ودعونا نسمها ذلك الآن ، فهو لم يكن فــردا منهم انه كان من نوع آخر يختلف عنهم تمام الاختلاف . ولم أبد أى اشارة تدل على اختلافى معه فى الرأى . فلميكن فى نيتى من أجل الوصول الى الصدق المجرد أن أحرمه قط ولو من ذرة صغيرة من أى تفسير رحيم فى طريقة يحفظ بهـا ماء وجهه . ولم أكن أعلم كم يصدق هو من هــذا الكلام ، ولم أكن أعلم ماهى لعبته ان كانت هناك لعبة ، وكنت أرجح أنه هو أيضا لايعلم . لأننى أعتقد أنه مامن أحــد يستطيع أن يفهم تماما طبيعة حيلته ومراوغاته فى الهروب من قسوة معرفتـــه بحقيقة نفسه . ولم أحدث صوتا طيلة حيرته فى ماذا يحسن به أن يفعل «حين تنتهى هذه المحاكمة الغبية» . ويظهــر أنه كان يشارك بريرلى رأيه فى احتقار هذه الاجراءات التى كانيحتمها القانون . انه كان لا يعرف أين يتجه الآن . ومن الواضحأنه كان يفكر علانية أكثر مما كان يتحدث الىوهو يقول ذلك ــ فتسحب شهادته ، ويقطع عليه طريق العمل فى مهنتـــه ، ولن يكون معه نقود للسفر الى مكان آخر ، ولن يمكنه الحصــول على عمل على مايرى الآن ، ولربما استطاع أن يجــد شيئا اذا عاد الى وطنه . ولكن ذلك معناه أنه سيطلب المعونة من أهله، وهو ماليس فى قدرته أن يفعله . وعلى ذلك فهو لمير شيئـا

آخر أمامه غير أن يعمـل كبحار بسيط ، أو ربما استطاع أن يحصل على وظيفة ضابط صغير يعمل فى قراءة البوصلة وضبط اتجاه السفينة على احدى البواخر • نعم انه يصلح لمثل هـذا العمل •• وعند ذلك سألته بلا رحمة : « أتظن أنك تصلح لهذا العمل ؟ » فقفز واقفا وذهب الى الحاجز الحجرى للشرفة وحدق فى ظلام الليل ، ثم رجع وانحنى بقامته الطويلة فوق مقعـدى وعلى وجهه الشاب سحابة لم تنقشع بعد من تأثير جهاده لكبت مشاعره • وسألنى فى صوت مرتعش : «لماذا قلت ذلك وأنت الذى غمرتنى بعطفك ، ولم تضحك منى حتى حين ••» وهنـا ارتج عليه وأخـذ يبحث عن الكلمات • وأخـيرا غمغم قائلا : «ارتكبت ذلك الخطأ الذى تعرفه ، وجعلت من نفسى حمـارا أمامك» • وهنا قاطعته فى شىء من الحـرارة قائلا له : «اننى لم أجد فى ذلك الخطأ ما يوجب الضحك» • فجلس وأخـذ يشرب قهوته فى تؤدة حتى أفرغ الفنجان الى آخر نقطة فيه • ثم قال بصوت واضح : «ان هذا لا يعنى أبدا أننى أعترف أن القبعة كانت تناسب الرأس » • فقلت بلهجة الاستفهام : «لا»؟ وأجاب فى تأكيد هادىء : «لا» • ثم قال «هل تدرى ماذا كنت تفعل أنت ؟ أتدرى ؟ وأنت لا تسمى نفسك» •• ثم بلع شـيئا وأتم جملته : «وأنت لا تظن أنك •• كلب ؟» وبهذا رفـع رأسه وقسما بشرفى أخذ ينظر الى منتظرا اجابتى ، فلقـد كان

ذلك سؤالا على مايبدو ، سؤالا مصحوبا بحسن النية . ومهما يكن من شيء فانه لم ينتظر اجابتي فقد استمر في حديثه قبل أن أفيق من دهشتي ، وقال وهو ينظر في خط مستقيم أمامه وكأنما يقرأ شيئا مكتوبا على جسد الليل : «ان كل شيء يتوقف على أن تكون مستعدا ، ولم أكن مستعدا . كلا لم أكن في ذلك الوقت ... انني لا أريد أن أنتحل الاعذار لنفسي . أنني أريد فقط أن أفسر . اني أريد ان يفهمني أحد الناس . أريد ان يفهمني انسان واحد على الأقل . أنت . نعم لماذا لا تكون أنت ؟ »

« وكان الموقف جادا ومضحكا في نفس الوقت كما هي العادة ونحن نبذل أقصى جهودنا للاحتفاظ بفكرتنا عما يجب أن تكون عليه صفاتنا الخلقية طبقا للعرف الذي اصطلح عليه الناس . ومع أن هذه الفكرة لاتزيد قيمتها عن كونها احدى قواعد اللعب فانها مع ذلك ذات تأثير بالغ بما تفرض وجوده لدينا من سلطة لاحد لها على غرائزنا الطبيعية ، وماتفرضه من عقوبات صارمة على من لا يبرهن منا على ذلك عند الامتحان . وبدأ جيم يروي قصته في هدوء فعلى ظهر تلك الباخرة التي كانت احدى بواخر شركة «ديل لين» ، والتي التقطت هؤلاء الأربعة وهم يطفون في قاربهم على البحر في لمعة الشمس الغاربة بدأ اللغط يزداد من حولهم بعد مرور اليوم الأول . فروى القبطان السمين قصته عن الحادث ، ولاذ الباقون بالصمت ، ويظهر أن قصته كانت قد

لاقت قبولا فى أول الأمــر • فأنت لا تجــرى تحقيقــا دقيقا مع نفر من المنكودين الذين غرقت ســفينتهم ، وواتاك الحظ لانتشالهم ؛ ان لم يكن من الموت ، فمن عذاب أليم • ولكن بعد حين ، حين توافر الوقت للتفكير ، فلعله قــد خطر لضباط الباخرة «أفنديل» أن هناك ما يبعث على الشك فى هذه القصة• ولكنهم احتفظوا بالطبع بشكوكهم لأنفسهم فلقد التقطـــوا القبطان والضابط الأول ، ومهندسين للباخرة «بتنا» التى غرقت فى البحر ، وكان هذا يكفيهم • ولم أسأل جيم عن طبيعةشعوره أثناء الأيام العشرة التى قضاها على ظهر الباخرة • فمن طريقة روايته لهذا الجزء من القصة رأيت أن لدى الحرية فى استنتاج أنه كان مصابا بفقدان جزئى للوعى من جراء الاكتشـــاف الذى وصل اليه فيما يتعلق بطبيعة نفسه • وكان الآن دون شك فى شغل شاغل به وهو يحاول أن يفسره تفسيرا يزيحه عن كاهله الى الرجل الوحيد الذى كان قادرا على تفهم أهميته الفائقة • ويجب أن تفهموا أنه لم يحاول قط الانتقاص من أهمية هــذا الاكتشاف • أننى واثق من هذا وهذا هو سر امتيازه • أما عن المشاعر التى انتابته حين نزل الى الشاطىء وسمع النهاية التعسة للقصة التى لعب فيها هذا الدور الموجب للرثاء ، فلم يحدثنى بشىء عنها وكان من الصعب على تصورها • اننى أتســاءل ان كان قد أحس بالأرض قد انشقت تحت قدميه؟ نعم انى أتساءل• وأيا كان الجواب فلاشك أنه قد استطاع أن ينقل قدميه بعــد

ذلك على أرض ثابتة . وكان قد مضى عليه الآن خمسة عشر يوما وهو يعيش فى «بيت البحارة» . وبما أنه كان يعيش معه فى هذا البيت ستة أو سبعة رجال آخرون فلقد سمعت شيئا من أخباره . وكان رأيهم فيه أنه الى جانب مافيه من نقائص أخرى كان حيوانا غيراجتماعى بطبعه . فلقد كان يقضى معظم وقته فى الشرفة مدفونا فى أحد المقاعد الطويلة . ولم يكن يغدر هذا المخبأ الا فىأوقات تناول الطعام ، أو فىساعة متأخرة من الليل حين كان يتجول وحيدا على أرصفة الميناء منتزعا نفسه من البيئة التى يعيش فيها وهو صامت لا يعرف لنفسه وجهة بيمم شطرها ، كشبح بلابيت يسكنه . ولقد جعلنى حزينا من أجله حين قال : « اننى لا أظن أننى تحدثت ثلاث كلمات مع أى كائن حى طوال هذه الأيام « . ثم أضاف الى ذلك سريعا « ان أحد هؤلاء الرجال كان لابد أن تفلت منه كلمة ، كنت قد أعملت رأيى فى عدم السكوت على مثلها . ولم أكن أريد الدخول فى شجار . كلا ، ليس فى ذلك الوقت . فلقد كنت كنت .. حسن لم تكن لدى الشهية لذلك حينئذ » . فقلت له باسما «اذن فلقد استطاع ذلك الحاجز الحديدى فى «بتنا» أن يصمد رغما عن أكل شىء » . فدمدم قائلا : «نعم لقدصمد. ولكننى أقسم لك أننى أحسست به وهو يتحرك تحت ضغط يدى وقلت له : «ان من المدهش ، كم من الضغط والاجهاد يمكن للحديد القديم أن يتحمل !» فأومأ برأسه عدة مرات

مسندا ظهره الى المقعد ، ومادا رجليه مشدودتين الى الامام ، وتاركا يديه معلقتين فى استرخاء الى جانبه • ولا أعرف منظرا كان أبعث على الحزن من منظره حينذاك ••• ثم رفع رأسه فجأة ، واعتدل فى جلسته وضرب بيده على فخذه وهو يصيح : «يالها من فرصة ضاعت • آه يا الهى • يالها من فرصة ضاعت» • وكانت رنة كلمة (ضاعت) الأخيرة كأنها صيحة أفلتها فرط شعوره بالألم •

ورجع الى صمته ثانية وهو لايزال محتفظا باستغراقه فى لهفة متحرقة وراء الامتياز الذى أفلت • واتسعت فتحتا أنفه للحظة وهو يستنشق العبير المسكر لهذه الفرصة التى ضاعت • وان كنتم تعتقدون أننى دهشت أو صدمت من هذا المنظر فانكم تظلموننى بحكمكم هذا فى أكثر من ناحية• نعم ، فلقد كان لهذا المخلوق خيال ملتهب • ولقد كان يكشف نفسه بهذا الخيال الى جميع أبعادها • وكنت أستطيع أن أرى فى نظرته التى يرمى بها الليل كل كيانه الداخلى محمولا ، منطلقا معروضا ، فى عالم البطولات الخرافية التى لاتحسب حسابا لواقع الأشياء • انه لم يكن لديه وقت الفراغ الذى يقضيه فى الأسف على ما فقد لان كل وقته وكل طبيعته كانت منصرفة الى التفكير فى ذلك الذى لم ينجح فى الحصول عليه • لقد كان أبعد ما يكون عنى الآن وأنا أرقبه من بعد تلك الخمسة الأشبار • وكان يخترق مع

كل لحظة أعماقا جديدة فى ذلك العالم اللامعقول الذى يمتلىء بالخيالات الرومانسية . وأخيرا وصل الى أعمق الأعماق ، وانتشرت على قسمات وجهه صورة غريبة من الجمال ، ولمعت عيناه فى ضوء الشمعة التى بيننا ، ثم ابتسم فعلا . لقد وصل الى قاب ذلك العالم . نعم الى القلب ذاته . لقد كانت ابتسامة تنم على الفرحة الكبرى ، ابتسامة لن ترتسم أبدا على وجهى ولا على وجوهكم أيها الأولاد الأعزاء ...وأخيرا ضربته بسوط كلماتى مرجعا اياه الى عالمنا . فقلت له : «أتعنى ان كنت قد ظللت فى مكانك بالسفينة ولم تغادره ؟»

فاستدار الى والألم والدهشة فى عينيه والحيرة والفزع والعذاب فى وجهه كما لو كان قد سقط فجأة من نجم فى السماء . ويكفى أن أقول لكم انه لا أنتم ولا أنا يمكن أن نوجه هذه النظرة الى انسان ، ثم ارتعش جسده بشدة كما لو كان قد مس قلبه أصبع من ثلج . وأخيرا تنهد .

«ولم أكن فى هذه اللحظة أحس نحوه بشىء من الرحمة أو العطف ، فلقد كان من عادته أن يثير الانسان بحماقاته المتناقضة فقلت له بنية سيئة : «انه لمن سوء الحظ أنك لم تتنبأ حينذاك بسير الأحداث» . ولكن السهم المسموم لم يصبه بضرر بل سقط هامدا تحت قدميه ، ولم يفكر فى انتقاد لى لعله لم يره اطلاقا . فقد استرخى على مقعده فى الحال وقال : «الى الجحيم

بكل شيء . انى أقول لك ان الحاجز كان يتحرك تحت ضغط يدى ، وزيادة على ذلك فحين كنت أمسك بالمصباح مسلطا ضوءه على حديد الزاوية فى السطح السفلى سقطت قطعة من الصدأ فى حجم كفى من تلقاء نفسها من لوح الحديد » . ثم مر بيده على جبهته واستأنف حديثه . « ولقد اقفزت هذه القطعة أمامى وتحركت كأنها شيء حى» . وقلت له فى عدم اكتراث : «لابد أن هذا قد أزعجك كثيرا» . فقال : « أتظن أننى كنت أفكر فى نفسى ؟ وهناك مائة وستون شخصا وراء ظهرى كلهم نيام فى وسط هذا السطح فقط ، وهناك أكثر من هؤلاء فى السطح الخلفى والسطح العلوى ، وكلهم نائمون لايدرون شيئا ، وأكثر بثلاث مرات من حمولة القوارب الموجودة حتى لو اتسع الوقت . انى كنت أتوقع فى كل لحظة أن أرى الحاجز ينهار وأنا واقف هناك ، وأرى الماء المندفع يغطيهم جميعا وهم رقود . فماذا كنت أستطيع أن أفعل ؟ ماذا ؟ »

ولقد كان من السهل على أن أتصوره فى ذلك المكان المظلم الذى يشبه مغارة آهلة بالسكان . ونور المصباح الذى فى يده يسقط على جزء صغير من الحاجز الحديدى الذى يحمل ثقل مياه المحيط على جانبه الآخر ، وصوت تنفس النائمين يطن فى أذنيه . كنت أستطيع أن أراه يحدق فى الحديد ، وقد فزع من رؤية الصدأ المتساقط . وأثقل قلبه توقعه للموت فى كل

لحظة • وكانت هذه هى المرة الثانية كما فهمت التى أرسله فيها قبطانه الى أسفل السفينة • ويخيل الى أنه كان يريد ابعاده فى ذلك الوقت عن سطح القيادة • ولقد أخبرنى أن أول ما خطر له كان أن يصرخ فى النائمين ليوقظهم فى الحال وهم فزعون من نومهم ، ولكن احساسا هائلا بعجزه غشيه فعقد لسانه عن احداث أى صوت • ولعل هذا هو مايعنيه الناس حين يقولون ان لسانهم التصق بسقف حلقهم • وكان تعبيره المختصر فى اشارته الى هذه الحالة أنه قد شعر بحلقه «غاية فى الجفاف» • وعلى هذا فقد أخذ طريقه الى السطح العلوى بدون صوت وهو يحاول أن يتقى العثرات على قدر مايستطيع خلال الفتحة الأولى فى السطح • وعند وصوله الى السطح تصادف أن تحرك شراع كان موضوعا هناك • وتذكر أن مس قماش الشراع الخفيف لوجهه كاد أن يسقطه من فوق الدرج •

«واعترف بأن ركبتيه كانتا تهتزان بشدة حين كان يقف فى السطح الأمامى ينظر الى جماعة أخرى من النائمين •• وحيث ان الآلات كانت قد توقفت الآن ، فان البخار كان يخرج الى الهواء فى صوت قاصف عميق ، يحدث فى سكون الليل ذبذبات متلاصقة كالتى يحدثها وتر القرار فى السلم الموسيقى عند لمسه، وتجعل السفينة ترتعش استجابة لها •

« وكان يرى هنا وهناك رأسا قد ارتفع فوق حصيرة أو

جسدا لاتتبينه جيدا فى الظلام يرتفع حتى يصبح فى وضع الجلوس ثم ينصت هنيهة ، وهو لايزال أقرب الى النائمين ، ويهبط بعد ذلك سطيحا على ظهره وسط تلك الفوضى المتناثرة من الصناديق ، وروافع البخار ، ومجددات الهواء . وكان يعلم أن هؤلاء الناس ليس لهم من المعرفة مايتيح لهم ملاحظة هذه الضوضاء الغريبة بذكاء يجعلهم يدركون ماوراءها . فالسفينة الحديدية والرجال البيض وكل ماكانوا يرون ويسمعون على ظهر هذه السفينة ، كل ذلك كان يتساوى فى الغرابة بالنسبة لهؤلاء القوم الجهلاء الأتقياء . وكان يوحى اليهم بالثقة بقدر ماكان يبتعد عن أفهامهم الى الأبد ، وخطر له أن ذلك كان من حسن الحظ وان كانت الفكرة فظيعة .

«ويجب أن تتذكروا أنه كان يعتقد كأى رجل آخر فى ظروفه أن السفينة لن تلبث أن تهبط بهم الى قاع البحر فى أية لحظة الآن لأن ألواح الحديد الهادئة المفرطحة كان لابد لها أن تنهار كسد ملغم . وأن سيلا عارما متدفقا من المياه سيجتاح السفينة حينئذ هابطا بها الى المصير المحتوم . ووقف ساكنا ينظر الى الأجساد الراقدة كرجل تقرر مصيره وهو عالم بذلك يتأمل صحبته من الأموات . نعم من الأموات لأنه لم يكن هناك شىء يستطيع انقاذهم . لقد كان هناك ربما مايكفى لنصف عددهم من القوارب ، ولكن لم يكن هناك وقت لذلك ، لاوقت .

لا وقت مطلقا • وعلى هـذا فلم يكن هناك داع ولافائدة لأن يفتح شفتيه ، أو يحرك يدا أو قدما • فقبل أن يتفوه بكلمات ثلاث ، أو يخطو خطوات ثلاثا سيجد نفســه فى صراع يائس مع الموت فى بحر خضم عـلاه الزبد من كثرة الآدميـين الذين يشتركون معه فى هذا الصراع وسط صرخاتهم اليائسة طلبـا للنجدة ، ولن تكون هناك نجدة•فلقد تخيل بوضوح ماسيحصل وعاشه بالكامل وهو يقف ساكنا بلاحراك الى جانب فتحـة السقف والمصباح فى يده ، عاشه الى الثمالة فى أدق تفاصيله التى يشيب من هولها الولدان وأظنه قد عاشه ثانية وهو يقص على هذه الأشياء التى لم يكن يستطيع أن يسردها فى المحكمة•

« وقال : « لقد رأيت بنفس الوضوح الذى أراك فيه الآن أنه لم يكن هناك شىء أستطيع عمله • ويظهر أن هذه الفكرة كانت قد امتصت من أطرافى كل ما كان فيها من عصارة الحياة فبدا لى أن خير ما أفعله هو أن أقف هناك ، وأنتظر • ولم اكن أعتقد ان ذلك سيزيد على بضع ثوان ••» وفجأة كف البخـار عن الانطلاق • وقال ان صوت البخار كان لايساعد على التركيز، ولكن السكون الذى حل محله فى الحال كان يفوق الاحتمال « فلقد ظننت أننى سأختنق فى هذا السكون قبل أن أغرق » •

« وقال محتجا انه لم يكن يفكر فى انقاذ نفســه ، والفكرة الوحيدة التى كانت تأخذ بزمام عقله حينئذ وهى تظهر وتختفى،

وتظهر ثانية هى : «ثمانمائة شخص وسبعة قوارب •• ثمانمائة شخص وسبعة قوارب» •

«زدنى فى شىء من التوحش : «كان هناك شخص يصرخ فى داخل رأسى قائلا : «ثمانمائة شخص وسبعة قوارب ، ولا وقت هناك • فكر فى ذلك »• ومال نحوى بجسده عبر المائدة الصغيرة وأنا أحاول أن أتجنب نظرته ، وسألنى بصوت غاضب خافت : «هل تظن أننى كنت خائفا من الموت ؟•» ثم ضرب المائدة بكفه ضربة جعلت فناجين القهوة ترقص ، وقال : «انى مستعد لأن أقسم لك بأنى لم أكن خائفا •• وقسما بالله ، انى لم أكن خائفا ؟ » ثم اعتدل فجأة فى جلسته وربع ذراعيه • وسقط ذقنه على صدره •

«وكانت ضوضاء التخديم ورفع الصحون تصل ضعيفة الى أسماعنا من خلال الأبواب الطويلة التى كانت تفضى الى قاعة الطعام • ثم سمعنا فجأة كثيرا من الأصوات العالية خرج على أثرها الى الشرفة رجال كثيرون كانت تسودهم مظاهر المرح الشديد ، وكانوا يتبادلون ذكرياتهم التى تثير الضحك عن الحمير فى القاهرة ، وكان بينهم شاب أصفر الوجه يظهر على وجهه القلق ويمشى بخطوات خفيفة على رجلين طويلتين ، يقف أمام أحد جوابى الآفاق من حمر الوجوه الذين يمشون على الأرض فى زهو عجيب وهو يوبخه على صفقاته الخاسرة فى السوق •

وسمعت الشاب وهو يقول فى غاية من الجد والتفكير : «ولكن أصحيح أنك تظن أنى خدعت الى هذا الحد ؟» وابتعدت الجماعة وهم يتفرقون على المقاعد فى طريقهم ، واشتعلت أعواد الثقاب لتعكس ضوءها فترة قصيرة على الوجوه التى خلت حتى من شبهة التعبير ، وعلى لمعة الصدور المنشاة لأقمصتهم البيضاء. وكانت التفاهة هى الطابع المميز لتلك الأحاديث التى سرت فيها نشوة الشراب على الموائد المختلفة . وقد خيل الى أنها تصل الى آذاننا من عالم بعيد .

واستأنف جيم حديثه قائلا : « وكان بعض البحارة ينامون عند الفتحة الأولى فى متناول ذراعى .»

« ويجب أن تعلموا أن نظام الرقابة المتبع فى هذه السفينة هو النوع الذى يسمونه «كالاشى» . حيث كان ينام جميع البحارة فى الليل ، ولايستدعى منهم غير غيار رجال البوصلة وضبط السير ، ونوبة من يراقبون البحر . ولقد كاد أن يمسك بأقرب بحار اليه ، ويهز كتفيه ولكنه لم يفعل ، فلقد كان هناك شىء أجبر ذراعيه على أن تظلا فى وضعهما الى جانبه . ولم يكن خائفا .. كلا . كلا .. ولكنه لم يستطع وهذا هو كل ما فى الأمر .ولربما لم يكن خائفا من الموت ، ولكن دعنى أقل لكم ، انه كان خائفا من مواجهة الموقف . فلقد أحيى خياله المرهف أمام عينيه كل فظائع الفزع الجماعى — الاندفاع الذى يكتسح

أمامه كل شيء ، صرخات الرعب ، القوارب التى تمتلىء بالماء وكل ما يمكن أن يحدث من الأهوال التى سمع عنها فى حوداث البحر . فلربما كان قد رضى بالموت ، ولكنه كان يريد ان يموت دون أن يضيف الى ماكان يشعر به أهوالا أخرى من الفزع . كان يريد أن يموت فى هدوء ، فى سلام حين غيبته عن الوعى . فليس التسليم بالموت شيئا نادر الحدوث ، ولكن النادر حقا هو أن نلتقى بأناس تحصنت أرواحهم بدروع من صلب الارادة الى حد أن تجدهم على استعداد للقتال الى النهاية فى معركة خاسرة. فمن منا هنا لم يلاحظ ذلك ؟ أو ربما .. لعل منا هنا من جرب هذا الشعور بشخصه — الشعور بأحاسيسه ، وقد بلغت نهاية الارهاق . والشعور بأن كل جهد يبذله ان هو الاغرور كاذب ، وبأن الراحة هى كل مايطلب ، ولو كانت راحة الموت . وهذا الشعور يعرفه تمام المعرفة كل من يجاهد ضد قوى يعتقد أن من غير المعقول التغلب عليها ، مثل من غادروا سفينتهم الغارقة الى القوارب ، أو الذين ضلوا طريقهم فى الصحراء . وبالاختصار كل الرجال الذين يقاتلون قوى الطبيعة التى لاحد لها ، أو وحشية الجماهير التى لا عقل لها .

الفصل الثامن

ولست أعرف على وجه التحديد كم من الوقت وقف ساكنا الى جوار فتحة السقف ، وهو يتوقع فى كل لحظة أن يحس بالسفينة وهى تغطس ؛ وباندفاع الماء وهو يكتسحه أمامه الى المؤخرة ، ثم يطوح به الى البحر . ولكنى لا أظن أنه كان وقتا طويلا ، ولعله لم يزد عن دقيقتين ، ثم سمع صوت رجلين لم يستطع أن يتبينهما يتحدثان وهما يغالبان النعاس . ولم يستطع أن يخبرنى أيضا أين اكتشف ضوضاء غريبة لأقدام تتحرك . ولكن فوق هذه الاصوات الخافتة كان الصمت المخيف الذى يسبق وقوع البلاء ، ذلك السكون الموحش الذى يسبق الكارثة . ثم خطر له أنه ربما كان أمامه من الوقت ما يكفى للاسراع بقطع كل حبال القوارب بحيث تطفو حين هبوط السفينة الى البحر .

وكان « لبتنا » سطح طويل ، وكانت القوارب جميعها على هذا السطح : أربعة فى جانب وثلاثة فى الجانب الآخر ، وكان أصغر هذه القوارب فى الجانب الأيسر أمام جهاز ضبط السير . وأكد لى جيم وهو فى غاية اللهفة أن أصدقه أنه كان حريصا غاية الحرص على جعل القوارب دائما على استعداد كامل

للخدمة فى أى وقت . وكان يعـرف واجباته وكان رأيى فيه أنه كان ضابطا على درجة مرضية من الكفاية فيما يتعلق بهذه الناحية ، وعلق على ذلك وهو يحـدق فى وجهى بقلق قائلا : « اننى كنت أعتقد دائما فى الاستعداد لأسـوأ الظروف » . فوق الرءوس . وفجأة أمسـك أحدهم بذيل سترته ، وسمع جنبت عينى الالتقاء بنظراته التى كانت تدل على نوع يصعب الاهتداء اليه من النقص العقلى الخفى .

« وقال انه بدأ يجرى وهو لايسـتطيع الاحتفاظ بتوازنه تماما . وكان لابد له من المرور فوق الأرجل وتجنب السقوط فوق الرؤوس . وفجأة امسـك أحدهم بذيل سترته ، وسمع صـوتا مستغيثا يتحدث اليه من تحت مرفقه . وسـقط ضوء المصباح الذى كان يحمله فى يده اليمنى على وجه اسمر اتجه مرتفعا نحوه وعينين كان فيهما من الرجاء ، مافى الصوت الذى كان موجها اليه . وكان قد التقط من اللغة مايكفى ليفهم كلمة « ماء » وهى تتكرر عدة مرات بلهجـة فيـها الالحاح ، وفيها التوسـل ، وفيها أيضا مايشـبه اليأس . فأتى بحركة سريعة ليحرر يده ولكنه أحس فى نفس الوقت بذراع تطوق رجله .

« وقال لى بشكل مؤثر .. « ولقد أمسك بى كما لو كان رجلا يغرق . ماء . ماء . أى ماء كان يعنى ؟ وماذا كان يعرف ؟ وقلت له بكل ما أسـتطيع من هدوء أن يتركنى أمر ، فلقـد

منعنى عن الحــركة والوقت يمر » • وبدأ رجال آخرون تدب فيهم اليقظة • وكنت فى مسيس الحاجة الى الوقت ، الوقت الذى أحرر فيه القــوارب • وكان قــد أمســك بيدى الآن ، وأحسست أنه سـيبدأ فى الصراخ وأدركت فى التو أن ذلك سيكفى ليحــدث فزعا بين الجميع فأرجعت ذراعى الحــرة الى الوراء وقذفت المصــباح فى وجهــه فاهتزت الزجاجة وانطفأ الضوء ، ولكن الصدمة جعلته يفلت قبضته • وأخذت أجرى ، وكنت اريد الوصــول الى مكان القــوارب • نعم كنت أريد الوصــول الى مكان القوارب • ولكنه قفز ورائى فاستدرت اليه ولكنه لم يرد الصمت ، وحاول الصراخ ولقد كدت أخنقه قبل ان افهم ما يريد • انه كان يريد ماء ليشرب فلقــد كــان الماء يوزع عليهم بنظام دقيق ، وكان لهــذا الرجل ولد صغير رأيته معه عدة مرات • وكان ابنه مريضا وظمآن وكان كل مافى المسألة أن نظره قد وقع على ، فرجانى أن أعطيه بعض الماء • وكنا تحت سطح القيادة فى الظلام فظل يمســك بمعصمى ولم أستطع التخلص منه ، فاندفعت الى قمرتى ، وأخذت زجاجــة الماء من هناك ، ورميت بها اليه فاختفى • ولم أكن أعلم حتى تلك اللحظة كم كنت احتاج أنا نفسى الى شربة ماء • ثم أتكأ جيم على أحد مرفقيه ووضع يده الأخرى فوق عينيه •

« فأحسست باحساس غريب يزحف على عمودى الفقرى ،

فلقد كان هناك شيء غير عادى فى كل هذا . وارتعشت أصابع يده التى تظلل عينيه ، وقطع السكون القصير .

« فقال : « ان هذه الأشياء لا تقع الا مرة واحدة للانسان و ... حسن . فحين وصلت أخيرا الى السطح وجدت هؤلاء الشحاذين يحاولون اخراج القارب من المشاجب التى ثبت فيها . نعم قارب . وبنت أصعد الدرج واذا بضربه ثقيلة تصيب كتفى ، وقد كادت أن تمس رأسى . فلم أتوقف ، ورفع المهندس الاول الذى كانوا قد أيقظوه من نومه نقالة القارب مرة ثانية وبطريقة ما لم أكن أنوى أن أدهش من شيء فى هذه اللحظة فقد كان كل هذا يبدو طبيعيا وفظيعا ..... وفظيعا . وانحرفت عن طريق هذا المجنون التعس ، ثم رفعته عن السطح كما لو كان طفلا ، وبدأ يهمس فى أذنى : « لاتفعل انى ظننتك أحد أولئك الزنوج » فقذفت به بعيدا ، وتزحلق على السطح حتى ارتطم برجلى المهندس الثانى موقعا اياه على الارض . أما القبطان الذى كان مشغولا بالقارب فقد نظر حوله ، وخطا نحوى ورأسه الى اسفل وهو يزوم كالوحش فلم أتزحزح عن مكانى أكثر مما يفعل الحجر ، وكنت ثابتا فى مكانى كهذه الحائط » ومس بقبضته الحائط الى جانب مقعده . « وكان كل شيء وكأنما قد رأيته يحدث قبل ذلك ، وسمعته وعشته عشرين مرة . ولم ينتبنى أى خوف منهم

وسحبت قبضتى الى الوراء استعدادا فاذا به يتوقف ويقول : « آه . هذا أنت تعال سريعا لتساعدنا» هذا ماقاله ، سريعا . كأنما كان يستطيع أحد أن يسرع بما فيه الكفاية » وسألته : « ألن تفعل شـيئا ؟» فقال فى غضـب من فوق كتفه : « نعم سأغادر المكان » .

ولا أظن أنى فهمت ما قصـد حينذاك ، وكان الآخران قد أنهضا نفسيهما من كبوتهما بعد مرور ذلك الوقت واندفعا نحو القـارب مع القبطان فشدا ، وجرا ، ونفرا . ونخرا . ولعنا القارب والسفينة ، وأنفسهم ، وأنا . وكل ذلك فى همس وشكوى .... ، ولم أتحرك ولم أتكلم ، وكنت أراقب انحدار السفينة . وكانت ساكنة كما لو كانت مسندة على الخشب فى الحوض الجاف . الا أنها كانت كهذا » . ورفع يده وراحته الى أسفل وأطراف أصابعه منحنية أيضـا الى أسـفل ، وكرر كلمته : «كهذا» . « وكنت أستطيع أن أرى الأفق أمامى كالناقوس فوق أعلى نقطة لالتقاء جانبى السـفينة من الأمام ... وكنت أستطيع أن أرى الماء هناك أسود ، لامعا ، ساكنا كماء البركة . ساكنا كما لم يسكن ماء بحر من قبل ، ساكنا أكثر مما احتمل النظر اليه . هل سبق لك أن رأيت سفينة تطفو ورأسـها الى أسـفل لا يحول بينها وبين الغرق الا لوح من الحديد القديم سرى فيه العفن الى حد يستحيل معه تقويته ببطانة من الخشب ؟

نعم تقويته . فلقد فكرت فى ذلك ، لقـد فكرت فى كل شىء تحت الشمس . ولكن هل تسـتطيع تقوية حاجز سـفينة فى خمس دقائق ، أو فى خمسين ان شئت ؟ ومن أين كنت أستطيع الحصـول على رجال يهبطون الى مقدمة السفينة ؟ ثم الخشب .. الخشب . وبعد ذلك هل كنت تسـتطيع الاقدام على رفع المطرقة لتضرب ضربتك الأولى بعد أن رأيت حالة هذا الحاجز ؟ لا تقـل انك كنت تسـتطيع ذلك فأنت لم تره — ولم يكن ليستطيع ذلك احـد من الناس . يا للشيطان ! انك لتستطيع أن تفعل شيئا كهذا لا بدلك أن تعتقد ان لديك بعض الفرصة للنجاح ، واحد فى الألف على الأقل ، أو شبهة أو شبح فرصة . ولكنك لم تكن لتسـطيع الاعتقاد حتى فى ذلك . انك تظن أننى كاب حقـير لوقوفى هنا ، ولكن ماذا كنت تفعل أنت ؟ ماذا ؟ انك لا تستطيع أن تقول . لا احد يستطيع أن يقول . لابد أن يكون عند المرء بعض الوقت فى مثل هـذه الظروف ليستطيع أن ينظر حوله ويفكر . ماذا كنت تريد منى أن أفعل ؟ ثم أين هى الشفقة فى افزاع كل هؤلاء الناس الى حد الجنون دون أن أسـتطيع انقاذهم .... دون أن يسـتطيع أى شىء انقاذهم ؟ انظـر الى ... ان الحقيقة التى لا تقـل عن حقيقة جلوسى أمامك الآن .... »

« وكان يلتقط انفاسه بسرعة بعد كل عـدد من الكلمات ،

ويلقى بنظرات سريعة على وجهى ، كما لو كان يريد فى لهفته أن يرقب أثر كلامه على • ولم يكن يتحـدث الى ، بل كان يتحـدث أمامى فى نزاع مع شخصـية غير مرئية ، مع شريك معاد لايفترق عنه فى وجوده ، مع مالك آخر لروحه • وكانت هذه مواضيع لايمكن لمحكمة الفصل فيها • انه كان نزاعا على جوهر الحياة ، وكان نزاعا خطيرا ذا صفة دقيقة غير مرئية ، ولم يكن محتاجا الى قاض • وكان جيم يطلب فى هذا النزاع حليفا ومعينا وشريكا فى العمل • وأحسست بالخطر الذى أتعرض له وهو يحاصرنى ، ويعمينى ، ويغرينى ؛ ويهددنى عساى أن آتخذ جانبا بعينه فى هذا النزاع الذى لايمكن الفصل فيه اذا اخذ المرء فى اعتباره ان يكون عادلا فى حكمه على كل من فيه من أشباح • الأشباح ذات السمعة الحسنة التى لها حقوقها ، والأشباح ذات السمعة السيئة التى لها احتياجاتها الملحة • اننى لا أستطيع أن أفسر لكم أنتم الذين لم تروه ، ولكن تسمعون كلماته عن طريق الرواية فقط ، طبيعة شعورى المختلط حينذاك • فلقد خيل الى أنه جعلنى أفهم مالا يمكن تصوره من الأشياء • وانى لا أعلم بشىء يمكننى أن أقارنه بما كنت أشـعر به من الانزعاج من هـذا الاحسـاس • لقد جعلنى أنظر الى العادة والعرف اللذين يقبعان وراء كل صدق ، وأن انظر الى الصدق الذى لابد منه فى كل باطل • انه كان يطلب المعـونة والعطف

من كل جوانبنا فى وقت واحد : من ذلك الجانب فينا الذى يواجه ضوء الشمس دائما ، ومن جانبنا الآخر الذى يشبه وجه القمر المظلم الذى لايعرف من الأشعة الا ذلك الشعاع الرمادى المخيف الذى يسقط أحيانا على حافته . لقد أثر فى حتى ارتج على وانا اعترف بذلك . نعم اعترف بذلك . وكانت المناسبة غامضة ، أولا أهمية لها . صفوها كما تريدون. شاب مضيع ، واحد من مليون ، ولكنه فرد منا . وحدث لا أهمية له أكثر من غمر عش نمل بالماء ، ومع ذلك فان غموض موقف هذا الشاب جعلنى أعطيه من الأهمية كما لو كان أحد القلائل الذين يحتلون مكان القمة فى الجنس الانسانى ، وكما لو كان غموض الحق والصدق فى حالته من الأهمية بحيث يؤثر فى فكرة هذا الجنس عن طبيعته.

وسكت مارلو عن الكلام ليعيد الحياة الى سيجاره الذى انطفأ وكأنما قد نسى كل شىء عن قصته ، ولكنه ابتدأ ثانية دون تمهيد « انه خطئى دون شك فما كان ينبغى لى قط أن اهتم . ولكنها احدى نقط ضعفى ، أما ضعفه هو فكان من نوع آخر . فضعفى يتلخص فى أن عينى لا تستطيع التمييز بين السطحيات ، أو بين المظاهر فهى لا يعنيها (الخرج) الذى يحمله جامع الخرق ولا الكتان الثمين الذى يلبسه الرجل الآخر . نعم هذا هو ما أعنى «الرجل الآخر» ثم قال فى حزن

عابر : « لقد قابلت الكثير من الرجال وكانت مقابلتى لهم أيضا مصحوبة بقدر معين من — دعنا نسمه — التأثير العميق — كمقابلتى لهذا الشاب مثلا • وفى كل حالة من هذه الحالات كان الذى أراه هو الانسان فقط • طريقة ديمقراطية ملعونة للرؤية • وربما كانت أفضل من العمى الكامل • ولكننى أؤكد لكم أنها لم تكن فيها أية فائدة لى •• فالرجال يتوقعون أن تأخذ فى اعتبارك ملابسهم الثمينة ، ولكنى لم أستطع فى حياتى أن أبعث فى نفسى الاهتمام بمثل هذه الأشياء ، انه ضعف • انى أعلم أنه ضعف ••• ثم يأتى مساء جميل وكثير من الرجال ممن يجدون أنفسهم أكسل من معاناة الجهد الذى تتطلبه الهويست • ثم قصة •• » : وسكت ثانية • ولعله كان ينتظر كلمة تشجيع ، ولكن أحدا لم يتكلم الا مضيفه الذى شعر كأنه يؤدى واجبا ثقيلا حين قال : «انك لماهر وساحريا مارلو »

«وقال مارلو فى صوت خافت : «من ؟ أنا ؟ لا • لا انه هو الذى كان كذلك ومهما اجتهدت فى ابراز هذه القصة فى اطارها الصحيح فانى أفتقد فيها الكثير من الظلال ، الظلال الرقيقة التى يصعب تحويلها الى كلمات لا لون لها • ومما يعقد الأمور انه كان بسيطا الى أبعد الحدود • يالله • انه كان يجلس هناك مؤكدا لى اننى كما كنت أراه فى تلك اللحظة امام عينى ، فانه كان لا يخشى شيئا على الاطلاق فى هذه الدنيا ،

والغريب أنه كان يصـدق ذلك أيضـا . أننى أقول لكم ان تصرفه كان غاية فى البراءة ، ولكنه كان غير معقول فى خروجه عن كل حـد . وكنت أراقبه سرا ، كما لو كنت أشتبه فى أنه يريد أن يرفع تقديره فى عينى نفسـه على حسـابى . وكان يعتقد بكل أمانة ، ولاحظوا أنه كان يقول « بكل أمانة » أنه لايعرف موقفا يسـتعصى عليه مواجهته . فمنذ أن كان لايعلو عن الأرض الا بهذا القدر « وهو صـغير جدا » كان قد أعد نفسـه لجميع الاحتمالات التى يمكن أن يقابلـها انسان على الأرض أو الماء . واعترف فى فخار أنه يملك هـذا البعد فى النظر . فكان يحسن بنـاء الاخطار وما تقتضـيه من وسائل الدفاع ، وكان يتوقع أسوأ الظروف ، ويفعل كل ما فى وسعه لاعداد نفسه لمواجهتها . ولابد أنه كان يعيش فى عالم ملىء بالمجد ، والبطولة ، والسـعادة . هل يمكنكم تصـور ذلك ؟ سلسلة متوالية من المغامرات ومجد عظيم ، ومواكب متلاحقة فى طريق النصر ، واحساس عميق بما أوتى من الحكمة البالغة وحسن التقدير للأمور ، يتوج كل يوم فى هذه الحياة الداخلية .... وسى نفسه . وظهر فى عينيه ضـوء غريب . ومع كل كملة من كلماته كنت أفكر فيـها على ضـوء هذه الخاصـية العجيبة التى تثير الضحـك ببعدها عن كل عقل ومنطق ، كان قلبى يزداد ثقلا فى صدرى . ولما كنت لا أريد الضحك منه ،

وخوفا من أن تفلت منى ابتسامة ، فاقد اعطيت وجهى صورة صارمة . ولكن يظهر أن ذلك جعله يظهر شعوره بالضيق .

« وقلت له فى لهجة قصدت بها تهدئته : « ان غير المتوقع هو الذى يحدث دائما » . ولكن بطئى فى الفهم ، جعله يحدث صوتا ينم على احتقاره «بشو» ولعله كان يعتقد ان غير المتوقع لم يكن ليحرك فيه شعرة . فلا شىء أقل من غير المتصور كان يمكن أن يتفوق على استعداده الكامل . فلقد أخذ على حين غرة ، ولقد همس الى نفسه بلعنة على الماء والسماء والسفينة والرجال . فكل شىء كان قد غدر به ... وكان هذا السمو الوهمى فى حالته العقلية قد احتـال عليه حتى أوقعه فى حالة من الاستسـلام جعلته لايحـرك أصـبعا ، بينما كان أولئك الاخرون الذين كانوا يدركون مقتضيات الضرورة فى هـذه الحالة يرتطم أحدهم بالآخـر ، ويتصببون عرقا لزحزحة هذا القارب عن مكانه . وكان قد حـدث شىء فى اللحظة الأخيرة جعلهم عاجزين عن ذلك لأنه يظهـر انهم فى عجلتهم كانوا قد ارتكبوا خطأ لم يتبينوا طبيعته جعل قطعة الحديد التى تنزلق فى المشجب الأمامى للقـارب تقف ثابته لاتتحـرك رغم كل الجهود . وعلى هذا فانهم فقدوا البقية الباقية من عقولهم بسبب هذا الحـادث المميت . ولابد أنه كان منظرا ظريفا ، منظر تلك السفينة التى لا حراك بها وهى تطفو بهدوء فى سـكون ذلك

العـالم النائم وعلى ظهرها هؤلاء المساكين وهم يبذلون غاية الجهد فى سـباق مع الزمن لتحرير القـارب • يزحفون على أيديهم وأرجلهم ، ثم يقفون فى يأس ، وهم يشـدون تارة ؛ ويدفعون تارة أخرى ، ويصرخون فى غضب مسموم أحدهم فى وجه الآخر وهم مستعدون للقتل ، وللبكاء • لايمنع أحدهم من الوثب على رقبة الآخر غير خوف الموت الذى كان يقف وراءهم وكأنه سيد قاس يراقب فى برود وتصميم تنفيذهم للعمل الذى كلفهم به • نعم ، لاشك أنه كان منظرا طريفا • ولقد رآه جيم وكان يستطيع أن يتحدث عنه باحتقار ومرارة • ولكن تفاصـيل هذا المنظر الدقيقة لابد أنها وصلت اليه استنتاجا عن طريق حاسة سادسـة لأنه أقسـم لى أنه وقف هناك وحيدا دون ان يلقى عليهم أو على القارب نظرة واحدة ••• نعم ولا نظرة واحدة ••• وانى أصـدقه فانى أعتقد أنه كان مشغولا عن كل شىء حينئذ بمراقبة انحدار السفينة ، ذلك الخطر الذى اكتشـف وسط هذا الأمان الكامل ، ومسحورا بذلك السيف المربوط بخيط رفيع فوق رأسه المملوء بالخيال • وكان يستطيع دون أن يتغير وضع شىء أمام عينيه أن يصف لنفسه دون صعوبة خط السماء الداكن وهو يصعد فى حركة مفاجئة ، وصفحة البحر الهائلة المنبسطة وهى تنحرف بدورها مصـعدة الى أعلى ، ثم ارتفاع

مستوى الماء فى سرعة وهدوء ، وقذفه الوحشى بكل شيء ، ثم قبضـــة الهاوية ، والمقاومة التى لاتجدى ، واطباق السماء بنور نجومها على رأسه الى الابد كأنها سقف القبر ، وثورة حياته الشابة ، ثم النهاية الســـوداء .. نعم كان يستطيع أن يرى كل هذا ويصفه لنفســـه ، ثم منذا الذى كان لا يستطيع ذلك فى مثل ظروفه ؟ ثم انكم يجب أن تتذكروا أنه كان فنانا لا ينقصه شيء فى هذه الناحية خاصة . فلقد كان شيطانا تعيســـا يملك بصـــيرة نافذة سريعة فى أبعاد الغيب . وكانت المنـــاظر التى أطلعته عليها هذه البصيرة قد أحالته الى حجر بارد من اخمص قدميه الى رقبته . ولكنها تركت رأسه يعوم فى حمى شديدة الحـــرارة ترقص خلالها الافـــكار العرجاء ، العمياء الخرساء كجماعة من المكسيحين المجـــانين .. وألم أخبركم بنه اعترف أمامى بكل شيء كما لو كنت أملك القـــــدرة على أن أبرىء أو ادين ؟ وكان يحفر فى هذه الأرض الحرام عميقا — عميقا — أملا فى ابرائى لساحته . وهو ابراء لم يكن له فيه نفع ، لأن حالته كانت احدى تلك الحالات التى لا يخفف من آلامهـــــا خداع ، ولا يستطيع أن يمد اليه يد المعونة فيـــها أحد — تلك الحالات التى يظهر أن الخالق يترك فيها عبـــــده المـــذنب وشأنه فى انقاذ نفسه .

«ووقف على الجانب الأيسر من سطح السفينة ، على أبعد ما

استطاع من الكفاح عند القارب • ذلك الكفاح الذى استمر مستعرا فى ثورة من جنون القلق عليها مسحة من جو المؤامرات السرى المتسلل • وأستمر رجلا الملايو أثناء ذلك فى مكانهما لايبرحانه عند عجلة القيادة • وصوروا لأنفسكم توزيع الممثلين على ذلك المسرح فى ذلك الحدث الفريد من نوعه — وشكرا لله على ذلك — من أحداث البحار : ثلاثة فقدوا صوابهم بما كانوا يبذلونه فى ذلك الفكاح الوحشى السرى ، وثلاثة كانوا ينظرون اليهم فى سكون تام • وكان هؤلاء وهؤلاء فوق الخيمة التى تغطى مئات من الآدميين فى جهلهم العميق بما يحيق بهم وهم بمتاعبهم وأحلامهم ، وآمالهم فى يد غير مرئية تمسك بهم على حافة الفناء • ولا شك عندى أنهم كانوا فعلا على هذه الحافة • فحالة السفينة كانت لاتترك مجالا للشك أنها كانت قد أصبحت بعد هذا الحادث فى خطر مميت • ولقد كانت هناك كل المبررات التى تجعل هؤلاء الأشقياء فى جوار القارب يفقدون أعصابهم من الفزع • وانى لأصارحكم القول اننى لوكنت هناك حينذاك لما راهنت ببنس مزيف على فرصة بقاء السفينة طافية فوق الماء بعد كل ثانية من ثوانى الزمن المتوالية •••• ورغم ذلك فقد ظلت طافية • وكان مقدرا لهؤلاء الحجاج النائمين أن يتموا حجهم الى النهاية المريرة لغيرهم — وكأنما كانت ارادة الههم القدير الذى كانوا يؤمنون

برحمته ، أن يمهلهم على الأرض فترة أخرى يسبحون فيها بحمده ، ويشهدون فيها الناس على رحمته . فالتفت من عليائه وأشار للبحر أن « قف » ، فوقف البحر ... وما كنت لأستطيع أن أجد سببا معقولا لنجاتهم لولا علمي بما يمكن ان يكون للحديد القديم من بأس شديد . ان بأسه الشديد ليبلغ في بعض الأحيان ما نراه من بأس في أرواح بعض الرجال الذين نلتقي بهم بين الفينة والفينة ، وقد اصبحوا ظلالا ولكنهم رغم ذلك يشقون طريقهم في الحياة بعزم أكيد . وفي اعتقادي ان سلوك رجلي الدفة لم يكن أقل الاحداث المثيرة للعجب في هذه الدقائق العشرين . ولقد كانا ضمن جماعة الوطنيين من جميع الاجناس التي أحضرت من عدن للادلاء بشهاداتهم في المحاكمة . وكان أحدهم شابا صغيرا جدا يعاني أشد المعاناة من الخجل ، وكان يبدو بوجهه الناعم الأصفر البشوش أصغر سنا حتى من حقيقته . واني لأتذكر أن بريرلي كان قد سأله عن طريق المترجم عن الفكرة التي خطرت له في ذلك الوقت ، وأن المترجم استدار الى المحكمة بعد حديث قصير معه ، وقال كمن يشعر بأهمية الجواب : «انه يقول انه لم تخطر له أية فكرة حينذاك » .

« أما الآخر فكان له عينان تطرفان ، تقرأ فيهما الصبر ، ومنديل أزرق من القطن كلح لونه من كثرة الغسيل يربط به

خصــل شعره الرمادى الغزير ربطة رشــيقة . وكان وجهه قد انكمش الى تجاويف مخيفة ، وجلده الأســمر قد صــار أكثر دكنة بســبب شبــكة التجاعيد التى علته . وقال فى اجابة له على ســؤال مشابه انه كان يعلم أن شرا ما كان قد أصــاب السفينة خوفا من الموت . وانه لايصدق ذلك الآن فلربما كان قد تلقى أمرا ، اذان لماذا يترك الدفة ؟ وفى اجابتــه على بعض أسئلة أخرى رمى بكتفيه النحيلتين الى الوراء ، وقال انه لم يخطر بباله قط حينذاك أن الرجال البيض كانوا على وشك ترك السفينة خوفا من الموت . وأنه لايصدق ذلك الآن فلربما كان هناك أسباب سرية لذلك . ثم حرك ذقنه مرات بطريقة العارفين ببواطن الأمور . نعم ، أسباب سرية . انه كان رجــلا حنكته التجــارب ، وانه كان يريد ذلك « التوان (*) » الأبيض أن يعلم ، وأشار الى بريرلى الذى لم يرفع رأسه ، أنه حصل على العلم بكثــير من الأشياء أثنــاء السنين الطويلة التى خدم فيها الرجال البيض فى البحر ... ثم بدأ فجأة ، وهو ينتفض فى اضطراب ظاهر ، يصب فى أذاننا وقد ألقينا اليه سمعنا ونحن مأخوذون ، كثيرا من الأسماء الغريبة الوقع — أسماء قباطنة ماتوا وذهبوا ، وأسماء سفن محلية امحت ذكراها ، وأسماء نعرفها وان كانت قد مسخت عند النطق بها كما لو كانت يد الزمان الخرساء تنم

(*) توان معناها « لورد » بلغة الملايو.

فعلت فيها فعلها على مر السنين ... وأخيرا أسكتوه فخيم على القاعة سكون شامل . واستمر دقيقة على الأقل لا تقطعه حركة ولاصوت ، ثم تحول بعدذلك على مهل الى همس عميق . وكانت هذه الشهادة هى الحدث المثير فى اليوم الثانى للمحاكمة . وقد أثرت فى جميع الحاضرين وفى كل الناس ماعدا جيم الذى كان يجلس مغموما على حافة المقعد الخشبى الطويل فى مقدمة الصفوف ، ولم يرفع نظره مرة واحدة الى ذلك الشاهد العجيب الذى دمغه بشهادته دمغة الهالكين والذى يظهر أنه كان لديه نظرية غامضة للدفاع عنه .

«وعلى هذا فقد لزم هذان البحاران الوطنيان مكانهما عند دفة السفينة حتى حين وقفت عن السير فى أى اتجاه وحيث كان الموت سيجدهما لو كان هذا هو حكم القدر . ولم يوجه البيض نظرة اليهما بل على الأرجح أنهم كانوا قد نسوا وجودهما تماما . ومن المؤكد أن جيم كان لا يتذكر وجودهما على الاطلاق — فالذى يتذكره كان أنه لايستطيع أن يفعل شيئا — وخاصة الآن وقد صار وحيدا فلم يكن هناك مايستطيع أن يفعله سوى أن يغرق مع السفينة ولا فائدة من احداث ضجة حول ذلك . لافائدة ؟ وظل واقفا ينتظر فى سكون وقد ثبتت لديه فكرة لها علاقة ما بسبب من أسباب البطولة العاقلة التى تحتفظ بالسر وتتجنب الضجة ... وجرى المهندس

الأول اليه عبر السطح وشده من كمه قائلا : «تعال لمعونتنا . تعال بحق السماء لمعونتنا » . ثم جرى ثانية الى القارب على أطراف مشطيه ثم رجع ثانية اليه ليشده من كمه ويرجوه ويلعنه فى نفس الوقت .

وقال لى جيم بوحشية : « انى أعتقد أنه كان سيقبل يدى، وفى اللحظة التالية كان يرغى ويزبد ويهمس فى وجهى : « ان أسعفنى الوقت — فانى أريد ان أحطم لى جمجمتك» . فدفعته بعيدا ، واذا به يحيط رقبتى بيديه فجأة عليه اللعنة فضربته ، وضربته ثانية وأنا لا أنظر اليهواذا به يولول ويقول : « ألا تريد أن تنقذ حياتك ، أيها الجبان الدنىء » لقد سمانى جبانا .. جبانا دنيئا .. ها .. ها .. ها .. ها ..... لقد سمانى ... ها .. ها ..ها .. ها . »

« وارتمى الى الخلف على مقعده ، وأخذ يهتز من الضحك ولم أسمع فى حياتى شيئا مريرا كهذه الضوضاء التى كان لها وقع الوباء على جو المرح الذى كانت تملؤه الأحاديث عن الحمير والأهرام وأسواق الشرق وغير ذلك . واختفت الأصوات فى طول الشرفة ذات الضوء الخافت ، واستدارت الوجوه وكأنها بقع صفراء نحونا فى حركة واحدة . وخيم على الشرفة سكون عميق الى درجة أن صوت ملعقة صغيرة

للشاى وهى تسقط على الأرض دوى فى أسماعنا كأنه صرخة ضحية صغيرة .

«وعاتبته قائلا : « انه لا يجوز لك أن تضحك على هذه الصورة وهؤلاء الناس جميعا حولنا . انهم لا يعتبرون ذلك شيئا جميلا كما تعلم »

«ولم يبد ما يدل على أنه سمعنى فى أول الأمر ، ولكنه بعد قليل وكان يوجه الى نظرة أخطأتنى تماما وكان يبدو عليه أنه يوجهها الى رؤيا غير منظورة يريد أن يتفحصها ، همس دون اكتراث قائلا : « آوه . انهم سيظنون اننى سكران » .

« وبعد ذلك كنتم ستظنون وأنتم تنظرون اليه انه لن ينطق بحرف بعد ذلك . ولكن لاخوف ، فقد كان عاجزا عن التوقف الآن عن سرد قصته ، كعجزه عن التوقف عن الحياة لو كان يستطيع ذلك بغرض من ارادته » .

الفصل التاسع

وكانت الكلمات التى ابتدأ بها حديثه ثانية هى «وكنت أقول لنفسى «اغرقى عليك اللعنة — اغرقى » وكان يريد أن ينتهى كل ذلك . فقد ترك وحيدا فى قسوة ، فصاغ فى رأسه هذه الكلمات التى كان يخاطب بها السفينة مستنزلا عليها اللعنات . بينما كان فى الوقت نفسه ، يستمتع بمشاهدة مناظر لكوميديا رخيصة ، وهذا هو الاسم المناسب لها فى تقديرى .

وكانوا لا يزالون فى كفاح مع قطعة الحديد عند القارب وقال القبطان : « انزلو تحت القارب وحاولوا أن ترفعوه » . فلم يبد الآخرون حماسة لهذه الفكرة . وأنتم طبعا تفهمون أن وضع الانسان سطيحا بين حافة القارب والسفينة لم يكن الوضع الذى يتمناه الانسان لنفسه اذا غرقت السفينة فجأة . وقال المهندس القصير فى صوته الرفيع : «ولماذا لا تنزل أنت ؟ وأنت أقوانا » . فثأثأ القبطان فى يأس قائلا له : «عليك اللعنة ، ألا ترى أن ضخامة جسمى تعوقنى عن ذلك » وكان موقفهم مثيرا للضحك الى حد يبكى الملائكة . ووقفوا لحظة دون عملى ، جرى بعدها المهندس الأول فجأة الى جيم وهو

يقول : «تعال وساعدنا يا رجل ! أبلغ منك الجنون أن تترك فرصتك للنجاة ؟ تعال .. هيا الى مساعدتنا . انظر الى هناك ... انظر »

ونظر جيم أخيرا الى حيث كان يشير الرجل الآخر بالحاح المجانين . فرأى عاصفة سوداء ساكنة قد أظلمت حوالى ثلث السماء . وأنتم تعرفون كيف تحدث هذه العواصف هناك فى هذا الوقت من العام . ففى أول الامر لا ترون الا أعتاما فى هذا الوقت من العام . ففى أول الامر لا ترون الا اعتاما كالحائط يحجب الرؤية . وبعد ذلك يتطاير ستار من الدخان تتناثر فيه أضواء بيضاء باهتة من الجنوب الغربى تبتلع النجوم ابتلاعا فى مجراتها . ويطير ظله فوق الماء مازجا البحر والسماء فى هاوية من لظلام . وبعد ذلك يخيم السكون ، فلا رعد ولا ريح ولا صوت ولا حتى شرارة واحدة من البرق . وبعد ذلك يبدو فى العالم الفسيح المعتم قوس أزرق شاحب ، وتندفع موجة أو موجتان كأنهما اختلاف فى مستويات الظلام . ثم ، وفجأة يضرب الريح والمطر ضربتهما معا بصورة عنيفة كأنهما يفجران طريقهما خلال جسم صلب .... وكان سحاب من تلك السحب قد تسلل الى هناك فى غفلة منهم . وكانوا قد رأوه الآن لتوهم . ومما لاشك فيه ، أنهم كانوا غاية فى الصواب حين ظنوا أنه ان كانت هناك فرصة أمام السفينة لكى تظل

على سطح الماء بضع دقائق أخرى ، والبحر فى هذا السكون الشامل ، فلا شك ان أى اضطراب للبحر ستكون نتيجته أن تهبط السفينة توا الى القاع ، وأن الانحناءة الأولى للسفينة أمام الموجة التى تسبق هبوب العاصفة ، ستكون أيضا هى انحناءتها الأخيرة ، وأن سقوطها فى هذه الانحناءة سيتحول الى غطسة طويلة فى رحلة سفلية تنتهى بها الى القاع . وكانت هذه الفكرة هى سبب تلك القفزات البهلوانية من تأثير الفزع الذى حل بهم وهذه الحركات المثيرة للضحك التى كانت تنم على بعضهم الشديد للموت . واستأنف جيم حديثه فى مثابرة مغمومة قائلا : «وكانت سوداء ، وقد تسللت السحابة الجهنمية من ورائنا ، ولعلنى كنت لا أزال حتى هذه اللحظة أشعر ببقية من أمل فى النجاة فى منطقة اللاشعور ، فلست أدرى . ولكن ذلك كان قد قضى عليه الآن على أية حال . ولقد أفقدنى عقلى أن أرى نفسى فى هذا الوضع ، وتملكنى الغضب كما لو كنت قد وقعت فى فخ . نعم ، لقد كان فخا ! وكان الليل حارا أيضا كما أذكر ولم تكن هناك نسمة من الهواء .

ولقد تذكر حرارة الجو بدرجة من الوضوح جعلته وهو يلتقط أنفاسه السريعة على مقعده يبدو أمام عينى وكأنه يتصبب عرقا ويوشك أن يختنق . ولا شك أن ذلك كان قد أفقده عقله ، كان قد طرحه أرضا للمرة الثانية ان صح هذا التعبير .

ولكنه جعله فى الوقت نفسه يتذكر الغرض الأصلى الذى جرى من أجله مهرولاً الى السطح لينساه تماما بعد حين ، فلقد كان ينوى كما ذكرنا أن يقطع حبال القوارب التى تربطهـا بالسفينة . وعلى هـذا فقد أخرج مطواه وأعملـها فى هذه الحبال تقطيعا ، كما لو كان لا يرى شيئا ، ولايسمع ولايعرف أن على السطح أحدا سواه . فاعتقدوا أنه قد جن وفقد عقله وألا أمل فيه . ولكن لم يجرؤ منهم أحد على مراجعته فى هذا السفه الذى كانوا يعتبرونه مضيعة للوقت . ورجع جيم بعد أن انتهى من عمله لى نفس المكان الذى كان يقف فيه من قبـل . فوجد القبطان هناك ورآه يحاول أن يضمه اليـه ليهمس بالقرب من رأسه — فى صوت حاد — كأنما يريد أن يقضم أذنه ، قائلا :

« أيها الغبى الأحمق ! هل تظن أنه سيكون لك شبح فرصة حين يكون كل هـؤلاء الوحـوش فى المـاء ؟ ألا تعلم أنهم سيطمون لك رأسك من هذه القوارب ؟ »

وأخذ يعتصر يديه فى يأس قريبـا من مـرفق جيم الذى تجاهله . وظل القبطان ينقل قدميه ، فى عصبية ظاهرة فى مكان واحد ، ثم قال فى كلمات ممضـوغة « مطرقة . مطرقة . يا الهى . أحضروا مطرقة . » فأفلت من المهندس القصير صوت كبكاء الأطفال ، ولكنه أظهر رغما عن ذراعه المكسورة وكل ما

كان يحس به أنه أقل هذه الجماعة احساسا بالجبن ، وأمكنه فعلا أن يجمع ما يكفى من شتات شجاعته ليجرى برسالته الى حجرة الآلات . ومن العدل أن نقرر أن ذلك لم يكن بالعمل الهين . ولقد أخبرنى جيم أنه كان يطلق نظرات يائسة كما لو كان محاصرا ، وأن ولولة ضعيفة أفلتت من فمه قبل أن ينطلق لتنفيذ مهمته . ورجع بالمطرقة فى الحال وهو يكاد يمشى على يديه ورجليه ، ودون أن يعطى لنفسه مهلة يلتقط فيها أنفاسه ، أخذ يضرب قطعة الحديد بالمطرقة بكل ما فيه من قوة . وترك الآخرون جيم فى الحال وجروا لمعونته . وسمع جيم صوت ضربات المطرقة ، وصوت قطعة الحديد وهى تتزحزح عن مكانها ساقطة على الارض . وأصبح القارب الآن منفصلا عن السفينة . وفى هذه اللحظة فقط اتجه بنظره اليهم . نعم . فى هذه اللحظة فقط . ولكنه ظل على نفس البعد منهم . على نفس البعد . انه لم يكن بينه وبين هؤلاء الرجال الذين يحملون المطرقة شىء مشترك . لم يكن هناك ما يجمع بينهم على الاطلاق . ويغلب على ظنى أنه كان يعتقد أنه كان بينه وبينهم ما لا يمكن قطعه من أجواز الفضاء ، ولا يمكن التغلب عليه من العوائق والعقبات ، بل ان الارض قد انشقت بينه وبينهم عن هوة سحيقة ليس لها من قاع . نعم ،

لقد كان يفصله عنهم ذلك البعد الشاسع .. وهـــو عرض السفينة .

وتسمرت قدماه فى ذلك المكان البعيد ، كما تسمرت عيناه على جماعتهم التى لم يكن يتبينها جيدا فى الظلام وهم ينحنون معا ، ويتمايلون فى أشكال غريبة بسبب ذلك العـــذاب من الخوف الذى كان يجمع بينهم . ولأن « باتنا » لم يكن لهـا غرفة للخرائط على سطح القيادة ، فقد استعاضـوا عن ذلك بمصباح يدوى معلق بحبل مربوط فى عرق أفقى من الخشب فوق مائدة صـغيرة على السطح . وكان هذا المصـباح يلقى ضوءه على أكتافهم وظهورهم المقوسة التى كانت تدفع وتعلو وتهبط فى كفاحها مع القارب . فكانوا يدفعون القـارب من مقدمته بكل مافيهم من قوة الى الخارج نحو ظلام الليـــل ، وأخذوا يدفعون ويدفعون دون أن يلقوا وراءهم اليه بنظـرة واحدة . لأنهم فعلا كانوا قد أسقطوه من حسـابهم لأنه كان على بعد شاسع منهم . وكان بينه وبينهم من الفواصل مالا أمل يرجى معه ، فى كلمة استرضاء ، أو نظرة أو اشارة . ولم يكن لديهم الفراغ لينظروا وراءهم الى بطولته السلبية أو ليهتموا باحساسهم بالألم من امتناعه عن معاونتهم . وكان القارب ثقيلا ، وكانوا يدفعون مقدمته بكل قوتهم دون أن يحتفظـوا بنفس واحد من أنفاسهم يبذلونه فى كلمة تشـجيع لأنفسهم ، ولكن

فوضى الفزع التى كانت قد شتتت كل ما كان عندهم من ضبط النفس كما تنشتت ذرات التبن أمام الريح ، كانت قد جمعت جهودهم اليائسة فى صور عجيبة من المهازل كانت جديرة — لعمرى — بفرق المهرجين فى السيرك . فكانوا يدفعون بأيديهم وكانوا يدفعون برؤوسهم ، وكانوا يدفعون حفظا للحياة الغالية بكل مافى أجسادهم من ثقل ، وكل ما فى أرواحهم من قوة . حتى اذا مانجحوا فى زحزحة مقدمة القارب عن الرافعة التى تربطه بالسفينة ، توقفوا عن العمل وتزاحموا دفعة واحدة على الركوب فيه . وكانت نتيجة ذلك أن ينقلب القارب بهم مرة واحدة الى الداخل مرجعا اياهم الى حيث كانوا ، وقد سقط بعضهم فوق بعض وعجزوا عن الحركة . ثم يقفون برهة وهم حائرون ، يتبادلون خلالها فى همس عنيف أقذع مايخطر على بالهم من الشتائم ، ثم يكررون المهزلة . ولقد فعلوا ذلك مرات . وكان جيم يصف ذلك لى ، وهو غارق فى التفكير ، وكأنما يملأ قلبه الأسى . ولم تفته حركة واحدة من حركات هذه المهزلة . وقال لى دون تأكيد على مقاطع الكلمات ، وقد وجه الى نظرة فاحصة حزينة : « لقد كنت أكرههم . لقد كنت أمقتهم بكل ما فى من قوة ، وكان يجب على أن أراقب كل حركاتهم هذه . فهل قدر على انسان من قبل أن يتعرض لمثل هذه التجربة المخجلة ؟ » . ثم أخذ رأسه

لحظة بين يديه وكأنه رجل آخرجه غضب ، لايمكن التعبير عنه عن صوابه • وكانت هذه أشياء لايستطيع أن يفسرها للمحكمة ولا حتى لى أنا • ولكنى ماكنت أعتبر نفسى جديرا بالسماع لاعترافاته لو لم أكن قادرا فى بعض الاحيان على تفهم معنى فترات صمته بين الكلمات • فالذى كان يغضبه حينذاك هو أنه رأى فى حركات أولئك الرجال فى هذا الهجوم الذى لم يكن يستطيع رده على شجاعته وقوة احتماله نية ساخرة لانتقام حاقد شرير ، وعنصرا من عناصر المهازل الرخيصة ، فى وقت يتعرض فيه لهذه المحنة ، وصورا مضحكة دنيئة المستوى تظهر أمامه وقت اقترابه من مصيره المر ، الذى كان واحدا من اثنين : الموت أو العار •

« وأدلى لى بحقائق لم أنسها ، وان كنت لا أستطيع تذكر كلماته بعينها بعد مرور هذا الزمن الطويل • ولكنى أتذكر فقط ، أنه حاول بطريقة تدعو الى الاعجاب ، أن ينقل الى صورة من الحقد الذى كان يملأ عليه عقله ، فيما كان يرويه على من الأحداث دون تنميق • فقال لى انه كان قد أغمض عينيه مرتين ، وهو واثق أنها كانت النهاية فعلا ، ولكنه وجد أنه كان عليه أن يفتحهما مرتين أيضا • وفى كل مرة كان يلحظ زيادة فى الاعتام فى هذا السكون الشامل • وكان ظل السحابة الصامتة يقع الآن على السفينة من السمت • وبدا وكأنما كان

قد أسكت كل صوت فى حياتها المزدحمة . فكان لا يستطيع الآن أن يسمع الأصوات تحت الخيمة . وقال لى انه فى كل مرة كان يغلق فيها عينيه كانت تقفز الى رأسه فكرة تصور هذه الأجسام المزدحمة راقدة لاستقبال الموت . وكان يرى ذلك أمامه واضحا كضوء النهار . وحين كان يفتح عينيه كان لايرى الا كفاح هؤلاء الأربعة الرجال الجنونى مع القارب العتيد : «فكانوا يسقطون أمامه مرة بعد أخرى ، ثم ينهضون وكل منهم يلعن الآخر ، وفجأة يقومون بهجوم جماعى آخر عليه . وكان ذلك يكفيك لتموت من الضحك» . وكان يعلق على ذلك وعيناه تنظران الى أسفل ، ثم رفعهما لحظة الى وجهى مع ابتسامة حزينة وقال : «ان ذلك يجب أن يجعل حياتى مرحة بحق السماء ! لأننى سأظل أرى هذا المنظر ، العديد من المرات قبل أن أموت» وسقطت عيناه الى الأرض ثانية وظل يكرر :

«سأسمع ذلك وأراه .. سأسمع ذلك وأراه »لعدة مرات بينها فترات طويلة كان يملؤها بنظرات ليس فيها الا الفراغ . ثم انتبه الى نفسه .

وقال «لقد عقدت العزم حينئذ على أن أترك عينى مغمضتين ولكننى لم أستطع ، لم أستطع ولايهمنى من يعرف ذلك . فدعهم يتعرضون لمثل هذه التجربة قبل أن يتكلموا ، نعم دعهم يتعرضون أولا ، وليتصرفوا بعد ذلك تصرفا أحسن ان أمكنهم .

فهـذا كل ما فى الأمـر • وفى المرة الثانية أحسسـت بعينى تتفتحان ، ثم بفمى ينفتح أيضا فى نفس الوقت • فلقد شعرت بالسفينة تتحرك • ولم تتعد فى حركتها أن خفضت مقدمتها ، ثم رفعتها برفق وبطء !•• فى بطء شديد وبمقدار ضـئيل جدا • ولم يكن قد حدث لها ذلك منذ أيام وكانت السـحابة قد سبقتنا الى الأمام وبدت هده الموجة الأولى وكأنها تسـير فى بحر من الرصاص • فلم تكن هناك حياة فى هذه الحركة • ولكنها رغم ذلك جعلتنى أحس بأن شيئا مايدور فى رأسى • وماذا كنت تفعل أنت فى هذه الظروف ؟ أنت واثق من نفسك، أليس كذلك ؟ ماذا كنت تفعل لو أحسست الآن فى هـذه الدقيقة أن هذه الغرفة تتحرك ولو قليلا تحت مقعـدك • أما كنت تقفز ؟ نعم بحق السماء •• لاشك أنك كنت ستقفز قفزة واحدة من هذا المكان الذى تجلس فيه تهبط بك فى هـذه المجموعة من الأشجار هناك » •

وفرد ذراعه الى الخـارج نحو ظلام الليل أمام الحاجـز الحجرى • فلزمت الصمت • ونظر الى بنظرة غاية فى الثبات• وعرفت أن الوضع لم يكن يحتمل غير تفسير واحـد : انه كان يهددنى الآن ، وعلى ذلك فقد وجب عـلى أن آخـذ حذرى ، فلا تفلت منى كلمة ولا اشارة تكشف عن خبـايا نفسى بصورة يشتم منها اننى قد قطعت برأى فى هذا النزاع

النفسانى • ولم أكن أجد فى نفسى الميـــل الى مخـــاطرة من ذلك الطراز • ولاتنسوا أنه كان أمامى طـول الوقت وأنه كان شديد الشبه بنا الى درجة تجعله شديد الخطر فى قدرته على التأثير • واذا كنتم تريدون حقا أن تعلموا مدى خطر هذا التأثير ، فانه لامانع عندى أن أخبركم أننى قدرت بنظرةسريعة مدى البعد بينى وبين هذه البقعة التى تميزت بلونها الشـديد السواد وسط الأرض المغطاة بالخضرة أمام الشرفة • فوجدت أنه قد بالغ فى قدرتى على القفز وقدرت أننى كنت سأسقط فى مكان أقرب الى الشرفة من تلك البقعة بعـــدد ضخم من الأقدام ،وكان هذا هو الشىء الوحيد الذى أستطيع أن أقول أننى كنت واثقا منه فى كل هذا الموضوع •

وكانت هذه هى النهاية كما ظن حينئذ ، ولكنه لميتحرك • وتسمرت قدماه على خشب السطح وان ظلت أفكاره طليقـــة تتنقل فى جوانب رأسه • وكانت هذه هى نفس اللحظة أيضـا التى رأى فيها أحد الرجال حول القارب يخطـــو الى الوراء فجأة ويرفع ذراعيه كمن يريد أن يقبض على الريح ، ثم يترنح ويسقط على الأرض • ولكنه فى الحقيقة لميسقط تماما بـل انزلق فى رفق الى وضع الجلوس وأكتافه مسـندة الى جانب فتحة الضوء لغرفة الآلات • وقال جيم : «كان هذا هو الرجل الذى يقوم بأعمال النظافة ، وكان يعمل كمهندس ثالث ،وكان

له وجه شاحب تبدو عليه دلائل المرض وشارب كالخرقة أشعث الشعر» •

وقلت «لقد كان ميتا أليس كذلك» وكنا قد سمعنا شيئا من هذا القبيل فى المحكمة • فقال جيم بعـــدم اكتراث مشوب بشىء من الحزن : «هكذا يقولون ، ولكننى لم أكن أعلم ذلك بالطبع عندئذ • ولربما كان السبب هو ضعف القلب ، فلقـد كان الرجل يشكو من كونه ليس فى تمام صحته قبـل ذلك ببعض الوقت • ولربما كان اضطراب أعصابه أو المجهـــود الشاق الذى قام به هو الذى عجل بموته • ولايعـلم السبب الحقيقى لذلك غير الشـيطان ها ها ها ولقد كان من اليسـير على أن أرى انه لميكن يرغب فى الموت أيضا • غريب : أليس كذلك ؟ انى أطلب منك أن تطلق الرصاص على ان لميكونوا قد احتالوا على هذا المسكين حتى قتل نفسه : نعم لقـد كان احتيالا لا أكثر ولا أقل • فبحق السماء ! لو كان قداكتفى بالوقوف الى جانبهم ويداه فى جيوبه وهو يلعنهم !••»

ونهض جيم يهز قبضته محدقا فى ثم جلس ثانية • وهمست أنا اليه «فرصة ضاعت أليس كذلك»

وقال «لماذا لاتضحك ؟ انها لنكتة موطنهـــا جهنم • قلب ضعيف ! ••• لقد كنت أتمنى لوكان قلبى ضعيفا أيضا » •

فضايقتنى هذه الكلمة . وقلت له بسخرية عميقة لجـذور «كنت تتمنى ذلك ؟» فقال «نعم ألا تستطيع أن تفهم ؟» فقلت له بغضب : «اننى لا أعلم ماذا أيضا كنت تتمنى .» فنظر الى نظرة تنم على الجهل التام بما أعنى . فلقد أخطأه السـهم ثانية ، ولم يكن من ذلك الطراز من الرجال الذى يعنى بالسهام الطائشة . ولعمرى ، فقد كان لايدرى شيئا عن المعانى الخبيئة فى الكلام وعلى هذا فقد كان صيدا حراما . ولقـد شعرت بغبطة وأنا أرى سـهمى يطيش ، ولأنه لم يسمع حتى شـدة القوس .

ومن الطبيعى أنه لم يكن يعلم حينئذ أن الرجـل ميت . وكانت الدقيقة التالية ، وهى آخر دقيقة له على السفينة مزدحمة بشتى الأحداث والأحاسيس التى كانت ترتطم به كما يرتطم موج البحر بالصخور ، وانى أستعمل هذا التشبيه هنـا عن قصد لأن روايته للحوادث لم تترك لى مفرا من الاعتقاد بأنه كان واقعا خلالهـا تحت تأثير وهم عجيب بأن موقفه ازاءها جميعا ، لم يكن الا موقفا سلبيا ، كما لو كان قد وقف ساكنا لايتحرك طوال هذه المدة ، وترك نفسه مستسلما لتلك القوى السفلية النابعة اما الجحيم ، والتى كانت قد اختارته فريسـة لمزاحها العملى ، لتلعب به كما تشاء ... فكان أول ما وصل اليه من تلك القوى هو صوت الحديد وهو يصطك ويطحن بعضه

بعضا حين نجحوا أخيرا فى تحريك روافع القارب الى الخارج وكان صوتا نشازا شعر به وكأنه ينفذ خلال أقدامه ويصعد مخترقا عموده الفقرى الى قمة رأسه ... ثم العاصفة وقد صارت الآن قريبة منه ،وجاءت موجة أثقل من الأولى ورفعت هيكل السفينة بطريقة تبعث على الفزع كادت توقف تنفسه ، بينما كانت صرخات الرعب تنفذ الى قلبه وعقله حادة كأنها الخناجر «دعوا القارب يهبط ! دعوه يهبط ، دعوه يهبط بحق السماء فالسفينة تغوص» ثم بعد ذلك انفلتت حبال القارب وهى تكر بسرعة من بكر الروافع ، وتبع ذلك أصوات الكثيرين تحت الخيمة حين هبوا مذعورين من نومهم . وقال « ان صيحات هؤلاء الاشقياء وهم يهربون كانت كافية لايقاظ الموتى» وبعد صدمة القارب بالماء وهو يسقط اليه سقطا ، وصلت الى مسامعه ضوضاء أقدامهم وهم يدوسون، ويسقطون أحدهم على الاخر ، ممزوجة بصيحاتهم الحائرة وهم يقولون «افصل القارب عن الخطاف ! افصل القارب ! حرك القارب حركوا القارب ان كنتم تريدون النجاة ؟ هذه هى العاصفة قد أدركتنا : ... » وسمع عاليا فوق رأسه صوت الريح الخافت وهو يتجمع ، وسمع تحت أقدامه صرخة ألم . وسمع رجلا كاد يفقد صوته الى جانب السفينة وهو يصب لعناته على خطاف أصاب رأسه . وأخذت السفينة تطن من

مقدمتها الى مؤخرتها كخلية من النحل أصابها الهياج ... ،
ثم بصوت هادىء وهو يقص على كل ذلك ، وكان الآن فى غاية الهدوء فى جلسته ووجهه وصـــوته ، قال لى دون أدنى تحذير سابق : « وتعثرت قدماى فوق رجليه » .

وكان هذا أول ماسمعت عن أنه قد تحرك على الاطـلاق ولهذا فقد أفلت منى صوت يدل على الدهشة واذن فقد حدث ماجعله يتحرك أخيرا ، أما عن متى حدثت هذه الحركة ، وأما عن السبب الذى زحزحه عن ركنه المكين ، فانه لميكن يعـلم عن ذلك أكثر مما تعلم الشجرة عن الريح التى اقتلعتهـــا من جذورها ...

وكان كل ذلك قد انتقل اليه ، فالأصوات والمناظر ورجــلا الرجل الميت كانت هى التى اعترضت طريقه ! بحق السـماء ؟ وكان كل هذا المزاح الصادر من الجحيم قد دخل الى فمـــه وصار غصة فى حلقه ولكنه ــ خذوا حذركم ــ لميكن مستعدا للاعتراف بأن حركة ارادية أو غير ارادية قد صدرت من مريئه لابتلاع هذه الغصة . ولقد كان من العجيب أنه كان يستطيع أن يبلغ هذا المدى فى قدرته على عكس خيالاته وأوهامه على سامعيه . فكنت وأنا أصغى اليه أحس بأنى أستمع الى قصة من السحر الأسود فى احدى تجاربه على جثة هامدة .

واستمر فى حديثه قائلا : «وكان قد تحول بعد تعثرى به فى

رفق الى وضع جانبى . وكان هذا هو آخر مارأيت على سطح السفينة ، ولم ألق بالا الى مافعل . فقد خيل الى حينئذ انه كان يستجمع قواه لينهض ، وتوقعت أن أراه يجرى أمامى ويقفز فوق الحاجز ثم يسقط الى القارب وراء الاخرين . وكنت لا أزال أسمعهم وهم يتخبطون هناك فى الظلام، وكان هناك صوت وصل الى مسامعى كما لو كان خارجا من انبوبة طويلة مناديا «جورج» . ثم سمعت ثلاثة أصوات تصرخ فى وقت واحد . ولكنها وصلت الى فرادى فى تتابع سريع . وكان أولها مأمأة ، وثانيها صرخة ، وثالثها نباح ... أف !»

وارتعش قليلا ، ثم راقبته وهو ينهض ببطء وكأنما كانت تجذبه من شعره يد ثابتة رافعة اياه من على مقعده ، رافعة اياه فى بطء شديد الى أن انتصب فى كامل طوله وحين التقت ركبتاه وهما مشدودتان ،تركته اليد فترنح قليلا على قدميه . وكان هناك ايحاء بسكون مخيف فى وجهه وفى حركاته وحتى فى صوته حين قال : «لقد صرخوا » وبدون أن أدرى طرطقت أذنى لسماع شبح تلك الصرخة التى كانت ستصل الى من خلال تأثير السكون الكاذب . وقال وهو يحدجنى بنظرة مخيفة خالية من التعبير سمرتنى الى خلف مقعدى ، « وكان هناك ثمانمائة من الأنفس على هذه السفينة ..ثمانمائة من الأحياء ، وهم ينادون على الميت الوحيد فيها كى ينزل الى القارب وينقذ

نفسه • وسمعتهم وهم يصيحون « قفز ياجورج ! قفز ! اقفز ! وكنت أقف ويدى على رافعة القارب ، وكنت هادئا جدا • وكان الظلام قد صار حالكا • وكنت لا أستطيع أن أرى السماء ولا البحر وكنت أسمع القارب الى جانب السفينة وهو يرتطم بالماء • ولبعض الوقت لم يكن هناك صوت آخر فى هذه الناحية، ولكن السفينة نفسها تحتى كانت مليئة بالأصوات • وفجأة صرخ القبطان : «يا الهى ! العاصفة ! هيا حركوا القارب ؟» وعند أول صوت للمطر وأول هبة للريح صرخوا جميعا «اقفز ياجورج» ، فسنتلقاك : اقفز !» وبدأت السفينة تغوص فى بطء وانهمر عليها المطر كأنه بحر قد فاض وطارت قبعتى من فوق رأسى وغصت الأنفاس فى حلقى • وسمعت ، وكأننى على قمة برج عال ، صيحة أخرى طويلة «جو •• و••• •رج • اقفز !» وكانت السفينة تغوص تحت أقدامى تسبقها مقدمتها وهى تهبط الى أسفل ••»

ورفع يده فى تأن الى وجهه ، وأتى بحركات كأنما كان يلتقط شيئا بأصابعه ، وكأنما كان على وجهه بعض خيوط العنكبوت وهى تضايقه ، وبعد قليل نظر الى راحة يده مدة تزيد على نصف ثانية وصاح فجأة :

«وقفزت •••» ثم أوقف نفسه وخفض بصره ••• وأضاف «على مايظهر» •

واتجه الى بعينيه الزرقاوين الصافيتين وفيهما نظرة تدعو الى الرثاء وكنت وأنا أنظر اليه وهو يقف أمامى حائرا متألما أشعر بالأسى لحكمتى التى استسلمت للحيرة . وكنت أشعر أيضا بالعطف العميق وبشىء من التسلية فى موقفى الذى كان موقف رجل كهل حنكته التجارب يجد نفسه عاجزا تماما أمام مصيبة لها كل سمات الطفولة . وقلت بصوت هامس : «يظهر أن ذلك قد حدث» .

وقال لى بسرعة وهو يحاول أن يفسر موقفه ، «اننى لم أعرف شيئا عن هذه القفزة حتى نظرت الى أعلى» ! وظننت أن ذلك ممكن أيضا . فلقد كان على أن أستمع اليه كما لو كان ولدا صغيرا صادفته بعض المتاعب . فهو لم يكن يعلم أن ذلك كان قد حدث بطريقة ما . وهو بالطبع لن يتكرر ... وكان قد هبط بجزء من جسده على أحدهم ثم سقط عبر القارب . وكان قد أحس بأن كل ضلوعه فى الجانب الأيسر قد كسرت ، ثم انقلب على ظهره ورأى السفينة التى هرب منها شامخة فوق رأسه ، وكان لا يستطيع أن يتبينها جيدا فى الظلام ولكنه رأى النور الأحمر فى جانبها وهو يظهر بحجم كبير فى المطر ، كأنه نار على سفح تل ، ينظر اليها الانسان من خلال الضباب . « كانت تبدو أعلى من الحائط ، كأنها صخرة ضخمة معلقة فوق القارب .. وتمنيت عند ذلك لو أموت . وكان الرجوع قد أصبح محالا الآن . فكأنما كنت قد قفزت الى بئر أو الى حفرة عميقة ليس لها قرار .. »

الفصل العاشر

وشبك جيم أصابع يديه معا ثم نزعها من بعضها البعض. ومن الطبيعى أنه كان صادقا حين قال انه كان قد قفز الى حفرة عميقة ليس لها قرار . كان قد سقط من علو لا أمل فى ارتقائه من جديد .. وكان القارب الآن قد ترك مقدمة السفينة وراءه وهو يسير الى الأمام . وكانت الدنيا ظلاما الى درجة أنه كان لا يستطيع أحدهم أن يرى الآخر . وفوق ذلك فقد أعماهم المطر وكاد ان يغرقهم . وقال لى جيم انه شعر حينئذ وكأن سيلا يجرفه أمامه الى جوف مغارة . وكانوا قد أداروا ظهورهم للعاصفة . ووضع القبطان مجدافا فوق مؤخرة القارب ليحتفظ به أمام العاصفة . ولمدة دقيقتين أو ثلاث أحسوا بنهاية العالم وقد أدركتهم فى صورة ذلك الطوفان وسط الظلام الحالك . وكان ينبعث من البحر صفير « كصفير البخار المنبعث من عشرين ألف ابريق على النار » ، وكان ذلك تشبيهه لا تشبيهى . ولكننى أظن أن الريح كانت قد سكنت بعد هبتها الأولى . ولقد اعترف جيم فى المحاكمة ان حالة البحر كانت هادئة فى تلك الليلة وأنه لم يكن فيه موج مرتفع .. وكان يجلس منكورا فى مقدمة القارب وخطر له أن يسترق نظرة

الى ما وراءه . فرأى على قمة الصارى ضوءا أصفر عاليا غير واضح وكأنه نجم أوشك أن يختفى وقال : « لقـد أرعبنى أن أرى ذلك الضوء لا يزال هناك » .. كان ذلك هو ماقاله، ولكن ما أرعبه حقيقة هو الفكرة فى أن الغرق لم يتم بعـد فمما لاشك فيه أنه كان يريد أن يرى تلك اللعنة تنتهى بأسرع ما يمكن . وكان ركاب القارب سكوتا وهم يحسـون كأنه يطير بهم ، وان كان بالطبع لم يكن قد قطع مسافة كبيرة . ثم اكتسح المطر نفسه فى سرعة وقوة الى الأمام بعيدا عنهم ، وتبعته تلك الضوضاء المزعجة للصفير الذى كانوا يسمعـونه ولكنها تلاشت حين اتسع بينها وبينهم المدى . ثم لم يكن هناك ما يسمع الآن غير صوت المياه الخافت وهى ترتطم بالقارب. وكانت أسنان أحدهم تصطك بشدة ، وأحس جيم بيد تلمس ظهره ، وسمع صوتا خافتا يقول له «أأنت هناك ؟» وسـمع صوتا آخر يقول فى شىء من الارتعاش « لقـد اختفت » .. فوقف الجميع دفعة واحدة لينظروا الى الخلف فلم يروا أضواء وبدا كل شىء سوادا أمام أعينهم . وكان هناك رذاذ بارد من المطر يضرب وجوههم . ومال القارب قليلا على أحد جانبيه ، وأخذت الأسنان التى كانت تصطك تزيد من سرعة اصطكاكها ثم توقفت ، ثم ابتدأت ثانية وتكرر ذلك مرتين قبل أن يستطيع أن يسيطر الرجل على رعشته ليقول «فى ى ـى ـمى ـمى

ــمى • عاءعاءعاء ده (فى ميعاده) •• برررررر» ثم تعرف جيم على صوت المهندس الأول وهو يقول فى عصبية «لقد رأيتها وهى تغوص • لقد كنت قد أدرت رأسى حينذاك مصادفة»•• ثم سكنت الريح تماما •

وأخذوا يرقبون الظلام ورؤوسهم فى وضع يجعل آذانهم فى اتجاه الريح ، كما لو كانوا يتوقعون سماع الصرخات • وكان جيم يحمد الأقدار فى أول الأمر أن جعلت الليل يطوى فى ظلامه كل شيء أمام عينيه ، ولكنه بعد ذلك خطر له أن علمه بما كان يجرى الآن ، ثم حرمانه من أن يرى أو يسمع شيئا من ذلك على الاطلاق ، كانت النقطة الأخيرة التى طفح بها كيل ســوء حظه العاثر • وهمس جيم مقاطعا نفسه فى روايته غير المتصلة وهو يقول «غريب ، أليس كذلك ؟ » •

ولكنى لم أجد ذلك غريبا ، فلابد أنه كان مقتنعا لا شعوريا بأن الحقيقة لم تكن تبلغ من السوء فى الواقع ومن العذاب والصدمة والنقمة ، نصف ماكان فى الصورة التى خلقها له خياله من الرعب • وانى أعتقد أن قلبه فى هذه اللحظة الأولى كان يعتصر اعتصارا بالعذاب ، وأن روحه كانت تحتوى حصــيلة الخوف والفزع واليأس الذى أحس به ثمانمائة نفس داهمهم الموت العنيف على حين غفلة فى ظلام الليل ، والا فلماذا قال لى «اننى أحسست أنه يجب على أن أقفز من هذا القارب الملعون

ثم أعوم نصف ميل أو أكثر • أو أية مسافة حتى اصل الى حيث كانت السفينة لأرى بنفسى ••» لماذا اذن كان هذا الشعور المفاجىء ؟ أتفهمون معنى ذلك ؟ لماذا الى نفس المكان الذى كانت تقف فيه السفينة ؟ لماذا كان لا يغرق الى جانب القارب ان كان ما يعنى هو الغرق فقط ؟ لماذا خطر له أن يعوم راجعا الى نفس البقعة ليرى ، كما لو كان خياله يحتاج الى هذه التهدئة عندما يعلم أن كل شيء كان قد انتهى قبل أن يبسط الموت ظل سكينته على الجميع ؟ انى أتحدى أيا منكم أن يقدم لنا تفسيرا آخر • لقد كانت احدى تلك النظرات الغريبة المثيرة التى تخترق الحجب • ثم انه كان كشفا عجيبا لخبايا النفوس• ولقد جرت هذه الكلمات على لسانه وكأنما هى شيء طبيعى جدا من الممكن أن تجرى على لسان أى انسان •• ولكنه قاوم ذلك الحافز • وبعد ذلك أخذ يشعر بالسكون المخيم الذى كان يحيط به ولقد ذكر ذلك لى • وكان سكون البحر وسكون السماء قد امتزجا فى عالم واحد لا حدود له ، فى عالم ساكن كالموت حول أولئك الأحياء الذين كانت تخفق قلوبهم فى قارب النجاة • وقال : «ولربما كنت تستطيع أن تسمع صوت الدبوس وهو يقع على أرض القارب» ، وقال ذلك وشفتاه تتقلصان فى وضع غريب كما لو كان رجلا يحاول السيطرة على أحاسيسه وهو يقص حقيقة ذات تأثير مذهل • سكون ! ان الله وحده الذى خلقه فى هذا التكوين هو الذى يعلم ماذا كان تأثير

هذا السكون فى قلبه • وقال لى : «اننى لم أكن أظن أن من الممكن أن تكون هناك بقعة فى الأرض على هذا السكون ،فلم تكن تستطيع أن تميز البحر من السماء ، لأنه لم يكن هنـاك شىء يمكنك أن تراه أو أن تسمعه • لا ضوء ولا شكل ولا صوت • كان يمكنك أن تعتقد أن كل قطعة من الأرض الجافة كانت قد هبطت الى القاع ، وأن كل من عداى ومن معى فى القارب كان قد أبتلعهم اليتم • وكان قد مـال عـلى المـائدة بتبضتى يديه مستندا عليها بين فناجين القهـوة وأكـواب الشراب وأعقاب السيجار • والتقط نفسا عميقا وقال وهـو يتنهد : «ويظهر أننى كنت أصدق ذلك ، فلقد وجدت أن كل شىء كان قد اختفى ، وانتهى •• بالنسبة الى » •

ورفع مارلو نفسه فجأة على مقعده وقذف سيجاره فى عنف الى بعيد ،فأحدث وراءه وهو ينطلق أثرا أحمر كأنه صاروخ للأطفال ، أطلق من خلال ستار النبات المتسلق •• ولم يتحرك أحد من مكانه •

وصرخ مارلو فى حيوية مفاجئة : «والآن ماذا تظنون فى ذلك ؟ ألم يكن صادقا مع نفسه ، الم يكن صـادقا حين اعتبر أن حياته التى كان قد نجا بها قد انتهت لأنه كان لايجد أرضا تحت قدميه ولا مناظر أمـام عينيه ولا أصواتا فى أذنيه • ألم يكن ذلك هو العدم ! • نعم ، انه كان يعتقد ذلك • وان

كانت الحقيقة طوال هذا الوقت لم تكن تزيد أو تنقص عن صورة كانت السماء فيها ملبدة بالغيوم والبحر بلا موج والهواء بلا نسمة • واذا ما فصلنا الحقيقة عن الخيال فاننا نجد أنه لم يكن فى هذه الصورة من الأحداث المذهلة أكثر من أن الليل قد حل ، وأن السكون قد خيم •

واستمر هذا السكون لحظة ، انطلقت بعدها أصواتهم دفعة واحدة تتحدث عن نجاتهم وتعلق على الأحداث : «لقد عرفت من اول الأمر انها ستغوص» ، «أنها لم تتقدم دقيقة واحدة عن الوقت الذى قدرته لها» ، «لقد نجونا بصعوبة بحق السماء !». ولكن جيم لم يقل شيئا • وأخذت الريح التى كانت قد سكنت ترجع ثانية ، وهبت نسمة هادئة أخذت تنشط بعد ذلك فى ثبات • واشترك البحر بصوته الهامس فى رد فعلهم الملىء بالأصوات بعد سكون الخوف الذى خيم على تلك اللحظات الخرساء : «لقد ذهبت ! نعم ، لقد ذهبت ! انه لاشك فى ذلك وما كان يستطيع أحد أن يفعل شيئا » • واستمروا وهم يكررون كلماتهم وعباراتهم مرة بعد مرة كما لو كانوا لا يستطيعون توقيف أنفسهم عن الكلام • «لم يشكوا فى أنها تغوص • لقد اختفت الأضواء • الايمكن أن يكون هناك خطأ ـ لقد ذهبت الأضواء لايمكن أن نتوقع شيئا آخر • كان لابد لها أن تغوص» • • ولاحظ جيم أنهم كانوا يتحدثون

تركوا وراءهم سفينة خالية من الأحياء . وكانوا قد أجمعوا على انها لم تكن لتستمر طويلا بعد نقطة الابتداء . ويظهر أن ذلك كان يسبب لهم شيئا من الشعور بالرضى وأخذوا يطمئن بعضهم بعضا بأنه لم يكن من الممكن أن تستغرق وقتا طويلا فى غوصها ، «لقد سقطت الى القاع وكأنها قطعة من الحديد » . وقال المهندس الأول ان الضوء فى أعلى الصارى وقت «غرقها كان وهو يسقط أشبه بعود ثقاب مشتعل ترمى به الى الأرض . » وعند ذلك ضحك المهندس الثانى ضحكا هستيريا ، «اننى سعيد ع.ع.ع يد،اننى سعيدع.ع.ع يد» (اننى سعيد) » .

وقال جيم : «وكانت أسنانه تصطك كالتلغراف الكهربائى ، وانه أخذ بعد ذلك يبكى فجأة ، وأخذ يولول وينهنه كطفل صغير ، وهو يمسك بأنفاسه ويصيح بصوت ملؤه الدموع « ياالهى ! ياالهى ! ياالهى ! » ثم يصمت قليلا ويبدأ من جديد وهو يصيح «آه ياذراعى .. آيا ذرا .ا.اعى» وأحسست بأنى أريد أن أكيل له ضربة من ضربتى تفقده الصواب . وكان بعض منهم يجلسون تحت غطاء القارب وكنت أستطيع أن أميزهم بصعوبة . وكانت أصواتهم تأتى الى طنينا لا أتميزه تماما . وكان فوق احتمالى أن أستمر فى الاستماع لهذه الأصوات . وكنت أحس بالبرد أيضا ، وكنت عاجزا عن

عمل شيء وظننت أنني لو أتيت بأية حركة فانني كنت سأسقط من القارب ..»

وكانت يده على المائدة تتحرك في رفق وكأنه يريد أن يتحسس شيئا فلمست كوبة من أكواب الشراب فسحبها فجأة اليه وكأنما كانت قد لمست قطعة من الفحم المتوهج . فدفعت زجاجة الشراب اليه وسألته ، «ألا تريد كأسا آخر ؟» فنظر الى بغضب وقال «هل تظن أني لا أستطيع رواية ما يجب روايته من هذه القصة عليك دون أن أكون مخمورا ؟ » وكانت جماعة السواح من جوابى الآفاق قد ذهبوا الى الفراش . وكنا قد أصبحنا وحيدين فيما عدا شبحا أبيض كان يقف منتصب القامة بعيدا عن الضوء وكانت الساعة متأخرة ولكنى لم أرد أن أتعجل ضيفى فى الانصراف وكان فى حالته اليائسة يسمعهم يتحدثون ويظهر أنهم كانوا يكيلون الشتائم لأحد من الناس . وسمع صوتا يقول بلهجة التوبيخ «وما الذى أخرك عن القفز أيها المجنون ؟ »وسمع المهندس الأول يقول ،وقد كشف عنه غطاء القارب ، وجاء يزحف الى حيث كان وكأنه يضمر نية خبيثة «أكبر مغفل على سطح الأرض» وأخذ القبطان من مكانه عند المجاديف يخرج من فمه الشتائم المقذعة بصوت مبحوح مجهد . ورفع جيم رأسه حين سمع هذه الضوضاء وسمع اسم «جورج» حين ضربته على صدره يد فى الظلام . وقال أحدهم فى نوع

من غضب الصالحين : «وماذا يمكنك أن تقول الآن دفاعا عن نفسك أيها الأحمق» ، وقال جيم « انهم كانوا ورائى ولا يكفون عن شتمى — شتمى .. باسم جورج » .

وتوقف عن الكلام ليحدق فى ، ثم حاول أن يبتسم وبعد ذلك حول نظره عنى واستمر قائلا « ووضع الرجل الصغير الحجم رأسه تحت أنفى تماما وصاح : «يالسماء . انه ذلك الضابط الملعون . » وصاح القبطان من الطرف الآخر من القارب « ماذا ! وقال المهندس الأول » ثم توقف هو الآخر لينظر الى وجهى .

وكانت الريح قد تركت القارب فجأة وكان المطر قد بدأ يسقط ثانية ، وكان الصوت الغامض الخافت الناعم المستمر الذى يستقبل به البحر انهمار المطر يصعد من كل ناحية فى جوانب الليل . واستمر جيم يقول : « انه كان قد ارتج عليهم من الدهشة أول الأمر فلم ينطقوا ببنت شفة . ثم ماذا كنت أستطيع أن أقول لهم ؟ » . وتلعثم قليلا ، ثم استجمع قواه ليستمر فى قصته وقال «لقد كانوا يكيلون لى أنواع الشتائم» . وكان صوته يسقط الى مستوى الهمس ، وبين حين وحين يرتفع فجأة وهو يجلجل وقد اكتسب قسوة من مشاعر الاحتقار وكأنه كان يتحدث عن سر لعنة لها صلة وثيقة بالشيطان . فقال وهو يقطب وجهه : «دعك من الشتائم التى كانوا يوجهونها

انى ، فقد كنت أسمع رنة الحقد والكراهية فى كلماتهم ،وكنت أرحب بذلك أيضا . فهم لم يستطيعوا أن يغفروا لى وجودى فى هذا القارب . كانوا لا يطيقون ذلك . كان ذلك يوشك أن يودى بعقولهم .. »

وضحك جيم ضحكة قصيرة ، وقال : « ولكن ذلك منع سقوطى من — انظر ! لقد كنت أجلس وذراعاى مضمومتان على صدرى على حافة القارب » ، ثم جلس بخفةعلىحافةالمائدة وكتف ذراعيه .. «هكذا ، فحركة صغيرة الى الوراء كانت خليقة بأن تدفعنى الى الماء وراء الآخرين . أية حركة صغيرة. أصغر حركة تتصورها كانت ستؤدى بى الى الوقوع فىالماء». وقطب حاجبيه ، ونقر بأصبعه الوسطى على جبهته وقال بشىء من الزهو : «لقد كانت هناك طوال ذلك الوقت ، نعم كل ذلك الوقت ، كانت تلك الفكرة هناك ، وكان هناك المطر أيضاباردا كثيفا ، باردا كالثلج المذاب ، بل أبرد من ذلك . وأنافىملابسى القطنية الرفيعة . اننى لن أحس أبدا بمثل هذا البرد مرةثانية فى حياتى . اننى أعلم ذلك . وكانت السماء سوداء أيضا ، سوداء حالكة السواد بلا نجم ولا ضوء فى أى مكان فيها . ولم يكن هناك شىء قط خارج ذلك القارب اللعين ، وهذين الرجلين وهما ينبحان أمامى كما ينبح كلبان حقيران لا حسب لهما ولا نسب على لص قطع عليه طريق الخلاص «ياب !ياب!».

ماذا تفعل هنا ؟ «أنت طراز جميل من الرجال : أنت جنتلمان عظيم ، لا يريد أن يلوث يديه بمثل هذا العمل . هـل أفقت من غيبوبتك الآن ، لتتسلل الى القارب . . هل . . ؟ ياب ! ياب ! انك لاتستحق الحياة ! ياب ! ياب ! ياب ! »وكان الاثنان ينبحان معا وكل منهما يحاول أن يبز زميله فى النباح . وكان ثالثهم يرسل بصرخاته من مؤخرة القارب خلال المطر وكنت لااستطيع أن أراه ولا أستطيع أن أتبين بعض كلماته القــذرة . ياب ! ياب ! باو ! أو ــ أو ــ أو ــ أو : » وكان جميلا أن اسمعهم فذلك هو ماأبقانى حيا كما قلت قلت لك . ذلك هو ماأنقذحياتى . ولقد استمروا فى ذلك كما لو كانوا يريدون أن يقذفوا بى الى خارج القارب بضوضائهم .. «انى أتعجب ان كانت لك الشجاعة لكى تقفز ــ فأنت غير مرغوب فيك هنا ــ ولو كنت أعلم أنك أنت لكنت دفعت بك الى خارج القارب ... أيها الخنزير . ثم ماذا فعلت بالرجل الآخر ؟ ومن أين كانت لك الشــجاعة لتقفز أيها الجبـــان ؟ وماذا يمنع ثلاثتنـــا الآن من القذف بك الى البحر ؟ .وكان المجهود قد قطع انفاســهم ؛ وابتعد رذاذ المطر عنا متنقلا فــوق صــفحة البحر ثم ... لا شىء . وســكنت الأصــوات داخل القارب . انهم كانوا يريدون أن يرونى فى البحر . أليس كذلك ؟ وحق السماء اننى أظن ان رغبتهم كانت ستتحقق لو أمكنهم فقط ان يحتفظوا بألسنتهم فى أفواهم .

يلقون بى فى البحر ! هل كانوا حقا سيفعلون ؟ وقلت لهم « حاولوا اذن فانى مستعد لذلك » فأجابوا جميعا بصوت واحد: «سيكون ذلك أكثر مما تستحق» . وكان الظلام حالكا الى درجة كنت لا أتميز أحدهم من الآخر الا اذا تحرك . وبحق السماء لقد كنت أتحرق شوقا لرؤيتهم يحاولون ذلك » ولم أتمالك نفسى من الصياح وقلت له : » ياله من حادث عجيب » .

وقال جيم كما لو كان ذلك قد أدهشه بطريقة ما : « لم يكن العرض رديئا أليس كذلك ؟» وكانوا يحاولون أن يلقوا فى روعى كذبا بأنهم يعتقدون أننى قد قتلت ذلك الرجل على السطح لسبب أو لآخر . ولكن لماذا كنت أقتله ؟ وبحق الشيطان كيف كان من الممكن لى أن أعلم؟ ألم أصل بطريقة ما الى هذا القارب؟ الى هذا القارب؟ ذلك القارب — أنا ..» ، وتقلصت العضلات حول شفتيه الى تقطيبة غير مقصودة نزعت قناع التعبير العادى الذى كان يصطنعه لوجهه . وكانت شيئا عنيفا قصير العمر كاشفا لخبايا النفس ، ومنيرا لزواياها المظلمة كومض البرق الذى ينير أمام العين للحظة قصيرة ما احتوته السحابة من تجاويف فى أعماقها . ثم قال : «لقد هبطت الى هذا القارب. ولاشك أنى كنت معهم فيه الآن ، أليس كذلك ؟ ثم أليس من المخيف حقا أن يجبر الانسان على ذلك العمل ، ثم بعد ذلك

يعتبر مسئولا عنه ؟ ثم ماذا كنت أعلم عن هذا الجورج الذى يصرخون من أجله ؟ ان كل ما أذكره أننى رأيته متكورا على سطح السفينة • وأخذ المهندس الأول ينادينى «أيها الجبـــان القاتل» وكأنه كان لا يتذكر من اللغة غير هاتين الكلمتين فجعل يكررهما ولم يكن ذلك يهمنى ، ولكن ضوضاءه كانت قـد بدأت تزعجنى • قلت له : «اقفل فمك» وعند ذلك جمع شتات نفسه ليطلق صيحة لعينة كصوت الغراب ، وهو يقول : «لقد قتلته» فصرخت فيه «كلا ، ولكننى سأقتلك أنت الآن حالا دون امهال » وقفزت ناهضا ، فسقط الى الوراء حين تعثرت قدماه باحدى عوارض القارب وكان لسقطته صوت عال مكتوم ، ولا أعلم لمـاذا وقع ، اما بسبب الظلام أو ربما كان يريد أن يخطو الى مؤخرة القارب • ووقفت مكانى وأنا أواجه المؤخرة ، واذا بالرجل الصغير التعس يبدأ فى البكاء ويقول : « انك لن تضرب رجلا بذراع مكسورة ثم تسمى نفسك جنتلمان» وسمعت بعد ذلك خطوة ثقيلة واحد اثنين ، وصوتا أخنف خارجا من الأنف• ورأيت الوحش الآخر يخطو متجها الى وهو يخبـط بمجدافه فوق مؤخرة القارب • ورأيته يتحرك وكان كبيرا ، كبيرا كما لو كنت ترى رجلا فى الضباب أو فى حلم مزعج • وصحت فيه : «أقدم • أقدم» • وكنت سألقى به فى الماء كما لو كان كيسا كبيرا من المهلات • فتوقف وتمتم ببضـع كلمات الى نفسه ، ثم أقفل راجعا الى حيث كان • وربما كان قد سمع

الريح ، أما أنا فلم أسمعها ، وكان هذا هو آخر هبوب ثقيل لها علينا . فذهب الى المجداف ، وكنت آسفا لأننى كنت أود أن أحاول ... »

وفتح وطوى أصابع يديه المقوسة وكانت يداه ترتعشـــان بصورة تدل على القسوة والرغبة فى الفتك فتمتمت قائلا له : « اثبت ، اثبت . »

فعاتبنى وكأننى قد جرحته جرحا عميقا وقال : «ماذا ؟ اننى لست مضطربا» ثم قلب زجاجة الكونياك بمرفقه حـين حرك ذراعه حركة سريعة عصبية لا ارادية . وبعد ذلك قفز بعيدا عن المائدة كما لو كان لغم قد انفجر وراء ظهره ثم استدار نحوى نصف دورة قبل أن يصل الى الأرض ، ثم انحنى على قدميه ورأيت أمامى عينين فيهما الدهشة والفزع ووجها غاض منـه الدم ، وتلا ذلك نظرة تدل على الضيق الشـــديد ، ثم تمتم مضطربا « آسف جدا ، كان يجب على أن أكون أكثر حيطة فى حركاتى» بينما كانت الرائحة النفاذة للكحول المراق تجعل من الجو المحيط بنا جوا رخيصا لجماعة من السكارى فى هذا الليل المظلم النقى البارد النسمات . وكانت الأنوار قد أطفئت فى غرفة الطعام ، وكانت شمعتنا هى الوحيدة المضاءة فى هذه الشرفة الطويلة التى كانت أعمدتها قد طواها السواد من أعلاها الى أسفلها . وفى نور النجوم كان الجانب العـالى من بناية

مكتب الميناء يظهر واضحا عبر الميدان كما لو كان ذلك الجزء من هذا المبنى الرصين قد انزلق الى مكان قريب منا كى يسمع ويرى •

ثم اتخذ چيم لنفسه مظهرا لعدم الاكتراث • وقال : «اننى أظن أننى أقل هدوءا الآن عما كنت حينذاك ، فلقد كنت مستعدا لأى شىء ، وكانت هذه تفاهات •• »

فقلت له : «أعتقد أنهم لم يتركوا لك مجالا للملل فى ذلك القارب» • فكرر چيم ما قال : «لقد كنت مستعدا • وبعد أن اختفت أضواء السفينة ، كان من الممكن أن يحدث أى شىء فى هذا القارب ، أى شىء فى الدنيا ، ودون أن يعـــرف أحد فى الدنيا سيـئا عنه • ولقــد شعرت بذلك ، وامتلأت بالغبطة • ثم انه كان هناك مايكفى من الظلام أيضا • ولقد كنا كرجال فى قبر فسيح قامت من حولهم الجدران • ولم نكن نهتم بأى شىء على وجه الأرض • ولم يكن هناك أحد ليكون عنا رأيا • أو يوجه نقدا ، ولم يكن شىء على الاطلاق يرحب على المرء أن يحسب حسابه» • وللمرة الثالثة خلال هذا الحديث ضحك جيم ضحكته الخشنة ولكنه لم يكن هناك أحد الآن ليظن أنه «مخمور تقط» واستمر فى حديثه قائلا : «لم يكن هناك ما نخشاه ، لم يكن هناك قانون ، لم تكن هناك أصوات ، ثم لم تكن هناك أعين ، حتى ولا أعيننا على الأقل الى أن يطلع النهار » •

وتنبهت الى ما كان فى كلماته من صدق الايحاء • فهناك شىء

هو من خصائص القارب الصغير الذى يطفو على مياه البحر الواسع العميق . فحياة الناس التى انتزعت من تحت ظلال الموت كثيرا ما تقع تحت ظلال الجنون . وحين تتخلى عنك سفينتك فانك تحس بأن دنياك قد تخلت عنك أيضا ، تلك الدنيا التى صنعتك ورسمت لك حدودك ورعتك بعنايتها . ويخيل الى أن أرواح الرجال الذين يطفون على سطح الهاوية ، على اتصال بذلك العالم الفسيح الذى لا حدود له ، تنطلق من عقالها مستعدة للقيام بأية بطولة ، أو حماقة كبرى ، أو عمل شيطانى مريد . ومن الطبيعى ، كما هى الحال فى أى اعتقاد أو فكرة أو حب أو كره أو اقتناع ، أو حتى فى الأشكال المرئية للأشياء المادية ، أن نجد عدد الصور التى تتخذها حالات غرق السفن هو عدد الرجال بالضبط الذين يكونون فريسة لها . لقد كان فى هذه الحالة التى نتحدث عنها الآن شيء دنىء جعل حالة العزل أكثر اكتمالا . كان هناك مؤامرة شريرة من الظروف قطعت اتصال هؤلاء الرجال بطريقة أشد فعالية عما يحدث عادة عن بقية العالم الخارجى الذى لم يجر على مثله الأعلى فى السلوك تجربة من هذا النوع الشيطانى المفزع من المزاح . كانوا يشعرون بأشد الضيق منه لأنه يركز عليهم مقته الواجب والشرف بين — بين . أما هو فكان يركز عليهم مقته لكل ملابسات هذا الحادث . وكان يريد أن ينتقم منهم انتقاما شديدا لتلك الفرصة الكريهة التى وضعوها فى طريقه . وليس

هناك ما يبرز «اللامعقول» الذى يقبع فى قاع كل فكرة وكل احساس وكل عاطفة أو انفعال مثل قارب تتلاعب به الأمواج فى بحر خضم • وكان جزءا من دناءة هذه المساخر المسرحيـــة الوضيعة التى كانت تمتزج بأحداث هذه الكارثة البحرية أنه لم يحدث بينهم شجار عملى يتشابكون فيه بالأيدى ، ويتبادلون الضربات • بل كان ما حدث مجرد تهديد وافتعال درامى غير صادق ، كان تظاهرا كاذبا من أوله الى آخره رسمته قــوى الظلام فى احتقار شديد ، وكأنما كانت تنتقم لنفسها ، لما تخسره من المعارك ، حين تحشد ذخيرتها من كل ما هو مخيف ومرعب، وهى تقف على أبواب النصر ، ثم تجد أنها قد هزمت أمام صمود الرجال •• وسألت جيم بعد أن انتظرت وهلة «حسنا وماذا حدث بعد ذلك ؟ » • وكان سؤالا لافائدة منه • فلقد كنت أعلم من أحداث هذه القصة حتى تلك اللحظة ما يكفينى لأن أفقد الأمل فى لمسة واحدة رحيمة ترفعهم من ذلك المكان الذليل ، أو فكرة تشفع لهم ولو بالتلميح بجنونهم أو تخفف بطريقة ما من الشعور بفظاعة الذنب الذى اقترفوه •• وقال جيم « لا شىء ، فلقــد كانت نيتى العمـــل ، وكانت نيتهم مجرد الضوضاء • وعلى هذا فلم يحدث شىء • »

ووجدته الشمس المشرقة فى موضعه تماما من مقدمة القــارب الذى كان قد قفز اليه من السفينة • ثم ويالمثابرته فى الاستعداد!

فلقد كان لا يزال يمسك بعمود الدفة طـــوال ذلك الوقت الذى استمر الليل بطوله • فلقد كانوا قد ضيعوا الدفة فى الماء وهم يحاولون أخذها معهم فى القارب • ويظهر أن هـذا العمود كان قد دخل الى القارب بطريقة ما حين كانوا يتحركون جيئة وذهابا فى ذلك القارب وهم يحاولون عمل أشـياء كثيرة فى وقت واحد • ليبعدوا القارب عن جانب السـفينة • وكان ذلك العمود عبارة عن قطعة طويلة ثقيلة من الخشـب المتين ، ويظهر أنه ظل قابضا عليه لمدة ست ساعات أو مايقرب من ذلك • أفلا تسمون ذلك استعدادا ؟ أتتصورونه ، ساكنا وهـو يقف نصف ليلة على قدميه ووجهه للريح المحملة بالمطر يحملق فيما يتراءى له كالأشباح فى الظلام ، متنبها الى حركاتهم التى كان لايستطيع أن يتبينها جيدا ، مطرقا أذنيـــه ليسمع التمتمة الخافتة النادرة تحت غطاء القارب ! أكان ذلك شجاعة أم كان خوفا ؟ ماذا تظنـون ؟ ثم قوة الاحتمال هــذه التى لايمكن انكارها أيضا • ست ساعات وهو فى موقفه الدفاعى ، ست ساعات فى جموده المتنبه وهو يقف مكانه لايبرحه ، بينما كان القارب يسير ببطء أو يطفو فى مكانه طبقا لرغبـة الريح التى لاتسـتقر على حال • بينما هدأ البحـر ثم نام ، وبينما كانت السحب تمر مسرعة فوق رأسه ، وبينما أخذت السماء تتحول من تلك السعة التى لا حد لها من الاعتام والظلمة الى قبو قوطى ضيق معتم ومضىء فى آن واحد ، يتلألأ فى لمعـــان عجيب ،

شاحبا فى اتجاه الشرق ، مصفرا فى السـمت . وبينما كانت الأشباح المظلمة التى كانت تخفى عنه النجوم المنخفضة قد أخذت تحدد أشكالها ، فظهرت خطوطهم العريضة على صفحة الافق ، وصارت أكتافا ورؤوسا ووجوها وقسمات . وهم يوجهـون اليه نظرات مقبضة ، فى شعورهم المشعثة وملابسهم الممـزقة وهم يطرفون بأجفانهم الحمراء نحو الفجر الأبيض ووصف جيم حالتهم فقال « وكانوا وكأنما قد قضوا أسـبوعا بطوله فى جوانب الطرقات القذرة وهم مخمورون » وبعـد ذلك تمتم بشيئا عن أن ذلك الشروق للشمس كان من النوع الذى ينبىء بيوم هادىء . وأنتم تعلمون عادة البحارة التى تجعلهم يشيرون الى الجو أيا كان ما يتحدثون عنه . أما عن تأثير هذه الكلمات فى ، فقد جعلتنى أرى الطرف الأسفل للشمس وهو ينير خط الأفق ، وأن أرى رعشة الامواج الصغيرة وهى تسرى على مدى الرؤية فى البحر الفسيح ، كما لو كانت هذه الرعشة قد أصابت المياه وهى تلد كرة الضوء ، بينما الهبة الأخيرة للنسيم تحـرك الهواء ليتنهد تنهيدة الارتياح . عورند

وسمعت كلماته العادية وقد تجلت فيها الكراهية ، وكأنما قد امتزجت بها خلاصة مقطرة لمادة تأكل كل ما يحتويها ، أو كأنه قد أضاف نقطة من سم زعاف الى كوبة من الماء العادى ، فقال « انهم كانوا يجلسون فى مؤخرة القارب وأكتافهم متلاصـقة

والقبطان فى وسطهم وكأنهم ثلاث من البوم يحدقون فى وجهى » •• ولكن أفكارى كانت لا تزال عالقة بذلك الشروق للشمس • وكنت أستطيع أن أتصور هؤلاء الرجال الأربعة تحت هذا الفراغ الشفاف من السماء مسجونين فى عزلتهم وسط البحر • وأن أرى الشمس فى وحدتها غير عابئة بتلك البقعة الصغيرة التى تنبض بالحياة تصعد فى قبة السماء الصافية كما لو كانت تريد أن تشرف من عليائها بحرارة على عظمتها وهى تنعكس على مياه المحيط الساكنة • وقال جيم : «ونادوا على من مؤخرة القارب كما لو كنا زملاء طيبين ، وسمعتهم • كانوا يرجوننى أن أتعقل وأن أترك جانبا « تلك القطعة اللعينة من الخشب » فلماذا أتصرف على هذه الصورة ؟ أنهم لم يصيبونى بأى ضرر أليس كذلك ؟ لم يحصل أى ضرر •• أى ضرر • »

واحمر وجهه كما لو كان لا يستطيع أن يتخلص من الهواء الذى فى رئتيه •

وصرخ «لاضرر : انى أترك ذلك اليك ، فلاشك أنك تستطيع أن تفهم ، أليس كذلك ؟ انك ترى ذلك ، أليس كذلك لاضرر ! يا الهى ! ماذا كانوا يستطيعون أن يفعلوا أكثر من ذلك ؟ نعم ! انى أعلم جيد ا أننى أنا الذى قفزت ، من المؤكد أننى قفزت ! لقد أخبرتك بذلك من قبل ولكنى أقول لك انهم

كانو أكثرمما يحتمل أى انسان . انهم كانوا هم السبب وانى أرى ذلك واضحا كما لو كانوا قد أتوا بخطاف من خطاطيف القوارب وشدونى اليهم ، ألاتستطيع أن ترى ذلك ؟ انك يجب أن ترى ذلك . هيا . تكلم . تكلم بصراحة . »

وثبت نظرته فى عينيـــه القلقتين على عينى وهو يســألنى ويرجونى ويتحدانى ويتوســل الى . ووقعت فى حـيرة فـلم أتمالك أن تمتمت ، « لقد كانت تجربة صعبة بالنسبة اليك » وقفز الى ذلك بسرعة وقال «نعم ، ولم يكن فى هذه التجربة شىء من العدل ، فلم يكن لدى فرصة تستحق الـذكر وسط عصابة مــن ذلك الطراز . والأن أصبحوا يبدون نحوى شعور الصداقة » نعم والى أقصى حد ! لقد أصبحنا أحباء ، زملاء . ونحن جميعا فى نفس القارب . دعنا نعمل خيرما نستطيع فى هذه الظروف . انهم يعنوا فى الحقيقة شيئا . ان أمر جورج لايهمهم فى قليل ولا كثير فلا بد أن جورج كان قد رجع الى قمرته لكى يحضر شيئا فى اللحظة الأخيرة ثم دهمه الغرق . لقد كان من الواضح أن الرجل أبله . ان ذلك من المحزن بالطبع ... وكانت أعينهم تحدق فى وشفاههم تتحـــرك ورؤوسهم تومىء الى الطرف الآخر من القارب . ثلاثتهم جميعـــا وهم يحنون رؤوسهم ـــ الى ولماذا لا ؟ ألم أقفز ؟... وجلســـت صامتا طوال هذه المدة . فلم يكن لدى ما أقوله ردا على هذه

الأشياء . ولو كنت قد فتحت فمى فى تلك اللحظة لما كنت الا قد زأرت مثل الوحوش . وكنت أسأل نفسى متى سأستيقظ . وطلبوا منى بصوت عال أن أحضر الى مؤخرة القـــارب وأن أستمع فى هدوء الى مايريد القبطان أن يقول . فقد كنا متأكدين أن سفينة من السفن ستلتقطنا قبل مغيب الشمس ، فنحـــن فى مسار السفن التى ستعبر القناة وكان هناك دخان الآن ناحيـــة الشمال الغربى ... »

«وأحسست بصدمة عنيفة وأنا أرى ذلك الضباب الشاحب، ذلك الأثر المنخفض للسحابة السمراء الذى تستطيع أن ترى من خلاله الخط الذى يلتقى فيه الماء بالسماء . وناديتهم قائـــلا اننى أستطيع أن أسمع بوضوح وأنا فى مكانى . فبدأ القبطان يشتم بصوت كصوت الغراب ، قائلا انه ليس على استـــعداد أن يتحدث بأعلى صوته من أجل راحتى . فسألته : « هـــل تخشى أن يسمعوك على الشاطىء ؟» فنظر الى شذرا كما لو كان يريد أن يقطعنى بمخالبه اربا . ولكن المهندس الأول نصحـــه بأن يأخذنى باللين . وقال له اننى لم أستعد صوابى بعـــد . فوقف القبطان فى مؤخرة القارب كعمـــود سميك من اللحم وتحدث .. ثم تحدث ..» ، وأخذ جيم يفكر فقلت له مشجعا: « ثم ؟ » . فقال بعدم اكتراث : « وماذا كان يهمنى من القصة التى أرادوا تلفيقها ؟ لقد كانوا أحرارا فى أن يقولوا مايريدون

فذلك كان شأنهم . فلقد كنت أعرف الحقيقـــة ولم يكن ما سيقولونه للناس أو سيجعلونهم يصدقونه ليغير من هـــذه الحقيقة شيئا بالنسبة الى . فتركته يتكلم ويناقش ، ويتـكلم ويناقش . واستمر وقتا طويلا وهو يقول ويعيد مايقوله ، حتى شعرت فجأة وكأن رجلى لاتتحملان ثقلى . وأحسست بالملـل الشديد والتعب ، أحسست بأننى أموت من التعب . فتركت عمود الدفة يسقط من بين يدى وأدرت ظهرى لهم ، وجلسـت على العارضة الأمامية للقارب . وقررت أننى قد سمعت ما فيـه الكفاية . فنادوا على يريدون أن يعلموا ان كنت قـد فهمت وان لم يكن ما قالوه هو الصدق بكل كلمة فيه ، وبحق السماء لقد كان فعلا هو الصدق طبقا لطريقتهم فى التفكير . ولم أدر رأسى اليهم ، وسمعتهم يتناقشون ويتداولون « ان الحمـــار الغبى لايريد أن يقول شيئا ، ولكنى أظن انه يفهم جيدا » ، «دعوه وشأنه الآن ، فهو لاشك سيفعل كل ما نريد» ، «وماذا يستطيع أن يفعل ؟ » .. نعم ، وماذا كنت أستطيع أن أفعل ؟ ألم نكن جميعا فى نفس القارب ؟. وحاولت أن أكون أصما ، وكان الدخان قد اختفى الى ناحية الشمال . وكان البحر ساكنا كالموت . وشربوا من برميل الماء ، وكذلك فعلت أيضا . وبعد ذلك أثاروا ضجة كبيرة وهم ينشرون قماش الشراع على حافة القارب . وهل من الممكن أن أراقب البحر ؟ ثم زحفوا الى قاع القارب بعيدا عن ناظرى فحمدت الله . وكنت أشـعر بالتعب

الشديد والارهاق الذى لا مزيد عليه وكأننى لم أنم ساعة واحدة منذ يوم ولادتى • ولم أكن أستطيع أن أرى الماء لانعكاس ضوء الشمس عليه وبين الحين والحين كان يزحف أحدهم ويقف فى القارب ، وهو ينظر حوله الى جميع الجهات ثم يرجع من حيث أتى تحت الشراع وكنت أستطيع أن أسمع بعض نوبات الشخير هناك • اذن فقد كان بعضهم يستطيع النوم — على الاقل أحدهم • أما أنا فلم أستطع ؟ فقد كانت الدنيا كلها مضاءة • كانت ضوءا على ضوء ، وكان يخيل الى أن القارب يتحرك خلال هذا الضوء • وبين حين وآخر كنت أتعجب كثيرا حين أجد نفسى جالساً على عارضة •• »

وابتدأ يتمشى جيئة وذهابا فى خطى متساوية أمام مقعدى وقد وضع يدا فى جيب سرواله ، وأمال رأسه فى حالة تدل على التفكير ، وكانت يده اليمنى ترتفع بين فترات طويلة من الزمن فى حركة تظهره وكأنه يزيح عن طريقه متطفلا غير مرئى •

ثم بدأ ثانية وقد غير من نغمة القائه وقال : «لعلك تعتقد أننى كنت فى طريقى الى أن أفقد صوابى ولاشك أن ذلك كان من المعقول أن يحدث ، فانك تتذكر أننى كنت قد فقدت قبعتى • وكانت الشمس قد زحفت فى مدارها الطويل من الشرق الى الغرب فوق رأسى العارى • ولكننى أظن أنه كان لايمكن أن يلحق بى ضرر مافى ذلك اليوم • ولم تكن الشمس لتستطيع أن

تجعلني مجنـــونا •••» ورفع يده اليمنى لينحى عنه فـكرة الجنون ••• « وما كانت الشمس تستطيع أن تقتلنى ••• » وارتفعت يده ثانية لتزيح ظلا آخر عن طريقه • «فقد كان كل ذلك يتوقف على ••• »

وقلت له : «يتوقف عليك ؟» ونطقت بهذه الكلمات وأنافى دهشة لا توصف من هذه الفكرة الجديدة • ولاشـــك أننى نظرت اليه عندئذ وأنا أشعر بنفس الشعور الذى كنت أعتقـد أننى سأشعر به لو كنت قد رأيت على جسده حين استدار حول نفسه على كعابه وجها جديدا غير وجهه •

ثم استمر فى حديثه قائلا : «ولم أصب بضربة شمس ، ولا سقطت ميتا من الأعياء • بل اننى لم أحفل مطلقا بالشمس التى كانت تشوى رأسى • وجلست هناك افكر فى هدوء كما يجلس أى رجل آخر يفكر تحت برود الظلال ، وأخرج ذلك الحيوان الكبير الملىء بالشحم الذى كانوا يسمونه القبطان ، رأســه الحليق من تحت الخيمة • وحدق فى بعينيه اللتين تشـــبهان عينى السمكة وقال : «ياللعنة ! انك ستموت» • ثم انســحب ثانية الى جحره كالسلحفاة • وكنت قد رأيته، وكنت قد سمعته• ولكنه لم يقطع على حبل أفكارى • فالذى كنت أفكر فيه فى تلك اللحظة فعلا هو أننى لن أموت •• »

ورمى الى بنظرة فاحصة وهو يتمشى حاول بها ان يستطلع

مايدور في رأسي • وسألته في لهجـة حاولت ما أستطعت ألا أجعلها تكشف عن أفكاري «أتعني أنك كنت تشاور نفسـك فيما اذا كنت تريد أن تموت ؟» فأومأ برأسه بعلامة الايجـاب دون ان يتوقف وقال : «نعم ، لقد كانت المسائل قد وصـلت بي الى ذلك الحد وأنا أجلس هناك وحيدا» • ثم خطا بضع خطوات حتى وصل الى النهاية التي رسمها لنفسه عنـد ذلك الطرف في جيئته وذهابه • وحين استدار حول نفسه ثانيـة لرحلة الرجوع كانت كلتا يديه مدسوستين عميقا في جيبه • ثم توقف دفعة واحدة أمام مقعدي وسألني وهو ينظر الى الأرض بلهجة متوترة وشوق قلق الى التعرف على رأيي ، «ألا تصدقني؟ وأثرت هذه اللهجة في الى درجة جعلتني أعرب عن استعدادي الكامل لتصديقي المطلق لكل مايرى من اللياقة ان يسرده على مسامعي •

الفصل الحادى عشر

واستمع الى ، الى أن أكملت حديثى وهو يميل برأسه الى أحد الجوانب ، وأتيحت لى فرصة اخرى فى استراق نظرة من خلال تلك الفتحة فى ذلك الضباب الذى كان يتحرك ويعيش بكل كيانه فيه . وبدأت الشمعة ذات النور الضئيل تشـــهق داخل كرة الزجاج ، وكان ذلك هو الضوء الوحيـــد الذى أستطيع أن أراه به . ووراء ظهره كان الليل الحالك بنجـومه المضيئة التى كان ومضها البعيد فى مســـتوياتها المتفاوتة فى البعد ، يغرى العين بالتحديق فى أعماق ظلام أشـــد كثافة . ولكن رغما من ذلك فاننى أحسست وكأن هناك نورا غامضـــا أستطيع أن أرى على ضوئه رأسه الذى كان يشبه رأس ولد صغير ، كما لو كان شبابه فى هذه اللحظة قد اشتعل لفـــترة قصيرة ثم انطفأ . وقال جيم : «انك رجل طيب جدا لاستماعك الى هكذا ، ان ذلك يشعرنى براحة عظيمة . انك لاتستطيع أن تعلم قيمة ذلك عندى ، انك لا ..» ويظهر أنه كان قد أعوزته الكلمات . وكانت نظرة رأيت فيها كل شىء بوضوح فقد كان شابا من ذلك الطراز من الشبان الذين تحب أن تراهم حولك، من ذلك الطراز من الشبان الذين كنت تتخيل أنـــك كنت فى

شبابك أحدهم ، من ذلك الطراز الذى كان يطالبك ظهوره باصطحاب هذه الأوهام التى ظننت أنها ذهبت وتولت وأمحت وبردت حرارتها والتى كانت وكأنها قد اشتعلت من جديد عندما اقترب منها لهب آخر . فأخذت ترسل الى أعماقك البعيدة رعشة تجعلك تنبض بطاقة من الضوء .. ومن الحرارة .. نعم لقد أتيح لى أن أرسل هذه النظرة الى أعماقه عندئذ ..ولم تكن النظرة الاخيرة من نوعها .. «انك لاتدرى ماهو الشعور الذى يغمر رجلا فى مثل ظروفى حين أستطيع أن أفرغ قلبى لرجل أكبر منى سنا وتجربة ، فانى أجد ان ماحدث لى كان شيئا غاية فى القسوة ، غاية فى الظلم ، وغاية فى صعوبة الفهم » .

ثم أغلق الضباب نافذته . وكنت لا أعلم تقديره لسنى عمرى أو لحكمتى . ولكنى أعلم أننى كنت أحس حينذاك بأن عمرى يبلغ ضعف تلك السنين . وان حكمتى — فى عدم جدواها كانت أيضا ضعف ما قدر . ومن المؤكد أنك فى مهنة البحر أكثر منها فى أية مهنة أخرى ، نجد هؤلاء الذين توطدت أقدامهم فيها ورضى كل منهم بقدره فى أن يهبط أو يطفو طبقا للظروف ، وقد طارت قلوبهم الى أولئك الشبان الذين لا يزالون عند الحافة ، وهم ينظرون — بعيونهم المضيئة الى لمعة تلك الصفحة الشاسعة التى ماهى الا انعكاس

لنظراتهم المليئة بنار الحماسة . ان هناك غموضا رائعا فى تلك الاحداث التى كنا نتوقعها والتى كانت تدفعنا الى البحر . وهناك مجد ليس له أبعاد ولاحدود ، وشراهة جميلة للمغامرات كانت هى مثوبتنا الوحيدة .. ثم ماذا كنا نجد بعد ذلك ، حسن ، انه من الأفضل أن نترك هذا الحديث جانبا الآن . ولكن أيستطيع أحدنا حقا أن يكبت ابتسامته ؟ انه لا توجد مهنة أخرى يبعد فيها الوهم عن الواقع الى هذا المدى ، وتجد مقدماتها كلها وهما خالصا ، يعقبه تبدد سريع لسحره . ولاتوجد مهنة أخرى يمكن أن يخضع لها المرء كل هذا الخضوع . ألم نبدأ جميعا تحدونا رغبة واحدة وان لم ننته جميعا بنفس المعرفة ، ثم ألم نحمل جميعا ذكرى ذلك المجد المرموق معنا خلال الأيام السوداء التى كانت تقطر باللعنات ؟ فأى عجب فى أن نجد العلاقة وثيقة بيننا اذا ما نفذ السهم ونزلت النوازل وأن نجد الى جانب الأخوة التى تجمعنا فيها زمالة المهنة ، شعورا أقوى من هذا وأرحب أفقا ـ وهو الشعور الذى يربط الوالد بولده . وكان جيم يقف الآن معتقدا بأن السن والحكمة سيجدان علاجا للحقائق المؤلمة وهو يكشف لى عن نفسه كشاب صغير قد وقع فى مأزق ، من النوع الذى يعجز الشيطان نفسه عن الخروج منه ويتحدث أصحاب الأذقان البيضاء عنه فى جد وهم يخفون ابتساماتهم . ثم انه كان يشاور نفسه أيضا عن الموت ـ عليه اللعنة ! . ان الذى جعله يجلس ويفكر فى

ـوت لم يكن الا ظنه بأنه كان قد أنقذ حياته بينما كانت كل أحلامه عن المجد قد غاصت مع السفينة فى تلك الليلة. ألم يكن ذلك شيئا طبيعيا جدا .. لقد كان من المحزن حقا ومن المضحك أيضا أن يطلب الشفقة والرحمة بصوت عال ولكن فيم أفضل أنا البقية من زملائى حتى أمنع عنه عطفى ؟... وبينما كنت لاأزال أنظر اليه كانت السحابة قد قفلت نافذتها التى تكشف عن داخلها . وتكلم هو قائلا : «لقد ضعت تماما كما تعلم . ولقد كان ذلك الحادث من تلك الأشياء التى لايتوقع المرء أن تحدث له . لم يكن كمشاجرة مثلا » . فوافقته قائلا ، «كلا انه لم يكن كذلك» . ثم ظهر عليه نوع من التغيير كما لو كان قد بلغ مرحلة النضج فجأة .

وقال «ان الانسان لايستطيع أن يتأكد»

فقلت له «اذن لم تكن متأكدا» وشعرت براحة وأنا أسمعه يتنهد بصوت خافت مر بيننا وكأنه طير طائر فى ظلال الليل .

وقال بشجاعة ، «كلا لم أكن متأكدا ، فلقد كان ذلك الحادث يشبه تلك القصة التعسة التى افتعلوها . فلم تكن كذبا ، ثم انها لم تكن صدقا أيضا . بل كانت شيئا ... ان الانسان يسهل عليه أن يتعرف على كذبة خالصة . ولكنه لم يكن هناك ما يفصل بين الحق والباطل فى هذه المسألة أكثر من سمك ورقة رقيقة »

وسألته : «وماذا كنت تريد أكثر من ذلك؟» ولكنى الآن ...
تكلمت بصوت خافت الى درجة أنه لم يسمع ماقلت • وكان يمضى فى مناقشته وكأن الحياة كانت شبكة من الطرق تفصلها شقوق واسعة فى الأرض وقال بصوت فيه شيء من المنطق •

«فلنفرض أننى لم أفعل ، أعنى فلنفرض اننى لم أغادر السفينة ••• حسنا •• ماذا تظن المدة التى كنت سأقضيها على سطحها هناك ؟ دقيقة ، نصف دقيقة ؟ أصغ الى •• فى مدى ثلاثين ثانية ، كما كنت واثقا عندئذ كنت سأجد نفسى فى الماء ••وهل تظننى فى هذه الحالة كنت سأتردد فى أن أمسك بأول شيء فى طريقى ، كمجداف أو حزام للنجاة أو اطار من الخشب أو أى شيء من هذا القبيل ؟ ألم تكن تفعل ذلك أنت ؟»

فقاطعته قائلا «وبذلك تنقذ حياتك ؟»

فأجاب «كان ذلك سيكون قصدى بالطبع وهو أكثر مما قصدت •• حين قفزت » وقبل أن ينطق بهذه الكلمة أصابته رعشة كمن يوشك على شرب دواء مقيء • ثم نطق بها بجهد جهيد هز كيانه وكان من تأثيره الذى خيل الى أنه يسرى على أمواج الأثير أن جعل جسدى ينتفض قليلا على المقعد • ثم حدجنى ببصره وهو يخفض عينيه الى وصاح «الا تصدقنى ؟ •• اننى اقسم لك •• يا للعنة ••• لقد دعوتنى الى هنا لأتكلم و•• أنه يجب عليك •• لقدوعدت أن تصدقنى فقلت له فى لهجة

رصينة هدأت من روعه بعض الشيء .. «طبعا انني أصدقك» وقال «أرجو أن تسامحنى فانى ماكنت لأحدثك عن كل هذا بالطبع ان لم تكن «جنتلمان» ومن السهل على أن أعرف «الجنتلمان» حين أراه .. ولأننى ... لأننى أنا أيضا «جنتلمان» .. وقلت له بسرعة : «نعم نعم» . وكان ينظر الى وجهى فى ثبات ثم تحول عن النظر الى فى بطء وقال « انك تفهم الآن لماذا لم .. لماذا لم أهرب كالآخرين لأننى لم أكن أنوى ان أخضع لاحساس الرعب بسبب مافعلت ثم اننى لو لم اغادر السفينة لكنت بذلت كل مافى وسعى لانقاذ نفسى . فلقد حدث كثيرا أن ظل الكثيرون طافين فى عرض البحر لمدة ساعات ثم وجدوا من يلتقطهم ولم يصبهم ضرر يذكر نتيجة لهذه التجربة . ولربما كنت أكثر من غيرى قدرة على الاحتمال والاستمرار فى المقاومة . وليس هناك ما أشكو منه فى قلبى فهو قوى سليم» ثم سحب يده اليمنى من جيبه وكان للضربة التى وجهها الى صدره صدى كصوت الانفجار المكتوم تردد فى سكون الليل .

وقلت أنا «نعم لاشك أن قلبك سليم» ثم أخذ يفكر ورجلاه تبعد احداهما قليلا عن الأخرى وذقنه الى اسفل وقال «قيد شعرة فقط . نعم قيد شعرة فقط بين هذا وذاك وفى ذلك الوقت ... »

وقلت له بشيء من الشراسة : « انه لمن الصعب أن يرى الانسان الشعرة فى منتصف الليل • وعلى ذلك فقد غادرت السفينة فى الحال أليس كذلك ؟ » •• أتفهمون ما أعنى حين أتحدث عن العلاقة الوثيقة بين رجال البحر ؟ ولقد أثار فى هذا الشاب شعورا بالغضب والضيق كما لو كان قد سرق منى عن طريق الخديعة فرصة جميلة للاحتفاظ بأوهامى الأولى عن البحر ، كما لو كان قد انتزع من حياتنا المشتركة فى هذه المهنة ومضة المجد الأخيرة ••

فصحح خطئى فى لهجة حادة مكررا كلمة «قفزت — قفزت» • وجعلنى ذلك أسائل نفسى عن المعنى الخبىء لهذه الكلمة الواضحة • ثم استمر قائلا : « حسن ! •• فربما كنت على حق ولعلنى لم أستطع أن أرى هذه الشعرة حينئذ ولكن كان لدى بعد ذلك الكثير من الوقت وأكثر مما يلزم من الضوء فى ذلك القارب وكنت أستطيع أن أفكر أيضا • فلومت لما علم أحد شيئا بالطبع ولكن هذه الحقيقة لم تهون الأمر على • ويجب أن تصدق ذلك أيضا • وأنا لم أكن اريد هذا الحديث الطويل •• لا •• نعم •• لن أكذب •• فالحقيقة اننى كنت أرغب فى هذا الحديث بل كان هو بعينه الشيء الذى كنت أريده وأنا جالس فى القارب • وهل كنت تظن انك كنت تستطيع أنت أو أى رجل آخر ان تجبرنى على ذلك • كلا ••• اننى لا أخشى أن أقول كل شيء ثم اننى لم أكن أخشى

التفكير ايضا لقد واجهت الحوادث بشجاعة وقررت ألا أهرب .. فى أول الأمر — فى الليل — فلو لم يضايقنى هؤلاء الرجال فلربما كنت رميت بنفسى الى البحر ... ولكن لا .. بحق السماء فما كنت أريد بعد ذلك أن أرضى شماتتهم وأثلج قلوبهم بموتى . ولقد صنعوا ما فيه الكفاية وما كنت أريد ان أجازيهم بالخير على هذا الصنيع . ثم افتعلوا تلك القصة ، وأظنهم صدقوها على ما أعتقد . وكنت أعلم الحقيقة وقررت أن أعيش معها مواجها لها وحيدا — مع نفسى . قررت ألا أقبل الهزيمة أمام شيء فظيع غير عادل كهذا . ثم ماذا كانت دلالة هذا الشيء ..؟ وأصدقك القول أننى كنت اشعر حينذاك بأننى فى كرب شديد أزهدنى فى الحياة ، ولكن أية فائدة كانت ترجى من التخاذل والهرب بهذه الطريقة . لقد شعرت بعقم هذا الحل للمشكلة فانى أعتقد أن ذلك الحل لم يكن لينهيها » .

وكان يتمشى جيئة وذهابا ولكنه استدار الى فجأة وهو ينطق بالكلمة الأخيرة .

وسألنى فى عنف . «ماذا تعتقد ؟» ومرت فترة ساد فيها السكون وشعرت فجأة بارهاق عميق يائس يحل بى كما لو كان صوته قد أيقظنى من حلم كنت أتجول فيه خلال مسافات

شاسعة فى الفضاء فى رحلة أجهدت نفسى وأرهقت جسدى .

وبعد فترة قليلة تمتم ثانية فى عناد «.. مثل ذلك الحل كان لن ينهى شيئا . كلا .. فالحل الوحيد كان هو مواجهة النتائج — مواجهتها وحيدا .. ومن أجل نفسى — وأن أنتظر فرصة أخرى — وان اكشف ... »

الفصل الثاني عشر

وكان كل شيء قد سكن الان في مدى سمعنا • وأخذ ضباب شعوره يتحرك بيننا كما لو كان قد اضطرب من تأثير صراعه مع نفسه • وكان جيم يظهر لى خلال الفتحات فى تلك الغلالة الرقيقة غير المرئية واضح الهيئة مليئا بجاذبية غامضة كأحد الشخوص الرمزية فى صورة من الصور • وكان هواء الليل البارد يجثم على أطرافى ثقيلا كقطع من الرخام •

وتمتمت قائلا : «انى أفهم ماتقول» وقد نطقت بهذه الكلمات لأبرهن لنفسى على قدرتى على الخروج من ذلك الاحساس بالجمود نتيجة للبرد ، أكثر مما كنت أقصد بها أى شيء آخر •

وقال جيم « وكانت السفينة « أفونديل » قد التقطتنا قبل غروب الشمس بقليل ، وحضرت الينا وهى تمخر عباب البحر فى خط مستقيم الى حيث كنا وما كان علينا الا أن نجلس وننتظر » •••

وقال بعد فترة صمت طويلة : «ورووا قصتهم » ثم ساد

ذلك السكون المقبض مرة ثانية ثم أضاف «وحينذاك كنت أنا الوحيد الذى يعلم ما قررت أن أفعله ..»

فهمست اليه قائلا «ولكنك لم تقل شيئا حينذاك »

فأجاب بنفس الصوت الهامس «وماذا كنت أستطيع أن أقول ؟ ان ما قالوه كان واضحا بما فيه الكفاية وكن قطيعا أيضا بما فيه الكفاية «كانت الصدمة خفيفة فأوقفنا السفينة . وعرفنا على وجه التحقيق مدى ما أصاب السفينة من عطب وابتدأنا نستعد لانزال القوارب دون أن نخلق جوا من الفزع . ثم ونحن ننزل القارب الأول هبطت السفينة بفعل العاصفة وغاصت فى البحر كأنها قطعة من الرصاص» .. وأمال رأسه وارتعشت شفتاه وهو ينظر الى عينى مباشرة وقال وعلامات الهم مرسومة على وجهه «لقد قفزت أليس كذلك ؟ وهذه هى الحقيقة التى يجب أن أعيش معها أما القصة فلم تكن تهمنى » ثم شبك يديه لحظة ونظر يمينة ويسرة فى الظلام وقال وهو يتأثىء «لقد كانت قصة لخداع الموتى »

وقلت : «ولكن لم يكن هناك موتى»

فابتعدعنى حين نطقت بهذه الكلمات . وهذه هى الصورة الوحيدة التى أستطيع أن أصف بها ما حدث . وبعد لحظة رأيت ظهره قريبا من الحاجز ووقف هناك ردحا من الزمن كما

لو كان معجبا بنقاء الليل وما يخيم عليه من سـكينة • وكان هناك شجيرة مزهرة تنشر حولنا عبيرها القوى خلال الهـواء الرطب • ثم رجع الى فى خطوات سريعة وقال فى عناد شديد « وذلك لايهم أيضا »

فوافقت على ذلك قائلا : «ربما لا » • وبدأت أعتقـد اننى عاجز عن فهمه وأسائل نفسى ماذا أعرف عنه •

وقال : «موتى أو لا موتى فاننى لا أسـتطيع أن أبرىء نفسى •• ثم اننى يجب ان أعيش أليس كذلك ؟ »

فتمتمت « هذا صحيح اذا كنت تنظر الى المسألة من هـذه الناحية »

ثم رمى الى بالكلمات الآتية بدون اكتراث وهو يفـكر فى شىء آخر «لقد سررت طبعا» • ثم قال وهو ينطق ببطءويرفع رأسه «ثم كشف السر وظهرت الحقيقة أتعلم ماذا كان شعورى الأول حين سمعت الأخبار ؟ لقد شعرت بالارتياح ، شـعرت بالارتياح حين علمت أن تلك الصرخات • هل أخبرتك منقبل أننى سمعت صرخات ؟ كـلا ؟ حسنا ، لقد سـمعت صرخات تطلب الاغاثة •• صرخات حملتها الى الريح مع رذاذ المطر • وقد يكون ذلك خيالا • ولكن ما أغبانى فلميسمع الآخرون تلك الصرخات لأننى سألتهم بعد ذلك فأجابوا جميعا بالنفى ، ولكننى كنت أسمعها حتى وقت سـؤالى لهم •• ولعلنى كنت

قد علمت الحقيقة لو فكرت قليلا ، ولكنى لم أكن أفكر بل كنت أصغى فقط . كانت صرخات خافتة يوما بعد يوم .. ثم جاء ذلك المولد وتحدث الى «باتنا — الزورق الفرنسى المسلح .. سحب السفينة سالمة الى عدن .. المحاكمة ... مكتب وزارة البحرية ... دار البحارة ... الاستعداد لاطعامك وايوائك .. » ومشيت معه وارتحت الى السكون . وسألت نفسى عن هذه الصرخات وقلت اذن لم تكن هناك صرخات ، اذن هو محض خيال . وكان على أن أصدقه . ولم أعد أستطيع أن اسمع شيئا أكثر من ذلك وسألت نفسى عما بقى لى من الزمن قبل أن أنهار . فلقد أخذت هذه الصرخات تشتد ، أعنى انها لم تعد خافتة كما كانت بل علت وارتفعت» ثم استغرق فى التفكير . آتذر شىء بتتث بتتثب

وبعد ذلك استأنف حديثه المنفرد قائلا «ولكن معنى ذلك أننى لم أسمع شيئا .. حسنا فليكن ولكن ماذا عن الاضواء .. لقد اختفت الاضواء .. لم نعد نراها ، لم تكن هناك .. ولو كانت هناك لما ترددت فى الرجوع اليها عائما . مما لاشك فيه أننى كنت قد رجعت الى جانب السفينة ، ورجوتهم فى السماح لى بالصعود اليها .. ولكنت قد وجدت فرصتى حينذاك ؟... وبأى حق تشك فى صحة هذا الكلام .. ولكن ماذا يمكنك أن تعلم عن حقيقة شعورى حينذاك ؟... وبأى حق تشك فيه ؟.. لقد كدت أن أرجع الى مكان السفينة

حتى وأنا لا أرى الانوار ، وحتى وأنا اظن أنها قد غرقت .. ألا تستطيع ان تفهم أننى لو كنت قد رأيت قبسا واحدا من الضوء لما كنت ترانى هنا ؟ ولكنك ترانى هنا الآن ، ثم تشك أيضا » .

فهززت رأسى بالنفى . وكانت مسألة الأضواء التى اختفت والقارب لايبعد عن السفينة بأكثر من ربع ميل ، موضوع مناقشة طويلة فى المحكمة . وكان جيم قد أصر على أن الأضواء كانت قد اختفت تماما بعد أن انقطع سقوط المطر فى المرة الأولى . وكان رفقاؤه قد أكدوا ذلك أيضا لضباط السفينة «أفوندبل» . ولكن الناس بالطبع كانوا يهزون رؤوسهم ويبتسمون . وكان أحد ربابنة السفن المسنين يجلس الى جانبى فى المحكمة . فدغدغ أذنى بلحيته البيضاء وهو يهمس فيها قائلا ، «انهم بالطبع يكذبون» . ولكن الحقيقة أن أحدا لم يكذب ولا حتى المهندس الأول حين قال ان ضوء الصارى سقط كعود من الثقاب ترمى به الى الأرض ، أو على الأقل لم يكذب عامدا ، فرجل فى مثل حالة الرعب التى كان فيها كان من الممكن أن يرى شرارة فى طرف عينه وهى تطفو حين يسترق نظرة سريعة فوق كتفه . فلم يروا ضوءا من أى نوع كان وهم لايزالون على مدى قريب من السفينة ولم يجدوا تفسيرا آخر لهذه الظاهرة الا أن السفينة قد غاصت . وكان

ذلك تفسيرا واضحا ومريحا • فلقد حدث ماتوقعوه بسرعة شديدة • وبرر ذلك تعجلهم فى هذا التفسير • ولم يكن من العجيب أنهم قد ارتاحوا لذلك ولم يبحثوا عن سبب آخر • ولكن التفسير الصحيح لتلك الظاهرة كان فى غاية من البساطة، وحين أقترحه بريرلى كفت المحكمة عن الاهتمام بهذه المسألة واعتبرتها منتهية • ولعلكم تتذكرون أن السفينة كانت قد توقفت ومقدمتها خلال الليل فى الاتجاه الذى حرص رجلا الدفة على أن يبقوها فيه • وقد ارتفعت مؤخرتها وهبطت مقدمتها فى الماء بسبب غمر مياه البحر لخزانها الأمامى • ولما كانت على هذه الحالة من العجز حين دهمتها العاصفة بعنفها فى نقطة متوسطة فيها فقد استدارت السفينة حول نفسها بعنف وسرعة وصارت مقدمتها فى اتجاه الريح كما يحدث لسفينة مشدودة الى مراسيها • وبتغيير وضعها على هذه الصورة احتجبت جميع الأضواء عن القارب بانتقالها الى الاتجاه المعاكس لاتجاه الريح • ومن المعقول انه لو ظلت الأضواء أمام أعينهم لكان لها أثر عميق صامت عليهم ؛ ولكان لضوئها الذى اختفى فى ظلام السحاب أثر كأثر تلك النظرات الانسانية التى لها هذه القدرة الغامضة على استثارة الشفقة وايقاظ الضمير النائم ولاستطاعت تلك الاضواء أن تقول «اننى هنا ••• اننى لا أزال هنا » •• وماذا كنا نتوقع أن ترى أعين هؤلاء الرجال الذين أصابهم القدر بهذه الضربة القاصمة؟ ولكن

السفينة كانت فى الحقيقة قــد أدارت لهم ظهرها احتقـــارا لمصيرهم • وكانت قد استدارت حول نفسها محملة بهذه الأنفس لتنظر شزرا وبعناد الى خطر ذلك البحر الذى طغى عليها ••• الى ذلك الخطر الذى نجت منه بأعجوبة لتنهى أيامها فى مقبرة السفن الجافة كما لو كان قد كتب لها فى لوح القدر أن تموت نكرة تحت ضربات المطارق • أما عن المكتوب فى لوح القدر عن مصير هؤلاء الحجاج من النهايات المختلفة فذلك مالا أعرف عنه شيئا • أما عن مستقبلهم الذى كان سيتلو الحاضر مباشرة فقد تصادف أن مر بالقرب منهم فى حوالى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى قارب فرنسى مسلح فى طريقه الى الوطن من بلدة «ريونيون» ولقد أصبح تقرير قائد هذا القارب عن هذه الحادثة من الممتلكات العــامة بعد ذلك • وكان هـــذا القومندان قد حاد قليلا عن طريقه ليستطلع أمر هذه البــاخرة التى تطفو وهى فى وضع خطير ومقدمتها هابطة فى الماء على بحر ساكن غائم • وكانت تخفق على الصارى الرئيسى للسفينة راية تحمل فى طرفها الاسفل صورة العلم الانجليزى (وكـــان رئيس البحارة على قدر من الذكاء جعله يرفع راية الاستغاثة عند مشرق الشمس) ولكن الطهاة كانوا يطبخون طعامهم أمام أفرانهم الصغيرة فى مقدمة السفينة كالعادة • وكانت أسـطح السفينة مكتظة كأنها حظـيرة للاغنام • فكان هنـــاك أناس يجلسون على طول حواجزها • وقد التصـقت أجسادهم على

سطح القيادة كما لو كانت كتلة صلبة • وحين اقترب القارب المسلح من مقدمة السفينة كانت مئات الأعين تحدق فيه ، ولكن لم يرتفع صوت واحد ، وكأن تأثيرا سحريا قد ألجم السنتهم فهم لاينطقون ••

وناداهم القومندان الفرنسى ولكنه لميتلق جوابا يفهمه • فقرر أن يرسل اليهم قاربا بعد أن تأكد من خلال منظاره أن هيئة المجتمعين فوق أسطح السفينة لا تدل على اصابتهم بالطاعون • وصعد ضابطان الى سطح السفينة واستمعا الى رئيس البحارة وحاولا ان يتكلما مع الرجل العربى ولكنهما لم يفهما شيئا من هذا أو ذاك • ولكن حالة السفينة الخطيرة كانت من الوضوح بمافيه الكفاية ثم انه كان قد أدهشهما اكتشاف رجل أبيض ميت قد انحنى على نفسه فى سلام على سطح القيادة «لقد حرنا كثيرا فى معرفة سبب وجود هذه الجثة» • وكان ذلك هو ماسمعته بعد مرور زمن طويل على هذا الحادث من فم ملازم فرنسى عجوز قابلته فى عصر أحد الأيام بمحض الصدفة فى «سدنى» فى احدى المقاهى وكان ذلك الرجل يتذكر هذا الحادث جيدا • وفى الواقع أيها السادة أن هذا الحادث كان له قدرة عجيبة على تحدى قصر الذاكرة ومرور الزمن والذى يبدو لى أنه يعيش بنوع من الحيوية غير الطبيعية فى عقول الناس وعلى أطراف ألسنتهم • وكان

من حظى المشكوك فيه أننى كثيرا ما التقيت به بعد مرور أعوام كثيرة وعلى بعد آلاف من الأميال ، وهو يتخذ طريقه الى حديث لا صلة له به ، ويظهر الى السطح من خلال أشارات هى أبعد ما تكون عنه . ولعل الدليل على ما أقول هو أنه حديث الليلة بيننا أليس كذلك ؟ وهذا على الرغم من أننى البحار الوحيد بينكم والرجل الوحيد الذى يعتبر هذا الحديث جزءا من ذكرياته . ورغم ذلك فلقد عرف طريقه على السنتنا .. ولكنى أعلم أنه لو تصادف وجود رجلين لا يعرف أحدهما الاخر ، ولكن كلا منهما كان على علم بذلك الحادث ثم التقى هذان الرجلان على أى بقعة من الارض ،فمن المؤكد انهما سيطرقان ذلك الموضوع قبل أن يفترقا . ولم أكن قد رأيت ذلك الرجل الفرنسى من قبل . وبعد نهاية ساعة من الزمان كنا قد افترقنا الى غير لقاء مدى الحياة . ولم يبد عليه حتى أنه من النوع الثرثار فلقد كان رجلا هادئا قوى البنيان فى حلة رسمية كانت فى حاجة الى مكواة ، وهو يجلس فى كسل وأمامه كوب امتلأ الى النصف بشراب داكن اللون . وكانت علامتا رقبته المذهبتان على كتفيه قد علاهما الصدأ بعض الشىء . كما كان خداه الحليقان عريضين شاحبين . وقد خيل الى أنه من صنف الرجال الذين يتعاطون النشوق — أتفهمون ما أعنى ؟ أنى لا أقول انه يتعطى النشوق ولكنى اعنى أن عادة تعاطى النشوق كانت تصلح له . وبدأت

معرفتنا حين ناولنى عددا من جريدة «هوم نيوز» عبر المائدة ، ولم أكن أريد القراءة ولكنى قلت «أشكرك» ثم تبادلنا بعض الملاحظات البريئة . وفجأة ــ وقبل أن أعرف كيف حدث ذلك ــ وجدنا أنفسنا قد تعمقنا فى مناقشة هذا الموضوع ووجدته يقص على « شدة حيرتهم بسبب وجود هذه الجثة » وظهر من حديثه أنه كان أحد الضابطين اللذين صعدا الى السفينة .

وفى ذلك المكان الذى كنا نجلس فيه كان المرء يستطيع أن يجد الانواع المختلفة من المشروبات الاجنبية التى كان يطلبها ضباط البحر من زوار هذا الميناء . وأخذ الفرنسى جرعة من شرابه الدكن الذى كان له لون الدواء ، والذى كان فى أغلب الظن شرابا لا ضرر منه ، من عصير التوت المخمر الممزوج بالماء ونظر الى كوبه بعين وحدة وهز رأسه قليلا ثم قال فى مزيج عجيب من التفكير وعدم الاكتراث : « لقد كان من المستحيل علينا أن نفهم هذا السر الغامض أتفهمنى ؟ » وكنت أستطيع دون صعوبة على الاطلاق أن أتصور أنه كان من المستحيل عليهم فهم ذلك . فلم يكن هناك رجل واحد على القارب الفرنسى يعرف ما يكفى من الانجليزية لكى يفهم االقصة كما سردها رئيس البحار ، ثم انه كانت هناك ضجة كبيرة حول الضابطين . وقال الفرنسى ، «لقد ازدحموا حولنا وكانت هناك دائرة حول الرجل الميت أيضا ، وكان علينا أن نهتم أولا بما لا يحتمل الانتظار . وكان هؤلاء الناس قد بدأوا يظهرون

علامات الهياج ـ وبحق السماء ! وفى وسط جماعة من هذا الصنف من الناس ، أتدرى ماذا أعنى ؟ » ونطق بهذه الكلمات الاخيرة فى نوع من التسامح الفلسفى . أما فيمـــا يختص بالخزان الامامى فانه نصح قومندانه بان آمن الاشياء هو تركه وشأنه فلقد كان منظره لا يوحى بأمل على الاطلاق ثم أحضروا حبلين غليظين الى ســطح السفينة بأقصى ما أمــكنهم من السرعة وربطوهما فى باتنا ثم سحبوها وراءهم ومؤخرتهـا الى الامام . ولم يخل هــذا الاجـراء من الحكمة فى تلك الظروف حيث أن الدفة كانت خارج المـاء بمسافة تجعلهـا قليلة الجدوى فى توجيه السفينة ثم ان هذه المنــاورة قد خففت الضغط على خزانها الامامى الذى قـال الفـرنسى فى اختياره الموفق الرصين للكلمات انه كان يتطلب «عنـاية كبيرة» ولم أستطع أن أمنع نفسى من التفكير فى أن هــذا الصاحب الجديد كان له يد فى كل هذه الترتيبات فقد كان يظهر عليه أنه من الضباط الذين يعتمد عليهم ، وان كانت السن قد حدت من نشـاطه الآن .

وكان يبدو عليه أيضا مظهر رجال البحر فى صـورة من الصور رغم أنه ـ وهو يجلس هناك وأصابع يديه السميكة مشبكة فوق بطنه ـ كان يذكرك بأحد قساوسة القـرى الهادئى المظهر ممن يتعاطون النشوق . أولئـك الذين تصب فى آذانهم الخطايا والعذاب وتأنيب الضمير مما ترتكبه وتحس

به أجيال متعاقبة من الفلاحين ، أولئـك الذين كانت التعبيرات الهادئة على وجوههم ، تشبه غلالة ألقيت على السر المغـلق على الانسان فى فهم حقيقة الالم والعذاب • وكان يخيـل الى أنه كان يجب أن يرتدى ثوبا ممزقا من تلك الاثـواب الهكنوتية السوداء تصل أزراره المقفلة الى ما تحت ذقنـه المكتظ بدلا من حلته العسكرية الطويلة بعـلامات رتبتـه التى على كتفيها ، وبازرارها النحاسية • وكان صـدره العريض يمتلىء بالهواء فى انتظام ، وهو يحـدثنى بقصته • ويقول بأن ذلك كان عملا من أشق الاعمال وأخطرها ، كما أستطيع أن أصور ذلك لنفسى «دون شك» بصفتى أحـد رجال البحر • وحين حان أوان تفريغ الهواء من صـدره ، مال بجسده قليلا الى وزم شفتيه الحليقتين وترك الهواء يخرج منهما فى صفير هادى • واستمر فى حديثـة قائلا «أن من حسن الحظ أن البحر كان مسطحا كهذه المائدة • ولم تكن هناك ريح أكثر مما يوجد فى هذه الغرفة ••» وشـعرت ساعتئذ بأن المكان كان حقا فاسد الهواء شديد الحـرارة الى درجة لاتحتمل ، وشعرت بوجهى يحترق • كما لو كنت فتى يافعا يحس بالاضطراب ويحمر وجهه من الخجل • ثـم قال أنهم اتجهوا توا الى أقرب ميناء انجليزى « بالطبـع » حيث انتهت مسئوليتهم «والحمد لله» •• ثم نفخ أوداجـه قليلا •• وقال « لأنه يجب أن تعلم أننا كنا طـوال ذلك

الوقت الذى استغرقه سحب السفينة ، نحتفظ بضابطين صغيرين الى جانب الحبال ومعهما فأساهما ليفصلا السفينة فى حالة ما اذا لو .. » ثم أسبل جفنيه الثقيلين معبرا بهذه الحركة تعبيرا وافيا عن المعنى المقصود . ثم قال «وماذا كنت تريدنا أن نصنع . اننا كنا نبذل مافى وسعنا . » ثم استطاع للحظة أن يضفى على سكونه المفكر جوا من الاستسلام ثم قال «ضابطان صغيران يقفان هناك مدة ثلاثين ساعة ... ضابطان ! وكرر هذه الكلمة وهو يرفع يده اليمنى قليلا مشيرا بأصبعين منها . وكانت هذه أول حركة ليديه على الاطلاق فى أثناء هذا الحديث . وقد أعطتنى هذه الحركة الفرصة لملاحظة وجود أثر جرح قديم له شكل النجمة على ظهر يده وكان واضحا أن ذلك كان من تأثير رصاصة أصابته ، ثم وكأن حدة بصرى قد زادت بسبب هذا الاكتشاف فاننى رأيت أيضا خطا طويلا لأثر جرح قديم على وجهه ، يبدأ فى أعلى خده ثم يختفى تحت شعره الابيض القصير فى جانب رأسه ، ولعله كان قطعا غير عميق من حربة أو سيف . وشبك يديه على بطنه ثانية ثم قال «ومكثت على ظهر تلك السفينة التى تدعى .. التى تدعى .. أن ذاكرتى قد ولت .. آه .. «باتنا» .. نعم «باتنا» أشكرك من الغريب أن أنسى ذلك الاسم لقد مكثت على ظهر هذه السفينة ثلاثين ساعة ... »

وقلت متعجبا «أنت الذي مكثت!» ثم رأيته وأنا أحدق فى يديه يزم شفتيه قليلا ، ولكن بلا صفير هذه المرة . وهو يقول رافعا حاجبيه فى هدوء ودون انفعال : « نعم فلقد رئى أن من الحكمة أن يبقى أحد الضباط فى السفينة ليراقب الحالة وليستطيع المسئولون الاتصال بالسفينة عن طريق الاشارة . وبناء على ما أشرت به أيضا فقد اتخذنا بضعة اجراءات أخرى ، فكانت قوارب النجاة فى القارب الكبير مستعدة للعمل . ثم انى اتخذت اجراءاتى ايضا على ظهر السفينة .. وهذا هو مافعلنا وكان مافى أمكاننا أن نفعله .. وكان عملا يستدعى الانتباه والدقة .. ثلاثون ساعة أعدوا لى خلالها شيئا من الطعام . أما عن النبيذ فلم يكن لديهم نقطة منه » وبطريقة عجيبة ، ودون أن يغير التعبير الهادىء على وجهه . أمكنه أن يعرب لى عن شعوره العميق بالاشمئزاز وهو يقول « اننى ـ كما تستطيع أن تتصور لا أشعر بطعم لما أتذوقه اذا افتقدت كوبتى من النبيذ وانا أتناول الطعام » ..

وكنت أخشى أن يتمادى فى شكواه من هذه المضايقة ، لأنه رغما عن أنه لم يحرك طرفا من أطرافه ، ولا عضلة من عضلات وجهه . فقد جعلنى أحس بضيقه الشديد لمجرد تذكره لذلك ولكن يظهر أنه كان قد نسى كل شىء عنه . ثم

سلموا السفينة وأخلوا مسئوليتهم الى «سلطات الميناء» على حد تعبيره • وقد أدهشه ذلك الهدوء المثير الذى تلقت به السلطات المذكورة هذا الحادث • وقال معلقا على ذلك «لقد جعلنى هذا الهدوء أظن أن مثل ذلك الحادث العجيب ، يقع لهم فى كل يوم من أيام حياتهم • انكم حقا فى غاية الغرابة أيها الانجليز «وكان يتفوه بهذه الكلمات وظهره مسند الى الحائط ويخيل اليك أنه هو نفسه كان لا يمكن أن يزيد مايظهر على وجهه من علامات الانفعال عما يمكن أن يظهر على كيس من الدقيق • وتصادف وجود سفينة حربية ، وباخرة من بواخر البحرية الهنديةفى الميناء فى ذلك الوقت •• ولم يخف الرجل الفرنسى اعجابه بالكفاءة العظيمة التى أبدتها قوارب هاتين السفينتين فى نقل ركاب السفينة باتنا الى الشاطىء •• ومن العجيب أن سكونه وثقل حركاته النادرة كانت لاتترك زيادة لمستزيد فى التعبير بوضوح كامل عما يريد ، وكان فيها قدرة غامضة تكاد تبلغ حد الاعجاز فى انتاج أثر مذهل بطريقته الغامضه التى لا يستطيع المرء أن يراها ، وعلى هذا فقد كانت تلك هى آخر كلمة فى الفن الرفيع • ثم قال «خمس وعشرون دقيقة ، وساعتى فى يدى • خمس وعشرون ، لاأكثر » ••كان يتفوه بهذه الكلمات وهو يفك أصابعه من بعضها البعض ثم يشبكها

ثابيه دون أن يرفع يديه من فوق بطنه وكانت تلك الحركه أبلغ مما لا يقاس فى تأثيرها عما لو كان قدرفع ذراعيه فى دهشة نحو السماء .. «وكان كل هؤلاء الناس قد وصلو الى الشاطىء مع حاجياتهم الصغيرة ولم يبق على السفينة غير بعض البحـــارة لحراستها ، وغير تلك الجثة التى أثارت اهتمامنا . وكل ذلك فى خمس وعشرين دقيقة » .. وكان يخيل الى ، وهـــو يتفوه بهذه الكلمات . وقد أرخى عينيه الى أسفل وأمال رأســـه قليلا الى أحد الجانبين — أنه كان يتذوق الطعـــم اللذيذ لهذا العمل الحاسم ويجريه على لسانه فى لذة العارفين ، كما يفعل الذواقة الخبير بطعام طيب . وكان يوحى الى المرء دون الاستعانة بأية حركة أخرى أن حكمه او موافقته كانت شيئا جديرا بالاحترام والتقدير العظيمين . ثم قال لى وهـــــو يعيد نفسه الى حالة السكون التى كان استمرارها لا ينقطع . أنه حيث ان الأوامر كانت تقضى عليهم بالاسراع الى طولون فقد اضطروا الى مغادرة الميناء بعد ساعتين ، وعـــلى ذلك . « فقد ظلت هناك أشياء كثيرة غامضة فى هذا الحادث الـــذى أعتبره من أهم ماحدث فى حياتى ، لم يتســـع لى الوقـت لكشف خبايا . »

الفصل الثالث عشر

وبعد هذه الكلمات ودون أن يغير من وضعه ترك نفسه للاسترخاء بشكل سلبى ، فحذوت حذوه . وفجأة ولكن دون حركة عنيفة وكأنما جاء الوقت المحدد لاخراج صوته الخشن المعتدل النبرات من سكونه ، نطق بالعبارة الاتية . «يالهى! كم يمضى الوقت سريعا !» ولم يكن فى تلك العبارة شىء يبعث على الاستغراب مطلقا ، ولكن النطق بها كان قد تصادف حدوثه فى لحظة من لحظات البصيرة عندى . وانه لمن أعجب الاشياء حقا كيف نسير فى الحياة وأعيننا نصف مغمضة وآذاننا صماء وأفكارنا هاجعة هامدة. ولعل ذلك من حسن الحظ ، فلربما كانت تلك البلادة فى احساسنا هى التى تخفف من أعباء الحياة عند الغالبية العظمى من الناس، وتجعلهم يرحبون بها . ولكن رغم ذلك ، فلابد أنها قلة قليلة منا هى التى لم تعرف تلك اللحظة من لحظات الاستيقاظ النادرة التى نرى ونسمع ونفهم فيها كل شىء ـ فى ومضة عين ، قبل أن يحتوينا ذلك النوم اللذيذ مرة ثانية . وكنت قد رفعت اليه عينى وهو يتكلم ، فرأيته وكأننى لم أره قط من قبل .. رأيت ذقنه ساقطا على صدره

ورأيت الثنيات التى لا تسر العين فى حلتـــه ، ورأيت يديه مشبكتين فى وضعه الساكن . وخيل الى أن كل تلك الاشياء توحى وتومىء بطريقة عجيبة الى أنه كان قد ترك منســـيا هناك . نعم ، حقا لقدمر الزمان . حقا لقد ادركه الزمان ثـــم تركه وراءه بمسافة بعيدة لا أمل فى قطعها . وترك معـــه بضع هدايا لا قيمة لها : ترك له شعره الذى كان رماديـــا فى لون الحديد ، ووجهه . الذى صبغته الشمس . بما يظهر عليه من التعب الشديد ، وأخيرا ترك له آثر لجرحين ، وزوجا من رباطات الكتف الصادئة . رغم أنه كان رجلا من أولئـــك الرجال الصامدين الذين يعتمد عليهم ، والذين هم الخـــام الذى يبنى الشهرات العظيمة . نعم .. لقد كان أحد أولئك الرجال الذين لا عدد لهم ، ممن يدفنون دون طبل ولا زمر ، تحت أساسات النصب التى تقام لكل عمل عظيم . وقال وهو يبعد كتفيه مسافة بوصتين عن الحائط ليقـــدم لى نفسه ، «اننى الآن ملازم ثالث فى السفينة «فكتوريز» (وكانت هى السفينة التى تحمل علم الأميرال لذلك الجزء من الأســطول الفرنسى فى المحيط الهادى فى ذلك الوقت) وانحنيت قليـــلا على جانبى من المائدة وقلت له اننى أقود ســـفينة تجـــارية هى راسية الان فى خليج «رشكترز» .وقال انه لاحظ وجودها وهى سفينة جميلة صغيرة .. وكان مجاملا جدا بطريقته التى

لا انفعال فيها • ولقد خيل الى أنه قد ذهب الى مدى بعيد في هذه المجاملة جعله يهز رأسه وهو يكرر خلال تنفسه الواضح في حركة صدره : «نعم • نعم •• سفينة صغيرة طليت بلون أسود ، وهى جميلة جدا ••• جميلة جدا» ثم أدار جسده ببطء بعد فترة ليواجه الباب الزجاجى على يميننا وقال ، وهو ينظر الى الشارع ، «بلد مملة» • وكان يوما مشرقا تهب فيه ريح من الجنوب • وكنا نستطيع من مكاننا أن نرى المارة من الرجال والنساء ، والرياح تدفعهم الى جوانب الطريق ، وأن نرى واجها البيوت التى تضيئها الشمس عبر الطريق وقد اختفت ملامحها وراء سحب طويلة من التراب •• وقال ، « لقد نزلت الى الشاطىء لأحرك عضلاتى قليلا ، ولكن ••» ولم يكمل جملته، ورجع ثانية الى حالة استرخائه العميق • ثم قال بعد ذلك وعليه علامات التفكير ، «أرجوك أن تخبرنى ، ماذا كان وراء هذه الحادثة ؟ لقد كانت حادثة عجيبة • فهذه الجثة مثلا •• ثم الأشياء الاخرى • »

فقلت له ، «لقد كان هناك رجال أحياء أيضا وكان ذلك أعجب من وجود الجثة » •

وأبدى موافقته على ماقلت بصوت نصف مسموع وهو

يقول «لا شك .. لا شك .» وبعد ذلك ـ وكأنه يـزن الأمور ـ تمتم قائلا : «بالطبع» . ولم أبد أى صعوبة فى افادته بكل مااسترعى اهتمامى فى هذه المسألة ، وخيل الى أنه كان له الحق فى أن يعلم : ألم يمكث ثلاثين ساعة على ظهر باتنا ، ولم يرث القيادة فيها ؟ ان صح هذا المعنى ، وألم يفعل «الممكن» ؟ وكان يصغى الى وهو أشبه ما يكون بالقسيس . وفى صورة من الاستغراق الدينى ، ربما كانت توحى بها عيناه المسبلتان . ورفع حاجبيه مرة أو مرتين (ولكن دون أن يرفع جفنيه) كما لو كان يريد أن يقول : «ياللشيطان» ! وأخرج مرة من فمه صوتا يدل على عجبه وحين أتممت حديثى زم شفتيه بحركة ارادية مدروسة ، وأخرج صفيرا له رنة الأسف .

ولو كنت رأيت هذا الجمود الساكن فى أى انسان آخر ، لحسبته دليلا على الملل ، أو علامة على عدم الاكتراث ، ولكنه نجح بطريقته السرية الخاصة فى ان يجعل منه دليلا على تجاوبه العميق ، وامتلائه بالافكار القيمة كما تمتلىء البيضة بالطعام المفيد . ولم يزد ما قاله عن كلمتين اثنتين هما «مثيرجدا» . نطقهما فى أدب وبصوت لا يرتفع كثيرا عن الهمس . وقبل أن أفيق من خيبة أملى أضاف ، ولكن كما لو كان يتحدث الى

نفسه : « كذا وكذا » . وخيل الى أن ذقنه كان قدهبطالى أكثر من ذى قبل على صدره وأن ثقل جسده قد زاد على مقعده وكنت على وشك أن أسأله ماذا يعنى ، حين سرت فى جسده رعشة تحضيرية كأنها موجة صغيرة تراها على سطح ماء آسن حتى قبل أن تشعر بالريح . وقال بهدوء رصين « واذن فلقد هرب ذلك الشاب أيضا مع الآخرين »

ولا أعلم ما الذى جعلنى أبتسم ، وكانت تلك هى ابتسامتى الوحيدة الصادرة من أعماقى ، التى أتذكرها فيما يتعلق بجيم وكانت هذه العبارة البسيطة قد بدت لى مضحكة على صورة ما فى نصها الفرنسى . وفجأة بدأت أعجب بقدرة هذا الرجل على التمييز . لقد وضع يده على أهم نقطة فى الموضوع فى الحال ، وعرف الشىء الوحيد الذى كنت أهتم به فيه . وأحسست وكأننى أستشير خبيرا فى هذه القضية . فقد كان هدوءه الناضج الذى لا يتزعزع هدوء الخبير الذى يملك كل الحقائق والذى تبدو حيرة المرء فى عينه كما لو كانت من لعب الاطفال وقال متسامحا « آه !.. الشباب .. الشباب ، ولكن رغم ذلك فالمرء لايموت من ذلك » فسألته بسرعة « يموت من ماذا ؟ » فقال وهو يفسر ماقصد اليه ويأخذ جرعة من شرابه « من كونه خائفا »

ولاحظت أن ثلاثة من أصابع يده المجروحة كانت جامدة

ولا يمكن تحريك أحدها وحده ، وعلى هذا فلقد كان يمسك كأسه بطريقة تعوزها الرشاقة . ووضع الكأس على المائدة وقال ، « ان الانسان خائف دائما . ان الكلام سهل ولكن .. الخوف ، الخوف ـ أنظر الى ـ انه دائما هناك » ... ولمس صدره قريبا من زر نحاسى فى نفس الموضع الذى ضرب فيه جيم على صدره حين كان يحتج بأنه ليس هناك شىء يشكو منه فى قلبه . ولعلنى كنت قد أبديت ما يدل على اختلافى معه فى الرأى ، لانه ألح بعد ذلك وهو يقول ، «نعم! نعم! اننا نتكلم ونتكلم وهذا شىء جميل ، ولكننا نجد أننا لسنا ـ بعد كل هذا ـ امهر ولا أشجع من الآخرين .. الشجاعة ! هذه خاصية لا يمكن أن نتأكد من وجودها الا بامتحان . لقد زرت جميع بقاع الأرض ، وتعرفت على بعض الرجال الشجعان والرجال المشهورين أيضا ، ولكن لا تحكم بالسطحيات يا صديقى » . ثم أخذ رشفة من كأسه دون عناية واستمر فى حديثه « انك تعلم أنه لابد أن تكون شجاعا فى عملك لأن المهنة تتطلب منك ذلك ، أليس كذلك ؟ » وكان يريد أن يقنعنى بمنطقة «حسن ! ان أى رجل من هؤلاء الرجال ، أى رجل منهم ، سيعترف لك لو كان أمينا ، أن هناك نقطة ، نقطة يتخلى بعدها خير من فينا عن كل شىء . ولابد لك من أن تعيش مع هذه الحقيقة . ألا ترى ذلك ؟ ففى تجمعات خاصة للظروف لامناص من أن يحل

بك الخوف .. الخوف الفظيع . وحتى هؤلاء الذين لا يصدقون هذه الحقيقة ، فانه لا مناص لهم من الخوف أيضا ، الخوف من أنفسهم . نعم هذا هو الواقع ، ويجب أن تصدقني . فالذين في مثل سني يعرفون عما يتحدثون ! » .. ولقد أفرغ ما في نفسه من هذه الافكار وهو في سكون الجماد ، وكأنما قد اختارته الحكمة المجردة لسانا لها ، ثم أنه حين وصل الى هذه النقطة من حديثه زاد من تأثير تجريده وانعزاله عما يتحدث عنه بتحريك ابهاميه ببطء في حركة دائرية حول بعضهما البعض . واستمر في حديثه قائلا . « ان هذا واضح بحق السماء ، لانك حتى ان كنت قد عقدت العزم وصح رأيك على التصرف بشكل خاص فان صداعا بسيطا في رأسك أو مغصا في معدتك قد يكون كافيا لـ ... وخذني مثلا ان أردت ، فلقد جربت كل ذلك ... حسن فلقد حدث لي ، أنا الذي يتحدث اليك الآن ذات مرة .. »

ثم أفرغ كأسه في جوفه ورجع الى حركة ابهاميه . ورجع أخيرا الى حديثه وهو يقول بلهجة الحسم « لا ، لا ، ان الانسان لا يموت من ذلك » . ولما اكتشفت أنه لا ينوي الاستمرار في قصته ، شعرت بخيبة أمل شديدة وزاد من ذلك الشعور أن هذه القصة لم تكن من النوع الذي يستطيع الانسان ان يلح عليه في سرده . وجلست صامتا ، وكذلك هو وكأنما

لم يكن هناك شيء آخر أبعث لادخال السرور على نفسه . حتى ابهاماه كانا قد توقفا عن الحركة الآن .. ولكن شفتيه تحركتا فجأة بعد فترة واستمر فى حديثه بلهجته الهادئة قائلا ، « ان هذا صحيح . ان الانسان يولد جبانا .. ولاشك أن هذه احدى مصاعبه بحق السماء . والا كانت المسألة سهلة أكثر مما يجب. ولكن حكم العادة — حكم العادة وحكم الضرورة: وعيون الآخرين التى ترقبه .. كل هذه الاشياء تحفزه على التغلب على هذه الصعوبة .. وبعد ذلك كله هناك مثل الآخرين ممن لا يفضلونك ولكنهم رغما عن ذلك يقابلون الأحداث بقلب قوى وجنان ثابت أمام الناس .. »

ثم سكت

فقلت له « لعلك لاحظت ان ذلك الشاب كان يفتقد كل هذه الحوافز — فى تلك اللحظة على الأقل » .

فرفع حاجبيه علامة على الغفران وقال ، « انى لم أقل ان هذه الحوافز كانت ماثلة أمامه حينذاك — انى لم أقل ذلك .. ولربما كان ذلك الشاب على خلق عظيم .. على خلق عظيم» . وكرر هذه الجملة وكأنه يعانى قليلا من آثر الزكام فقلت ، «اننى لسعيد بأن أراك تنظر الى ذلك التصرف بتلك النظرة المتسامحة ولقد كان شعور الشاب نفسه عن هذا الموضوع مليئا بالأمل و .... »

واذا بقدميه تحت المائدة تتحركان وتقطع هذه الحركة حتى الحديث ثم اذا به يسحب جفنيه الثقيلين سحبا الى أعلى ، وأقول يسحبهما سحبا لأننى لا أجد وصفا آخر لهذه الحركة الارادية المتعمدة • وأخيرا استطعت أن أراه على حقيقته تماما • فرأيت أمامى حلقتين رماديتين ضيقتين كأنهما مصنوعتان من الصلب حول سواد انسان عينيه العميق • وكانت النظرة الحادة من ذلك الجسد الضخم توحى بكفاية عظيمة وكأنها حد موسى قاطع فى بلطة جندى • وقال فى أدب جم وقد ارتفعت يده ومال الى الأمام « عفوا ، أرجو أن تسمح لى ياسيدى •• ان كل ما قلته هو أن الانسان يمكنه أن يعيش وهو يعلم تمام العلم أن شجاعته لا تأتى اليه تلقائية من نفسها • وليس فى ذلك مايبعث على القلق الشديد • فحقيقة أخرى تضاف الى غيرها من الحقائق لايجب أن تجعل حياتنا مستحيلة ولكن الشرف ! الشرف ياسيدى !•• الشرف •• ذلك حقيقة أيضا !• اما عن قيمة الحياة حين يذهب الشرف •• » ونهض على قدميه حينذاك فى حركة سريعة عنيفة ثقيلة كثور أصيب بالذعر فنهض فجأة من رقدته الهادئة فوق العشب •• «أما عن قيمة الحياة حين يذهب الشرف ، كما فى تلك الحالة مثلا فانى لا أستطيع أن أبدى فى ذلك رأيا •• ليس لى رأى فى ذلك ياسيدى فتلك حالة أجهلها تمام الجهل •

وأنهضت نفسى على قدمى ايضا ، وحاول كلانا أن يضفى على سلوكه تجاه الاخر كل ما يستطيع من الأدب ، وأخـذ ينظر أحدنا الى الاخر فى صمت كما لو كنا دميتين خزفيتين لكلبين يواجه أحدهما الأخر على سطح المدفأة • عليه اللعنة ! لقد فجر الفقاعة ••• وكانت الآفة التى تتربص بحـديث الرجال ، ألا وهى عدم الجدوى قد أصابت حديثنـــا الآن • وجعلت منـه مجرد أصوات جوفاء • فقلت له وأنا أبتسم ابتسامة باهتـه « حسنا ، أفنستطيع اذن آن نقول انك تستطيع أن تصل الى رأى قاطع فى هذه المسألة ؟ » فبدا عليه أنه يستعد للاجابة على الفور ، ولكنه غير رأيه حين تكلم وقال : «انه سؤال دقيـق ياسيدى • ولست أعتقد اننى أهل للاجابة عليه فذلك فـوق قدرتى وعلى هذا فأنا لا أفكر فيه » ثم انحنى فوق قبعته التى كان يمسك بمقدمتها بين ابهامه وسبابته فى يده المجروحة أمامه وانحنيت أنا ايضا • ثم انحنينا معا • وخطا احدنا نحو الآخر ، ونحن نلتزم بكل الطقوس المرعية للسلوك فى مثـــل هذه المناسبات ، بينما كان يرقبنا ندل الحانة القذر من بعيـــد بعين ناقدة كما لو كان اللعين قد دفع ثمن مشاهدته لهذا العرض • ونادى الفرنسى ، «أيها الخادم» • فجاء الخادم وقال «سيدى» •• وأخيرا أغلق باب الحانة الزجاجى وراء ظهـــره العـريض ورأيت ريح الجنوب وهى تمسك به وتدفعه فى اتجاهها وهو

يمسك رأسه بيديه وقد شد عضلات كتفيه وأخذ ذيلا حـــلته العسكرية يرتطمان بشدة على رجليه .

وجلست وحيدا الآن وأنا أشعر بيأس فيما يتعلق بقضـــية جيم . وان كنتم تعجبون أن هذه القضية كانت لاتزال تحتفظ بجدتها بعد مرور مايزيد على ثلاث سنوات ، فانى أخبركم بأننى كنت قد رأيت جيم قبل ذلك مباشرة . فقد كنت عائدا لتـــوى من سمارانج ، حيث أخذت شحنة منها الى ســـدنى . وكانت صفقة لاتستحق الاهتمام مطلقا بالنسبة الى قيمتها المالية ، من النوع الذى يسميه تشارلى احدى صفقاتى المعقولة . ولقـــد رأيت جيم وأنا فى سمارانج . وكان يعمل عند « دى يونج » بناء على توصيتى ككاتب ماء . وكان دى يونج يسميه « ممثلنا العائم » . ولايستطيع الانسان أن يتصور حيـــاة أبعث على الملل وأكثر خلوا من لمحات المجد من هـــذه الحيـــاة ، اللهم الا اذا استثنينا من ذلك حياة رجل التأمين المتجول وتشارلى هنا كان يعرف بوب ستانتون الصغير الذى مر خلال هذه التجربة وهو نفس الرجل الذى غرق بعد ذلك وهو يحاول أن ينقـــذ خادمة لسيده فى كارثة السفينة «سيفورا» . وهى التى كانت نتيجة حادث تصادم حدث ذات صباح على الشاطىء الاسبانى بسبب الضباب كما تذكرون وكان كل الركاب قد تم رصـــهم فى القوارب وانزالهم بعيدا عن السفينة ، حين رسا بوب بقاربه

الى جانب السفينة للمرة الثانية • وصعد بطريقة ما الى السطح ليحضر الفتاة • أما عن كيف تركت هذه الفتاه فى السـفينة فهذا ما لا أستطيع أن أفسره • ولكنها على أية حال كانت قد فقدت صوابها تماما ولا تريد أن تترك السفينة وقبضت بيديها على الحاجز قبضة شديدة كانها قبضة الموت • وكانت مباراة المصارعة بينهما يسـتطيع أن يراها ركاب القوارب بوضوح • ولكن بوب كان أقصر الضـباط الأول فى البحرية التجـارية وكانت المرأة فى حذائها تزيد عن خمس أقدام وعشر بوصات فى الطول وكانت قوية كالحصان كما نمى الى علمى • وهكـذا استمر الصراع فى شد وجـذب والفتاة التعسة تصرخ طـول الوقت وبوب ينادى على قاربه بين حين وآخر كى يبتعـد عن السفينة وقال لى أحد البحارة وهو يخفى ابتسامة بعثتها ذكرى ذلك المنظر الى فمه • «لقد كان الصراع ياسيدى كان ولـدا صغيرا شرسا يتشاجر مع أمه» وقال لى نفس الرجل ، «وفى آخر الأمر كنا نستطيع أن نرى مستر ستاتتون وقـد يئس من شد الفتاه بعيدا عن الحاجز واكتفى بوقوفه وهو ينظر اليهـا نظرة المترقب • ولقد فكرنا بعد ذلك أنه ربما كان يظـن أن اندفاع المياه كان سيرغمها على ترك الحاجز ويتيح له فرصـة لانقاذها • وكنا لا نجسر خوفا على حياتنا ، على الأقتراب من السفينة • وبعد قليل غاصت السفينة دفعة واحدة بسرعة شديدة وهى

تميل الى جانبها الأيسر ثم تختفى فجأة . وكانت قوة جذب الماء نتيجة لذلك بالغة الشدة الى حد لا يصدق . ولم أر أى شيء حى أو ميت فيها يطفو على الماء بعد ذلك » . وكانت الفترة القصيرة التى قضاها بوب المسكين على الشاطىء نتيجة لقصة غرام كما أعتقد ، وقد كان يأمل فى تطلع شديد أن ينتهى من حياة البحر الى الابد . واعتقد أنه كان قد حصل على كل السعادة فى الأرض . ولكن كل ما كان قد انتهى أليه هو أن يصير مندوبا للتأمينات . وكان أحد ابناء أعمامه فى ليفربول قد اختار له هذا العمل . وكان معتادا على قص تجاربه علينا فى ذلك الحقل . وكان يضحكنا حتى تسيل الدموع من أعيننا وكان لا يغضبه أن يرانا على هذه الصورة نتيجة لحكاياته المسلية ، فكان هو على ما هو عليه من حجم صغير ،وقد وصل ذقنه الى وسطه كجنى قزم يمشى على أطراف أصابعه بيننا ويقول : « أنتم لا تتكلفون شيئا حين تضحكون هكذا أيها الأشقياء ولكن روحى الخالدة قد انكمشت فى داخلى الى حجم حبة جافة من حبوب البسلة ، بعد أسبوع واحد من هذا العمل » اننى لا أعلم كيف تلاءمت روح جيم مع ظروف حياته

الحديدة لأن شغلى الشاغل فى محاولة ايجاد عمل له ليتعيش منه لم تترك لى مجالا للتفكير فى ذلك ولكنى رغم ذلك أعتقد أن خياله المغامر يعانى من المجاعة والحرمان . فمن المؤكد أنها

لم تجد طعاما لها فى هذه الحرفة . ولقد كان من المحزن أن أراه وهو يمارسها وان كان قد اقتحمها فى هدوء عنيد لابد لى معه أن أشهد له بحسن البلاء . وكنت أعتقد — وأنا أراه يجر قدميه جرا فى كفاحه فى هذا العمل الحقير — أن ذلك كان عقابا له على بطولات خياله وتكفيرا عن افتتانه بمجد لا قبل له به . لقد أحب هذا المجد حبا جعله يتخيل نفسه جوادا من جياد السباق أما الآن فقد كتب عليه أن يشقى فى عمل لاشرف فيه ولا رونق له ، كحمار من حمير السوق . ولقد قام به خير قيام . ولقد سجن فيه نفسه وطأطأ رأسه وأمسك لسانه عن الشكوى ، وكان ذلك شيئا مرضيا جدا الا حين كانت تنتابه نوبات عنيفة غريبة يخرج فيها عن صوابه . وذلك فى المناسبات المؤسفة التى يعترض فيها حادث الباخرة باتنا طريقه . فمن سوء الحظ أن هذه الفضيحة من فضائح بحور الشرق كانت لاتريد أن تموت وتزول عن الوجود . وهذا هو السبب بعينه الذى لم يجعلنى أشعر بأن جيم قد خرج من حياتى الى الأبد .

وجلست أفكر فيه بعد أن تركنى الملازم الفرنسى . ولكنى لم افكر فيه كما رأيته وهو يعمل عند «دى يونج» ، فى الغرفة الخلفية الباردة المظلمة التى هززت فيها يده قبل ذلك بوقت قصير . ولكنى جلست أفكر فيه ، كما كنت رأيته قبل ذلك بسنوات ونحن نجلس منفردين فى الشرفة الطويلة « لما لابار هاوس» فى ضوء آخر الومضات للشحنة التى كان يهتز ضوءها

يفعل الهواء وفى برودة الليل وظلمته على ظهره وكان سيف قانون دولته الذى لا ترد نقصائه معلقا فوق رأسه . فغدا أم هو اليوم ؟ (وكان منتصف الليل قد مر عليه وقت طويل قبل أن نفترق) كان قاضى الشرطة ذو الوجه الرخامى بعد أن يوزع أحكامه بالغرامة والسجن على مستحقيها فى قضية الضرب والتعدى — سيتناول هذا السيف ويطير به رقبته . وكان اجتماعنا فى تلك الليلة يشبه الى حد بعيد زيارة الكاهن لرجل ، لينفذ فيه حكم الاعدام وكان مذنبا أيضا . كان مذنبا . وكنت أكرر ذلك لنفسى مذنبا ومقضيا عليه ، ولكن رغم ذلك فلقد أردت أن أجنبه فقط ذلك التفصيل الذى لا يقدم ولا يؤخر فى المسألة ألا وهى الرسوم والطقوس الرسمية للاعدام . ولست أدعى القدرة على تفسير أسباب هذه الرغبة — فانى لا أستطيع ذلك . ولكن اذا كنتم لم تكونوا فكرة عن شعورى هذا الى الآن ، فاما أن أكون قد اخفقت تماما فى توضيح افكارى لكم ، واما ان يكون النوم قد غلبكم الى درجة لم تستطيعوا معها ادراك مضمون كلماتى . وانى لا أدافع هنا عن نفسى من الناحية الاخلاقية . وانى لاعترف بأن الشعور المفاجىء الذى دفعنى الى أن أضع أمامه خطة بريرلى ، التى

رسمها لهربه فى كل بساطتهـا البدائية كانت تعوزه المبادىء الأخلاقية السليمة .

وكان المبلغ اللازم لتنفيذ هذه الخطة جاهزا فى جيبى ورهن اشارته . ولكن قرضا ، نعم قرض بالطبع . ثم اذا احتاج الأمر الى توصية لرجل فى (رانجون) يستطيع ان يهىء له عملا ... فاننى كنت مستعدا لتأدية هذه الخدمة له بـكل سرور . وكان القـلم والحبر والورق فى غرفتى فى الدور الأول . وحتى وأنا أتحدث مع جيم كنت أتحرق شوقا لبدء هذا الخطاب : اليوم والشهرة والسنة والساعة ٢ر٣٠ صباحا ... يشفع لى مابيننا من صداقة قديمة ، أطلب منك أن تلحق مستر جيمس كذا وكذا ... بعمل مناسب وهو رجل كذا وكذا .. وكنت مستعدا أن أعطيه خطابا من هذا الطراز أزكيه فيه وان لم يكن جيم قد فاز بعطفى وشفقتى فانه فعل أكثر من ذلك لنفسه ، لأنه كان قد وصل الى الموضع الأصيل الذى تنبع منه هـــذه العواطف ، موضـــع الحساسية الدفينة لأنانيتى . ولن أخفى عليكم شيئا لأنى لو فعلت ذلك فسيظهر لكم عملى هذا غير مفهوم بصورة لايحق لعمل من الأعمـال أن يظهر فيها ، ومن ناحيـة أخرى فسيسحب نسيانكم غدا ذيله على أمانتى هذه بكل مضاعفاتها كما فعل بغيرها من دروس الماضى . وفى هذه الصفقة التى كنت أحاول فيها تنفيذ خطة بريرلى ، وهذا هو التعريف المحـــدد لها دون تنميق . كنت فى موقف الرجل الذى لا يرقى اللوم

اليه ولكن جيم المجرم هزم نياتى غير الاخلاقية المستترة ببسمته الأخلاقية السليمة .. ولاشك أنه أيضا كان أنانيا فى ذلك ، ولكن أنانيته كانت أنبل أصلا وأسمى غرضا . واكتشفت أننى مهما قلت فانه كان قد عقد العزم على أن يخضع لطقوس الاعدام . ولم أتكلم كثيرا لأنى كنت أشعر فى مناقشتنا أن شبابه كان له الغلبة على دائما . لأن اعتقاده كان قد بدأ حيث انتهى شكى . ولقد كان هناك شىء جميل فى جموح أمله الذى لم يعبر عنه ولا حتى أكمل رسم معالمه لنفسه . وكل ما كان يقوله وهو يهز رأسه بالنفى هو «الهرب .. كلا ، فاننى لاأستطيع التفكير فى ذلك » وقلت له « اننى أقدم لك عرضا لا أطلب عليه منك ولا أتوقع جزاء ولا شكورا ، ويمكنك أن ترد هذه النقود حين تستطيع و .. » فتمتم دون أن يرفع الى بصره قائلا «هذا لطيف جدا منك» . وراقبته جيدا : ومع أنه لاشك كان ينظر الى المستقبل المظلم فى قلق شديد ، فانه لم يتردد لحظة واحدة ، وكأنه حقا لم يكن هناك ما يشكو منه فى قلبه . وشعرت بالغضب . ولم تكن هذه هى المرة الأولى فى تلك الليلة ، وقلت له ، «ان وقع هذه المسألة على رجل من طرازك لابد أن يكون مريرا بما فيه الكفاية على ما أعتقد .. » فهمس وعيناه مثبتتان على الأرض « نعم .. نعم » .

وكان منظره يمزق القلب . وهو يقف بقامته الطويلة فوق

الضوء وكنت أستطيع أن أميز الزغب على خديه ، والدم الحار وهو يصعد تحت جلد وجهه الناعم • وصدقونى أولا تصدقونى فلقد كان منظرا يمزق القلب حقا • ودفعنى ذلك الى شىء من الوحشية فقلت له، «نعم واسمح لى أيضا أن أعترف لك بأننى عاجز تماما عن تصور أى فائدة لك من شرب هذه الكأس المريرة حتى الثمالة» فتمتم من سكونه «فائدة ! » فقلت له فى غضب «نعم وعلى اللعنة أن كنت أرى هذه الفائدة» • فقال ببطء وكأنه يفكر فى شىء لاجواب له ، «أننى كنت أحاول أن أخبرك بكل شىء عن هذه المسألة ولكن هذه هى مشكلتى أنا على كل حال» وفتحت فمى لأجيب ولكننى اكتشفت فجأة أننى قدفقدت كل الثقة فى نفسى • وكان هو أيضا على مايظهر قد يئس منى ، لأنه أخذ يدمدم وكأنه يفكر بصوت عال قليلا فقال «لقد ذهبوا •• ذهبوا الى المستشفيات ولم يستطع واحد منهم أن يواجه المسألة •• هم ! •• » وحرك يده قليلا دلالة على الاحتقار • ثم قال «أما أنا فلابد لى أن أنهى هذه المسألة ولا يمكننى أن أتخاذل أمامها والا •• نعم أننى لن أتخاذل أمامها» ثم سكت وأخذ يحدق كما لو كان فى داخله روح شريرة • ثم ، وهو لايحس أخذ وجهه يعكس مرور التعبيرات المختلفة من احتقار ويأس وعزم ، أخذ يعكسها متلاحقة كماتعكس المرايا المسحورة مواكب الاشكال الغريبة التى لاتنتمى الى عالمنا • فلقد كان يعيش محاطا بأطياف خادعة وظلال صارمة • وقلت له « هذه

كلام فارغ ياصديقى العزيز» فقال بعد أن أتى بحركة تدل على فقدان الصبر ، «انه لا يظهر عليك أنك تفهمنى» . ثم قال بلهجة قاطعة وهو ينظر الى درن أن يرمش ، «انني حقا قد قفزت ولكننى لن أهرب» . وقلت له ، «انني لم اقصد أن أجرحك» ثم أضفت فى غباء قائلا «ان رجالا خيرا منك رأوا أن من الخير لهم أن يهربوا فى بعض الأحيان» . وكدت أخنق نفسى بعد ذلك بلسانى . فقال « ربما كان ذلك صحيحا ، ولكننى لست فى مرتبة هؤلاء الرجال فهذا ثمن لا أستطيع دفعه ، انه لابد لى أن أقاتل ذلك الشىء الى النهاية . انني افعل ذلك الآن» «فتركت مقعدى وأنا أحس بجسمى كله قد تيبس . وكان السكون محرجا ولوضع نهاية له لم أجد وسيلة أخرى سوى أن أقول بشىء من الانفعال ، «ماكنت أظن أن الوقت متأخر الى هذا الحد » . فقال فى شىء من الانفعال « أظنك تحس بأن فى هذا القدر كفاية ، وأصدقك القول ... كذلك أنا» . ثم بدأ ينظر حوله باحثا عن قبعته .

حسن ، فلقد رفض ذلك العرض الفريد وأبى أن يقبل المعونة من اليد التى مددتها اليه ، واستعد الآن لمغادرة المكان .وبعد الحاجز خيل الى أن الليل كان يتربص له فى هدوء مريب ، كأنه الفريسة التى وقع اختياره عليها . وسمعت صوته وهو يقول «آه هاهى هنا» فلقد وجد قبعته ثم وقفنا فى الريح بضع ثوان، سألته بعدها فى صوت خافت جدا ، «وماذا تنوى أن تفعل

بعد ... بعد ... » فقال بطريقة حسنة «نعنى سأنحــدر الى الخضيض» . وكنت قد استطعت السيطرة على تفكيرى بعض الشيء ورأيت من الخير الا اعلق أهمية كبيرة على ما يقــول . وقلت له ، «أرجوك ان تتذكر انى اريد ان اراك مرة اخرى قبل أن ترحل . » فأجاب بمرارة شــديدة « انى لا أعرف ماذا سيمنعك من ذلك . ان هذه القضية اللعينة لن تمنحنى طاقية الاخفاء ، فلن يكون لى مثــل هذا الحظ السعيد» . ثم هو يودعنى اخذ يقوم أمامى بتأثآت وحركات عجيبة مضطربة وعرض عجيب للتردد ، سامحه الله .. بل سامحنى ! . فلقد صور لــه خياله الواســع أن من الممكن أن أعترض على تزيده . وكان ذلك بالنسبة الى شيئا فظيعا لا أستطيع وصفه . وأعتقد أننى صرخت فجأة فى وجهه كما يصرخ المرء فى وجه رجــل رآه يوشك أن يسير الى حتفه من فوق الجبل . وأتذكر أن أصواتنا قد ارتفعت وأنه قد ظهرت على وجهه ابتسامة تعسة ثم قبضــة ساحقة على يدى ، وضحكة عصبية ، وشهقت الشمعة شهقتها الاخيرة ، ثم انتهى هذا اللقاء ، بآهة حارة حملها الى الهواء فى الظلام . وغادر المكان بطريقة ما . وابتلعه الليل . لقــد كان أحد الخطاة الذين يتسمون بالفظاعة . نعم ، لقد كان فظيعا .. فظيعا . وسمعت وقع أقدامه وهى تخطو سريعــة على الحصى وأظنه كان يجرى . نعم لقد كان يجرى ولكن الى غير وجهة . ولم يكن قد وصل بعد الى الرابعة والعشرين من سنيه .

الفصل الرابع عشر

ولم أنم الا قليلا ، ثم تناولت افطارى فى عجلة ، وبعد تردد قليل ، قررت ألا أذهب لزيارة سفينتى كما هى عادتى دائما فى الصباح الباكر . والحقيقة أن ذلك كان تصرفا خاطئا تماما منى ، لأن ضابطى الأول ، وان كان رجلا ممتازا فى عمله ، الا أنه كان فريسة لتصورات حالكة السواد ، الى درجة أنه حين كان لا يتسلم خطابا من زوجته فى الميعاد الذى يتوقعه ، كان يفقد صوابه من الغضب والغيرة اللذين ينتابانه ، ويفقد سيطرته على عمله ويتشاجر مع جميع البحارة ، أو أن يذهب ليبكى وحيدا فى قمرته ، أو تثور أعصابه ثورة جامحة تكاد تدفع بالبحارة الى حافة التمرد . وكنت أقف حائرا دائما أمام هذه الظاهرة فلقد مضى على زواجهما ثلاثة عشر عاما وقد تصادف أن رأيتها مرة ، وانى لأقول باخلاص أنه من الصعب على أن أتصور رجلا تخلت عنه رحمة الله ، الى درجة تدفعه الى الخطيئة ، مع امرأة ليس لها الا هذا النصيب القليل من عوامل الاغراء . ولا أدرى ان كنت لم أرتكب خطئا بامتناعى عن مصارحة سلفن المسكين برأيى هذا ، فقد خلق هذا الرجل جحيما صغيرا لنفسه على الأرض ، ولقد أصابنى بعض الضرر من ذلك بطريقة غير مباشرة . ولكن اعتبارات — زائفة دون

شك — لما يسمونه أصول اللياقة منعتنى من ذلك . وموضوع العلاقات الزوجية لرجال البحر موضـوع طريف وأستطيع أن أضرب لكم أمثلة ... ولكن ليس الآن هو الزمان ، ولاهنا هو المكان ، لمثل هذا الحديث — على أية حال — فاهتمامنا يجب أن يتركز فى جيم ، الذى لم يكن متزوجا . فان كان ضـميره الواسع الخيال ، أو كانت كبرياؤه . أو كانت أطيافه الطائرة ، أو ظلاله الصارمة التى كانت رفيقة صباه ، والتى جلبت عليـه الكوارث ، ان كان ذلك كله قد منعـه من الهرب من سيف الجلاد ... فانى — أنا الذى لايمكن اتهامى بشىء من هـذه الأوهام وجدت نفسى مدفوعا بشعور لايقاوم للذهاب لمشاهدة رأسه وهى تنفصل عن جسده . فأخذت طريقى الى المحكمـة وأنا لا يحدونى الأمل فى أن أجد هناك مايؤثر فى ، أو يزيد فى معلوماتى ، أو يثير اهتمامى ، أو يرعبنى . وان كنت أعتقد أنه كلما امتدت الحياة أمام الانسان فان قسطا معقـولا من الرعب بين حين وآخر ، لابد أن يفيـده كاجراء يمنعه من الشطط ، ويعيده الى السلوك القويم . ولكننى لم أكن أنتظر أيضـا أن ينتابنى مثل ذلك الحزن . وكانت مرارة عقابه تتركز فى ذلـك الجد الحقير الذى خلا من دفء المشاعر الانسانية فى هـذه المحاكمة . ولما كان التقييم الحقيقى لجريمته هو خيانته لأمانة المجتمع الانسانى ، فاننا اذا أخذنا بوجهة النظر هذه لمـا كان

يجب أن تتسم خيانته بحقارة الشأن ، ولكن اعدامه كان ينفذ في ركن منزو بعيداً عن الانظار . ولم تكن هناك مشنقة عالية، ولارداء قرمزي (هل كانوا يستعملون الرداء القرمزي في تاورهيل مكان الاعـدام في لندن ؟ كان يجب ذلك) ، ولم يكن هناك جمهور خاشع يستبشع جريمته ويذرف الدموع على مصيره ، ولا كان هناك الجو الحزين للمجرم الذي نال جزاءه العادل . ورأيت وأنا أمشي ، الشمس الساطعة في لمعانهـا المتقد الذي لايبعث على العزاء ، وكانت الشوارع مليئة بقطع صغيرة مختلطة الألوان كما لو كانت « كاليدوسكوبا » مخربا : يعطيك اللون الاصفر والأخضر والأبيض اللامع ، ولون العرى الأسود لكتف مكشوفة ، وعربة من عربات الثيران عليها خيمة حمراء ، وجماعة من الجنود الوطنيين في لباسهم الخـــاكي ورؤوسهم السوداء يمشون في احذيتهم المربوطة المتربة ، وشرطي وطني في حـلة داكنة قصيرة وحزام من الجلد اللامع ، وهو ينظر الى بعينين شرقيتين تبعثان على الرثاء ، كأنمـا كانت روحه التي تعودت على الهجرة والانتقال من جسد الى جسد ، تتعذب لما ينتظرها من التقمص المقبل في صورة اخرى لا سبيل لها الى العلم بها . وتحت ظل شجرة في فناء المحكمة جلس القـرويون الذين لهم علاقة بقضية التعدي ، في مجموعة جميلة كأنهـا احدى صور المعســكرات التي تراها في كتب السـياحة عن الشرق ، الى

درجة انى افتقدت خيط الدخان الذى لابد منه امام المعسكر ، وحيواناتهم وهى ترعى العشب . وكانت هناك حائط صفراء وراء هذه الشجرة ، تعلوها وتعكس ضـوء الشمس عليها . وكانت قاعة المحكمة مظلمة ، وتبدو اوسع مما هى . وفى سقفها البعيد الخافت الضوء ، كانت مراوح اليونكا تهتز جيئة وذهابا ... جيئة وذهابا فى مسارها القصير . وهنا وهناك كان يجلس أحدهم فى ملابسه ، وهو يبدو كالقزم الى جانب الجـــدران الطويلة العارية .. ساكنا دون حراك بين صفوف المقـــاعد الخالية .. كما لو كان مستغرقا فى تأملاته الدينية . وكـــان المدعى الذى اعتـــدى عليه بالضرب رجـلا سـمينا فى لون «الشيكولاته» حليق الرأس ، وقد تعرت احدى ثدييه وظهرت فوق أرنبة أنفه علامة لامعة صفراء ، تدل على الطائفة التى ينتمى اليها . وكان يجلس فى جمود ، فيه ايحـاء بادعاء العظمة ، ولا يتحرك فيه غير عينيه اللامعتين ، اللتين كانتا تدوران فى ظلمة الغرفة ومنخريه اللذين كانا يتمددان ثم يتقلصان فى عنف مـع تنفسه . وكان بريرلى مرتميا فى مقعده ، يبدو عليه الارهاق ، كما لو كان قد مضى الليل وهو يعدو فى سباق على أحد ميادين العدو التى فرشت بالرماد . وكان يبدو على الرجـل الآخر ، وهو ربان المركب الشراعى النقى ، أنه مضطـرب الاعصاب . وكانت حركاته غير العادية تدل على ذلك ، وخيل الى أنه يقاوم

شعورا قويا يدفعه الى الوقوف على قدميه ، ليدعونا فى حرقة وقوة الى الصلاة ، ويحثنا على التوبة • وكان رأس القاضى يبدو فى لون شاحب تحت شعره المصفف بعناية ، فكان يشبه رأس رجل مريض ميئوس من شفائه ، بعد تنظيفه وتصفيف شعره واجلاسه على السرير مسندا بالوسائد • ونحى القاضى بعيدا عنه آنية الزهور — التى كانت تحتوى على حزم من الأزهار الطويلة السوق ، يسودها اللون القرمزى ممزوجا بقليل من اللون الوردى • ثم أمسك فى كلتا يديه بورقة طويلة يميل لونها الى الزرقة ، وجرى بعينيه عليها ، ثم أسند ذراعيه على حافة المنصة ، وبدأ يقرأ دون اكتراث فى صوت عال واضح متزن النبرات •

ويا للسماء ! فمع كل مبالغاتى الطائشة عن المشانق والرؤوس التى تطيح ، فانى أؤكد لكم أنها كانت أسوء بكثير من مجرد اطاحة بالرأس • فقد كان هناك احساس ثقيل بنهاية الأشياء يجثم فوق كل هذه المظاهر ، ثم لا أمل يخفف من ذلك الاحساس بأن شعورا من الراحة والطمأنينة سوف يعقب سقوط فأس الجلاد• فلقد كان لهذه الاجراءات معنى الانتقام الهادىء لحكم الموت، الى جانب القسوة الشديدة لحكم النفى •

ذلك كان تقديرى للحالة فى ذلك الصباح ، ولا زلت الى الآن أرى لمحة من الصدق لا تنكر فى ذلك التقدير المبالغ فيه

لحادث عادى • ولكم أن تتصوروا تأثير ذلك الحادث على فى ذلك الوقت • وربما كان ذلك هـو السبب الذى منعنى من من الاعتراف بأنه النهاية • فلقد عاش ذلك الحـادث معى دائما ، وكنت دائما شغوفا باستطلاع رأى الناس فيه ، وكأنه كان لا يزال قيد الفصل الى الآن ، فاستطلعت فيه كل أنواع الآراء ، من فردى ودولى • كرأى ذلك الرجل الفرنسى مثلا • ولكن رأى البلد الذى ينتمى اليه جيم كان قد تم النطق به فى نفس العبارات المرسومة التى لا احسـاس فيها ولا حرارة ، وبنفس الطريقة التى كانت تستعملها الآلة ، لو استطاعت الآلة أن تتكلم • وكان رأس القاضى يختبىء نصفه وراء الورقة وكانت جبهته كقطعة من المرمر •

وكانت أمام المحكمة بضع مسائل للفصل فيها • أولها ، هل كانت السفينة معدة وصالحة من جميع الوجوه للسفر فى البحار • وقررت المحكمة أنها لم تكن كذلك • وكانت النقطة التالية ، كما أتذكر ، هى هل كانت السفينة حتى وقت الحـادث تحت قيادة ذات كفاءة تشرف عليها وتسيرها كما يجب • وكان قرار المحكمة فى هذه النقطة بالايجاب ، ولست أعلم سببا لذلك • ثم قررت المحكمة بعد ذلك ، أن الأدلة الموجودة لا تكفى لمعرفة سبب الحادث على وجـه التحقيق • أما أنا فأرجح أن السبب كان من بقايا سفينة غارقة تطفو قريبة من سطح المياه • وانى

لأتذكر أنه حوالى ذلك الوقت كانت هناك سفينة نرويجية محملة بالأخشاب قد اعتبرت فى حكم المفقـــودة • وكانت من ذلك النوع من الســفن التى تنقلب فى عاصفة ثم تطفــو لمدة شهور وقعها الى أعلى كنوع من الغول البحرى الــذى يتربص فى الظلام لقتل السفن • ووجود مثل تلك الجثث العــائمه للسفن يعتبر شيئا عاديا فى شمال الاطلنطى الذى تجد فيه كل ما هــو مخيف ومرعب فى البحــار ، كالضباب وجبال الثلج ، والسفن الميتة التى تتأبط شرا ، والرياح العاتية التى تحيق بالمرء كالخفاش الأمريكى حتى تذهب عنــه كل قوته وروحه ، وحتى أمله ، ويشعر أنه قد صار هيكلا فارغا لانسان • ولكن فى هذه البحار كان وقوع مثل هذا الحادث من الندرة بحيث يمكن أن نعتبره خطة شريرة من عمل الشيطان ، ان لم يكن الغرض منها هو قتل رجل أبيض ، والحاق ضرر أشد من الموت بجيم ، فانها تكون احدى تلك الشيطانيات التى لا هدف لها على الاطلاق • وكان هذا الخاطر قد قطع على انتباهى لأقوال القــاضى • وجعلنى لفترة قصيرة ، لا أحس فيها بغير صوته فقط ، ولكنها تشكلت بعد ذلك الى كلمات واضحة هى « •• فى اخــلالهم الشديد بواجباتهم الواضحة» • ثم لم أستطع سماع الجملة التى تلتها لسبب ما ، ثم قال « •• وتخلوا ، عند الخطر ، عن حياة الناس وممتلكاتهم التى عهد بها اليهم ••• » ونطق الصوت فى نبرات متشابهة بهذه الكلمات ، ثم توقف • ورمى زوج العينين تحت

الجبهة البيضـــاء بنظرة تنذر بالشر من فوق حـــافة الورقة • فبحثت بسرعة عن جيم ، كأنى كنت أتوقع أن يختفى ، فوجدته ساكنا جدا ، ولكنه كان هناك • كان يجلس هناك فى طلعتــه الجميلة المتوردة وهو فى غاية الانتباه • واستمر الصوت وهو يضغط على كلماته مؤكدا لها « وبناء على ذلك ••• » فحدق جيم فاتحا شفتيه وهو يتعلق بكلمات الرجل الذى كان وراء المنصة • وخرجت هذه الكلمات الى سكون الحجرة منتقلة على الريح الذى كانت تثيره مراوح البونكا ، ولم أستطع — وأنا أراقب جيم لأرى تأثير هذه الكلمات عليــه — أن أسمع تمــيز بعض أجزاء هذه اللغة الرسمية ••• « المحكمة ••• جوستاف •• قبطان •• من رعايا المانيا •• جيمس •• ضابطا • سحبت منهما الرخص » • ثم ساد السكون • وأسقط القاضى الورقــة من يده واستند بجانبه على ذراع الكرسى ، وأخذ يتحدث مع برييرلى دون كلفة ، وبدأ بعض الناس يخرجون ، وبدأ غيرهم يدخلون ، واتجهت أنا أيضا نحو الباب ووقفت أنتظر خارجه • ولمــا مر على جيم فى طريقه الى البــوابة أمسكت بذراعــه واستبقيته • ولكن النظرة التى وجهها الى جعلتنى اضطرب كما لو كنت روح الشر المجسم فى حياة الناس • فتمتمت قائلا : «كل شىء قد انتهى الآن » • فقال بخشونة «نعم ، ولن يجبرنى

رجل بعد ذلك ... » وحرك ذراعه حركة عنيفة ابعدته عن قبضتى . فأخذت أراقب ظهره وهو يسير فى طريقه بعيدا عنى .

ولما كان الشارع طويلا فقد ظل فى مجال بصرى لبعض الوقت . ورأيته يمشى بخطى بطيئة وقد ابتعدت قدماه احداهما عن الأخرى قليلا كما لو كان يجد صعوبة فى السير فى خط مستقيم . وقبل أن يختفى تماما خيل الى أنه يترنح قليلا .

وسمعت بعد ذلك صوتا ورائى ينادى . سقط رجل فى البحر . وحين استدرت الى الخلف رأيت رجلا كنت أعرفه معرفة بسيطة وهو مواطن من غرب استراليا يدعى تشستر . ولاحظت أنه كان يراقب جيم أيضا . وكان رجلا ذا صدر عريض جدا ، ووجه حليق خشن القسمات ، لوحته الشمس فصار بلون خشب الماهوجانى ، وكانت شفته العليا مغطاة بقطاعين منفصلين يكونان شاربا أشهب اللون من الشعر الكثيف يشبه السلك . وكان ذلك الرجل قد عمل صيادا للآلىء وغواصا لانتشال البضائع من السفن الغارقة ، وتاجرا ، وعلى ما أعتقد ، صائدا للحيتان أيضا . فقد عمل — على حد قوله — فى جميع مهن البحر فيما عدا مهنة القرصان . وكان المحيط الهادى — شماله وجنوبه — هو ميدان نشاطه . ولكنه كان قد قطع كل هذه المسافة الشاسعة الى ذلك المكان ، باحثا عن سفينة رخيصة ليشتريها وكان قد اكتشف حديثا ، جزيرة فى مكان ما ، مليئة بالجوانو (زبل طيور البحر) . ولكن مشارف هذه الجزيرة

ـانت مليئة بالأخطار ، ومراسيها لم تكن مأمونة الجانب ، وذلك أقل ما يقال فى وصفها • وكان من عادته حين يتحدث عنها ، أن يقول ، انها كمنجم للذهب فى وسط صخور زول بول تماما • وان كان صحيحا أن قاع البحر هناك لا يقل عن اربعين عمقا بحريا (العمق البحرى = ٦ أقدا) فماذا فى هذا ؟ ثم ان هنـاك العواصف أيضا ، ولكنها مع ذلك اكتشاف من الطراز الاول ، منجم للذهب ــ خير من ذلك ! ورغم ذلك لم أستطع أن أجعل واحدا من هؤلاء الاغبياء يرى ذلك • لم أستطع أن أقنع ربانا أو مالكا لاحدى السفن أن يقترب من هذه البقعة • وعلى ذلك فلقد صح عزمى أن انقل ذلك الفيض العميم بنفسى ••• ولهذا كان يحتاج الى السفينة ، وكنت أعلم أنه كان يفاوض حينئـذ شركة فارسية فى شراء سفينة من بقايا العصـور الماضـية من ذوات الصاريين ، قوتها تسعون حصـانا • وكنا قد تقابلنا وتحدثنا بضع مرات • فنظر نظرة العارفين وراء جيم ، وقال فى احتقار ، « انه يجعل هذه المسألة تؤثر فيه تأثيرا عميقا • أليس كذلك » فقلت ، « نعم ، عميقا جدا » فقال ، « اذن فلن يرجى منه نفع • ثم علام كل تلك الضجة ؟ على قطعة من جلد حمار ، لم تستطع ولن تستطيع أن تصنع رجلا ؟ انه لابد لك أن تنظر الى الأشياء نظرة واقعية ، وأن تراها كما هى • فان لم تستطع ذلك فخير لك أن تسلم بهزيمتك فى الحال • ولن تستطيع أن تشق طريقك بعد ذلك فى الحياة أبدا • أنظر الى ، لقد جعلتها طريقة لى فى

الحياة ألا أسمح لشىء بأن يؤثر فى تأثيرا عميقا • » فقلت له،
« نعم انك ترى الاشياء كما هى • » فقال ، « ان الذى أريد أن
أراه الآن هو شريكى • أتعرفه ؟ روبنسون العجوز ، نعم هو
روبنســون بأداة التعــريف (الروبنسون) الا تعــرفه ؟ انه
روبنسون الشهير • الرجل الذى هرب من الأفيون وصاد من
كلاب البحر فى زمانه أكثر من أى رجل يمارس هــذه الاعمال
فى زماننا هذا • وكانوا يقولون عنه انه كان يركب قوارب صيد
كلاب البحر متجها نحو الاســكا ، حين يكون الضــباب على
درجة من الكثافة ، لايستطيع معها الا الله وحده أن يميز أحد
الرجال من الآخر • روبنسون المرعب • هذا هو الرجل بعينه •
وهو شريكى الآن فى جزيرة الجوانو هذه • وأعتقد أنها خير
فرصة أتيحت له فى حياته • » ثم همس فى أذنى « آكل للحوم
البشر ? ••• حسن ، هـــذا هو ما كانوا يلقبونه به فى الايام
الغابرة • أتتذكر القصـــة ? انها قصة غرق سفينة على الساحل
الغربى لجزيرة ستيوارت • نعم ، وقد استطاع سبعة منهم ان
يصــلوا الى الشــاطىء ويظهر أنه لم يكن هناك وفاق بينهم •
وهناك بعض الرجال ممن لا يستطيعون منع أنفسهم عن الشجار
لأقل مناسبة ــ ولا يستطيعون أن يبذلوا أقصى ما فى وسعهم
حين يتــأزم الموقف ليمكنهم العيش على خــير ما تتيحــه لهم
ظروفهم الصــعبة ــ ولا يستطيعون أن يروا الاشــياء كما هى
ياولدى ! ثم ماذا تكون نتيجــة ذلك ? بالطبع لن تكون غــير

المتاعب ومزيدا من المتاعب ، والأرجح أنها ستكون فى صورة ضربة على الرأس ، ولعلهم يستحقونها أيضا . ومثل هذا الطراز من الرجال يكونون أكثر نفعا وهم ميتون . وتقول القصة — كما يروونها — أن قاربا من قوارب سفينة صاحبة الجلالة تدعى «وولفرن» ، رآه راكعا على العشب وهو عار كما ولدته أمه ، يترنم بنغمة أو بأخرى من الترانيم الكنسية . وكان رذاذ من الزغب الثلجى يتساقط من السماء حينئذ . وانتظر حتى صار القارب لا يزيد على طول مجداف من الشاطىء ، واذا به ينهض ويختفى . وطاردوه لمدة ساعة ، وهو يصعد ويهبط على الصخور حتى قذفه بحار بحجر قذفة موفقة أصابته خلف أذنه وأسقطته على الأرض مغشيا عليه . منفردا ؟ بالطبع . ولكن هذه القصة تشبه قصة كلاب البحر . والله وحده يعلم ما فى هذين القصتين من صدق أو كذب . ولم يهتم القارب كثيرا بتحرى ما حدث على هذه الجزيرة . فلفوه كما هو فى غطاء القارب ، ونقلوه اليه بأسرع ما يمكن لأن ظلام الليل كان يقترب منهم ، والجو يتهددهم ، والسفينة تطلق مدافعها باشارة العودة كل خمس دقائق . وبعد ثلاث أسابيع من ذلك الحادث كان قد استعاد نشاطه وصحته . ثم لم يسمح لاى ضجة كانت تثار حوله على الشاطىء بأن تقلقه . وكل ما فعله هو أنه قفل شفتيه قفلا محكما وترك للآخرين حرية التشدق . فقد ظن أنه كان يكفيه فقدان سفينته ، وكل ما كان يملكه الى جانب ذلك ، دون الا

يضيف الى متاعبه الاهتمام بما كانوا يوجهونه اليه من شتائم . وهذا هو الرجل الذى اخترته. (قدم الينا) . » ورفع ذراعه كاشارة لرجل يمشى فى الشارع : وقال ، « ان لديه قليلا من المال . وعلى ذلك فقد دعوته للاشتراك معى ، وكان لابد من ذلك ! فلقد كان من الخطيئه أن أدع مشروعا كهذا يفلت من يدى . وكنت قد أفلست تماما . وكان ذلك شيئا فى غاية الصعوبة على ، ولكننى استطعت أن أرى المسألة كما هى . وفكرت أنه ان كان لابد من مشاركتى لرجل ما ، فانى أفضل روبنسون على غيره . وكنت قد تركته يتناول افطاره فى الفندق لأذهب أنا الى المحكمة لأنه كان لدى فكرة ... آه ! عم صباحا كابتن روبنسون ... هذا أحد أصدقائى يا كابتن روبنسون . »

واذا برجل طاعن فى السن ، هرب اللون من وجهه ، فى حلة من القماش القطنى الأبيض وعلى رأسه المرتعش من الشيخوخة قبعة طويلة من لب نبات استوائى يشبه الفلين ، ولها شريط أخضر ، يقف بجانبنا ، بعد أن عبر الشارع وهو يجر قدميه فى خطوات سريعة ، مستندا بيديه كلتيهما على قبضة مظلته . وكانت له لحية بيضاء ، تفصلها خطوط من العنبر ، تصل الى وسطه . فرمش بأجفانه المجعده وهو ينظر الى نظرة حائرة . وقال بلطف وهو يترنح ، «كيف حالك ؟ كيف حالك» وقال تشستر بصوت خافت ، «ان به بعض الصمم» فسألته ، «اسحبته وراءك سته آلاف من

الاميال كى تشترى باخرة رخيصة ؟ » فقال تشستر فى حماسة شديدة «لقد كنت مستعدا للدوران بهحول الأرض مرتين بمجرد أن رأيته . ان هذه السفينة ستفتح لنا أبواب السماء يا بنى . وهل هو خطئى ان كل من يملك سفينة فى أستراليا ، أو يقودها ، يثبت فى آخر الأمر ، أنه رجل غبى ؟ لقد تحدثت مرة مدة ثلاث ساعات الى رجل فى أوكلاند وقلت له ؛ «ارسل سفينة ... ارسل ، وسأعطيك نصف حمولتها الأولى لنفسك مجانا ومقابل لاشىء ، وذلك كى نبدأ عملنا بداية حسنة» . فأجاب الرجل ، « اننى لن أفعل ذلك ، حتى لو لم يكن على ظهر الأرض مكان آخر لارسال سفينة اليه» كان حمارا بالطبع . وحين أخذ فى اعتباره الصخور وتيارات المياه ، وعدم وجود مكان آمن ترسو فيه السفينة ، والصخرة العريضة المرتفعة التى ستقف السفينة الى جانبها ، وعدم وجود شركة للتأمين ضد مثل تلك الأخطار ، لم ير الرجل كيف يمكنه تحميل السفينة فى أقل من ثلاث سنوات . حمار ! وكدت أركع على ركبتى أمامه وأنا اقول له ، «ولكن انظر الى الاشياء كما هى ، ولتذهب الصخور والعواصف الى الجحيم ... انظر اليها كما هى ... هناك الجوانو الذى سيتقاتل من أجله زراع قصب السكر في « كوينزلاند » ، سيتقاتلون عليه على رصيف الميناء ، انى واثق من ذلك» ... ولكن ماذا تستطيع أن تصنع برجل أبله ؟ فقد قال « ان هذه هى أحدى نكاتك يا تشستر » ...

نكاتى ! لقد كدت أبكى . واسأل القبطان روبنسون عن هذه الواقعة ... وكان هناك رجل آخر من أصحاب السفن فى ولنجتون رجل سمين يرتدى صدارا أبيض . وكان يعتقد اننى أحاول أن أحتال عليه بطريقة أو بأخرى . فقال لى « اننى لا أعلم أى صنف من الرجال الأغبياء تبحث عنه ، ولكننى مشغول الآن ... طاب صباحك . » فتحرقت شوقا الى أخذه بين يدى وكسر جمجمته من خلال شباك مكتبه هو ، ولكننى لم أفعل . بل قلت له فى وداعة القسيس الصغير ، « فكر فى الامر جيدا ، وسأمر عليك فى الغد . » فتمتم شيئا عن غيابه « طول يوم غد » . وكنت — وأنا أنزل الدرج — مستعدا لضرب رأسى فى الحيط من شدة الضيق . ويستطيع القبطان روبنسون هنا أن يخبرك بصدق ذلك . وكان من العسير على أن أفكر فى تلك المادة الثمينة وهى ترقد فى تلك البقعة تحت حرارة الشمس دون أن ينتفع بها أحد ، تلك المادة التى كانت تستطيع أن تدفع بعيدان القصب نحو السماء . وتصنع الرخاء فى كوينزلاند ! نعم تصنع الرخاء فى كوينزلاند ! وفى بريسبين ، حيث ذهبت لعمل محاولتى الأخيرة . أطلقوا على اسم المجنون . يا للأغبياء! وكان الرجل العاقل الوحيد الذى صادفته هناك هو سائق العربة التى كنت أستقلها . كان رجلا عظيما لم يواته الحظ ، أليس كذلك يا كابتن روبنسون ؟ ألا تتذكر قصة سائق العربة الذى قابلته فى برسين ؟ لقد كان ذلك الرجل يستطيع أن يرى الأشياء

بسرعة البرق . وكان من المتعة الحقة أن يتحدث الانسان اليه . وفى أمسية يوم طويل قضيته متنقلا بين أصحاب السفن ، شعرت بغاية الضيق فقلت له ، « لابد أن أسكر ، تعال معى ؛ لأننى اما أن اسكر واما أجن» . فقال «اننى رجلك،هيا بنا» . ولست أدرى ماذا كنت أستطيع أن افعل لو لم يكن ذلك الرجل هناك . أليس كذلك ياكابتن روبنسون » .

ثم مر بيده بقصد المزاح على ضلوع شريكه . فبدأ الرجل العجوز فى الضحك ، «هيه ! هيه ! هيه ! » وجعل ينظر الى الشارع فى شىء من الضياع ، ثم حدق فى بعينين حزينتين متشككتين خبا بصرهما الا قليلا ، ثم ضحك مرة ثانية ، «هيه! هيه !هيه !» ومال بثقله على مظلته ، ثم أسقط نظره الى الأرض ثانية . ولست فى حاجة أن أقول لكم أننى حاولت عدة مرات أن أهرب منهما ، ولكن تشستر كان يحبط كل محاولة لى فى هذا السبيل بامساكه بطرف سترتى . وبعد ذلك قال لى تشستر « دقيقة واحدة ان عندى فكرة . » فانفجرت فى وجهه آخر الأمر ، وأنا أقول ، «ماهى فكرتك الجهنمية ، ان كنت تظن أننى سأشترك معك فى ...» فقاطعنى قائلا «كلا ! كلا يابنى . لقد تأخر بك الوقت ، حتى لو كنت تريد ذلك من أعماق قلبك ، فان لدينا باخرة الآن » فقلت له ، «شبح باخرة» فقال ، «انها تكفينا فى البداية ، فنحن لانؤمن بهذه الاستعلاءات الفارغة .

اليس كذلك ياكابتن روبنسون ؟» «بلى ! بلى ! » ذلك ما قاله الرجل العجوز بصوت كنقيق الضفادع ، ودون أن يرفع عينيه . وقد أخذت رعشة رأسه ، وهى ظاهرة من ظواهر المشيخوخة تشتد وكأنها قد عقدت العزم على ألا تتركه . وقال تشستر وهو يومىء برأسه الى الشارع الذى كان قد اختفى فيه جيم منذ وقت طويل ، « انك تعرف ذلك الشاب ، أليس كذلك ؟ولقد أخبرنى بعضهم أنك كنت تتناول معه العشاء فى فندق ما لابار فى الليلة الماضية » .

فأخبرته ان ذلك صحيح . وبعد أن علق على ذلك بأنه هو أيضا يحب عيشة البذخ بكل مستلزماتها ، الا أنه لابد له فى الوقت الحاضر من أن يقتصد كل بنس يستطيع أن يحصل عليه .

« فلن يكون من هذه البنسات ما يزيد على حاجة العمل ، أليس كذلك ياكابتن روبنسون ؟» ثم أخرج صدره ومشى بيده على شاربه ، بينما كان روبنسون ذو الشهرة السيئة يسعل الى جانبه ، ويتعلق بكل ما فيه من قوة الى مقبض مظلته ، وبدا عليه أنه يوشك ان يسقط الى الأرض وقد استحال الى كومة من العظام البالية . ثم همس تشستر وهو يسر الى قائلا ، «أنت ترى أن الرجل العجوز هو الذى يملك كل المال ، لأنى كنت قد أفلست تماما وأنا احاول اعداد هذا المشروع . ولكن انتظر .. انتظر ، فالأوقات الطيبة فى طريقها الينا » وبدأ عليه

أفه دهش فجأة لعلامات نفاد الصبر التى كنت أبديها ، وصرخ فى قائلا ، «اننى أخبرك عن أهم حدث فى العالم ، وانت ... » فدافعت عن نفسى بهدوء قائلا « انى على موعد » فسألنى فى دهشة حقيقية ، «وماذا فى هذا ؟ دعه ينتظر» . فقلت له، «هذا ما أفعله الان بالضبط ، أفلا ترى الأفضل ان تخبرنى بما تريد ؟ » فدمدم وهو يحدث نفسه قائلا ، « انى أريد شراء عشرين فندقا مثل هذا الفندق ، ثم كل نزيل فيها أيضا ؟ ثم كل ذلك مضروبا فى عشرين» . ثم رفع رأسه برشاقة وقال ، « انى أريد ذلك الشاب» فقلت له ، «اننى لا أفهم » . فقال ، « انه لايصلح لشىء ، اليس كذلك ؟ » فقلت . «اننى لا أعرف شيئا عن ذلك» . فقال تشستر ، « ألم تقل لى أن تلك المسألة قد اثرت فيه تأثيرا عميقا — نعم ، ففى رأيى أن اى شاب فى مثل ظروفه ... على كل حال ، فانه لا يمكن أن يكون من الرجال الذين يعتمد عليهم فى جلائل الأعمال ، ولكننى أبحث عن رجل ، واظن ان لدى العمل الذى يناسب هذا الشاب تماما . فسأعطيه عملا على جزيرتى ، وسأقذف بأربعين من العمال الوطنيين الى هذا العمل ، حتى لو اضطررت الى سرقتهم . فلابد لنا من وجود هؤلاء للقيام بما يلزم من الاعمال هناك . ثم أنى أنوى ان اعاملهم معاملة حسنة ، فسأعد لهم كوخا من الخشب بسقف من ألواح الصاج ، وانى لأعرف رجلا فى هوبرت يمكنه أن يعطينى المواد اللازمة لذلك بالأجل لستة شهور . وأقسم بشرفى أنه

ذلك صحيح • ثم مسألة المياه العذبة ، فلابد لى من البحث فى كل مكان عن رجل يأتمننى على ستة خزانات حديدية مستعملة للمياه وذلك لجمع مياه الامطار فيها • وسأجعله رئيسا لهؤلاء العمال ، وحاكما مطلقا عليهم ، فكرة جميلة ••• أليس كذلك ؟ فما رأيك ؟ » فقلت له وقد منعتنى الدهشـــة من الضحك •• «قد تمر سنوات عديدة دون أن تسقط قطرة واحدة من المطر على وولبول • » فعض على شفته ، وظهرت عليه الحـيرة ، ثم قال : « حسن ، سأبحث عن طريقـــة أخرى لمدهم بالمياه ـــ أو أحضرها لهم على السفينة • ولكن ياللعنـــة ! ليس هـــذا هو السؤال • »

فلم أقل شـيئا • وفى سرعة تصـــورت جيم وهو جالس على صخرة ليس لها ظل ورجلاه غاطستان حتى الركب فى الجوانو • وصيحات طيور البحر تملأ أذنيه ، وكرة الشمس المتوهجة فوق رأسه ؛ والسماء الخالية والبحر الخالى يرتعشان معا فى غليانهما فى هذه الحرارة على مدى البصر • فبدأت أقول له ، «اننى لن انصح أعدى أعدائى ••» فقاطعنى شستر قائلا ، «ماخطبك؟ اننى أنوى أن أكافئه مكافأة حسنة ـــ ولكن ذلك طبعا لن يتم قبل انتظام العمل • وسيكون عمله أســـهل من القفز من فوق كتلة من الخشب • فلن يكون من المطلوب منـــه عمل شىء على الاطلاق • وســـيكون فى حزامه مسدسان من ذوى الطلقات الست ••• ومن المؤكد أنه لن يكون خائفا من أى شىء يمكن

أن يفعلـه اربعون عاملا من هـؤلاء الوطنيين ومعه هـذان المسـدسان ، وهو الرجل المسـلح الوحيد بينهم أيضـا ! ان الصورة أكثر اشراقا مما تبـدو ، وانى أريدك أن تعيننى على اقناعه بقبول هذا العمل » • فصرخت فى وجهه «لا !» • فرفع روبنسـون العجـوز عينيه اللتين ضـعف بصرهما الى بحزن للحظة ، ونظر الى تشستر باحتقار شديد ، وقال ببطء ، « اذن لن تنصحه بذلك» فأجبته فى غضب شديد كما لوكان قد طلب منى معاونته على قتل رجل آخر «كلا ، ثم كلا بالطبع • ثم أننى متأكد أنه لن يقبل • انه لاشك فى حالة سيئة ، ولكنها على حد علمى لم تصـل به الى الجنون بعد » فقال تشستر وكأنه يفكر بصوت عال ، «انه لايصلح لأى شىء على الاطلاق • لهذا أرى أنه هو الرجل المناسب للعمل عندى • ولو كنت تسـتطيع أن ترى الامور كما هى ، لرأيت ان هذا هو أنسب الأعمال له • والى جانب ذلك •• فهى فرصة عظيمة مؤكـدة •• » ثم بدا عليه الغضب فجأة وقال « انه لابد لى من العثور على رجل » وضرب الأرض بقـدمه وابتسـم ابتسامة خبيثـة ، وقال ، « وعلى كل حال فاننى استطيع أن أضمن له إن الجزيرة لن تغوص تحت قدميه ، وانى لأعتقد أن هذه مسألة بالغة الأهمية بالنسبة اليه» • فقلت له باقتضاب ، «نهارك سعيد» فنظر الى كما لو كنت رجلا أحمق لايستطيع ان يفهمه ••• ثم صرخ فجأة فى أذن الرجل العجوز وهو يقول ، «هيا ياكابتن روبنسون ،

ان أولئك الفرس ينتظروننا لانهاء الصفقة» ثم أمسك بسريه من تحت ذراعه بقوة واستدار به ، ونظر الى من فوق كتفه على غير انتظار ، وقال بطريقة ولهجـة جعلتا دمى يغلى فى عروقى ، « لقد كنت أحاول أن أسدى اليه معروفا » فأجبته فى عنف ، « شكرا لك على لاشىء نيابة عنه . » فقال فى سخرية «يالك من رجل ماهر ذكى ، ولكنك تشبه الآخرين ، وتعيش فى السحاب . فانر اذن ماذا تستطيع أن تصنع به » فقلت له ، «اننى لا أعلم أننى أريد أن أصنع به شيئا » فقال « ألا تعلم ؟ » قال ذلك ولعابه ينطلق من فمه مع الكلمات وقـد نفر شعر شـاربه الأشهب بالغضب . والى جانبه كان روبنسون «ذو الشهرة السيئة» يقف وظهره الى ، مستندا على مظلته ، صبورا ساكنا كحصان عربة أرهقه التعب . فقلت له ، «اننى لم أجد بعد جزيرة للجوانو .» فاجاب فى سرعة ، «انى أعتقد أنك لن تعرف ما هى ، حتى لو قادوك اليها باليد . وفى هذه الدنيا يجب أن ترى الشىء أولا قبل أن تستطيع أن تنتفع به . يجب أن تراه جيدا ، ومن جميع نواحيه ، وأن تراه كما هو ، لا أكثر ولا أقل» فقلت له ، وانا اعنى علاقته المريبة بشريكه وأنظر نظرة ذات معنى الى الظهر المحنى الذى كان الى جانبه ، « ثم تدفع الآخرين الى رؤيتـه كذلك» فأخرج تشستر صوتا يدل على الاستهانة من منخريه وقال ، «ان عينيه سليمتان بما فيه الكفاية ، فلا تقلق . انه ليس جروا صغيرا» فقلت ، «كلا ! كلا ! بالطبع» فصرخ فى زميله ،

بطريقة لاتخلو من الاحترام ولا التهديد أيضا ، تحت حافة قبعة الرجل العجوز قائلا : « هيا ! هيا ياكابتن روبنسون » . فقفز الرعب المقدس ، الى جانبه ، قفزة صغيرة فى طاعة وخضوع . وكان شبح السفينة ينتظرهم ، ثم الحظ السعيد بعد ذلك على هذه الجزيرة الجميلة ! وكان منظرهما معا كجائبين من جوابى البحار يبعث على العجب . فكان تشستر يخطو على مهل فى بنيانه المتين ، وجسمه الطويل العريض ، وعليه دلائل القوة والقدرة على مغالبة الصعاب . وهو الى جانب الرجل الآخر ، الطويل المنهار ، المنحنى وهو معلق فى ذراعه ، يجر رجليه النحيلتين جرا فى خطوات سريعة تكلفه مالا يطيق من الجهد .

الفصل الخامس عشر

لم أبدأ البحث عن جيم فى الحال ، وذلك فقط لأننى كنت على موعد لا أستطيع اهماله . ثم لسوء الحظ وأنا فى مكتب وكلائى ، لم أستطيع الفكاك من رجل كان قد جاء لتوه من مدغشقر ومعه خطة صغيرة لصفقة هائلة . وكان لهذه الصفقة علاقة ما بالماشية والذخيرة وأحد الامراء الذى يدعى رافونالو ... كذا ، ولكن محور هذه الصفقة كان يدور حول غباء أحد أمراء البحر الذى يدعى بيير على ما أتذكر ، وكان كل شىء يدور حول ذلك ؛ حتى أن ذلك الرجل لم يكن يجد من الكلمات القوية ما يسعفه على التعبير بما يريد أن يسر به الى عن أمير البحر هذا . وكان لهذا الرجل عينان متكورتان تبرزان من رأسه فى لمعان مريب . وكانت له جبهة مليئة بالنتوء وكان يصفف شعره الطويل الى الوراء ، دون فارق . وكان له عبارة أولع بها وجعل يكررها فى نشوة وهى (أن الحد الأدنى من المخاطرة مع الحد الاعلى من الربح هو شعارى) ولقد أصابنى الدوار وأفسد على غدائى ، ونجح بكل تأكيد فى تناول غدائه على نفقتى بعد كل هذا ، وفى اللحظة التى استطعت أن أتخلص فيها منه ، هرعت الى رصيف الميناء ، ورأيت جيم هناك وهو يميل بجسده فوق الحاجز . وقريبا منه رأيت ثلاثة من

رجال الشوارب الوطنيين يتشاجرون فى ضجة كبيرة على بضعة مليمات ولم يسمعنى وأنا أقترب منه ولكنه استدار حول نفسه بحركة سريعة من لمسة أصبعى الخفيفة وكأنما كنت قد ضغطت على الزر الذى يحرك الآلة . فتأتأ قائلا « كنت أنظر الى البحر » ولست أتذكر ماذا قلت . ولم يكن ذلك شيئا مهما على كل حال ، ولكنى أتذكر أنه لم يمانع قط فى ان يتبعنى الى الفندق .

وتبعنى الى هناك كطفل صغير سهل القيادة ، وعليه مظاهر الطاعة ودون ابداء أى تمنع ؛ وكأنه كان ينتظر حضورى هناك لأحمله معى . ولم تكن هناك حاجة لما شعرت به من الدهشة حينئذ لما رأيته من تسليم قياده الى دون مقاومة . فلم يكن هناك مكان على هذه الأرض الكروية ـ التى تبدو هائلة الحجم أمام البعض ، ويتصنع البعض الآخر أنهم يعتبرونها أصغر من حبة الخردل ـ لم يكن هناك على هذه الارض مكان .... يستطيع أن يخلو فيه الى نفسه ، بعيدا عن العالم نعم هذا ما أعنى أن ينسحب بعيدا عن العالم ، وان يكون وحيدا مع شعوره بالوحدة . ومشى الى جانبى فى غاية الهدوء وهو ينظر هنا وهناك . وأدار رأسه مرة ليتبع بنظرته أحد رجال الاطفاء فى معطف كبدلة السهرة الطويلة ، وسراويل مصفرة ، ووجه أسود كان يشبه فى لمعانه الناعم قطعة فحم الانتراسيت . ولكنى أشك رغم ذلك أنه رأى شيئا ، أو كأنه كان يحس حتى

بمراقبتى له طول الوقت ؛ لأننى ان لم أكن قد دفعته مرة الى اليمين وسحبته مرة الى اليسار ، فانى أعتقد أنه كان سيتابع مشــيه فى خط مستقيم فى أى اتجاه تصادف أن كان متجهـا اليه الى أن يصطدم بحائط أو بعائق آخر من هذا القبيل • وأخيرا قدته الى غرفة نومى ، وجلست فى الحال لاكتب بعض الخطابات ، وكان هو المكان الوحيد فى الدنيا (ربما باستثناء صخور وولبول ــ ولكن هذا المكان لم يكن فى متناوله الان) الذى يستطيع فيه أن يصفى حسابه مع نفسه بعيدا عن مضايقة العالم بأسره • ولم يستطع ذلك الشىء الملعون ــ على حد قوله ــ أن يخفيه عن أعين الناس ، ولكن سلوكى معه كان يعتبر أنه قد صار غير مرئى • وحالما جلست فى مقعدى انحنيت على مكتبى كأحد كتاب العصــور الوسطى ، وفيما عدا حركة يدى التى كانت تمسـك بالقلم ، كنت ساكنا تماما ، رغم ماكان يساورنى من قلق • ولا أستطيع أن أقول أننى كنت خائفا ، ولكن من المحقق اننى حافظت على السكون التام كما لو كنت أحس بأن هنـاك شـيئا خطرا فى هـذه الغـرفة وستدفعه أى شبهة لحركة أقوم بها من جانبى الى الانقضاض على • ولم يكن هناك كثير من الأثاث فى هذه الغرفة ــ فأنتم تعلمون حالة هذه الغرف ــ فلم يكن فيها غير سرير له ناموسية ذى أربعة أعمدة ، وكرسيين أوثلاثة والمائدة التى كنت اكتب عليها ؛ ثم الأرضية العارية • وكان هناك باب من الزجاج يفتح

على شرفة علوية ، فوقف هنـــاك ووجهة اليه يعاني ما يعاني في أقصى ما يستطيع من الخلوة بنفسه . وحل الغسق ، فأنرت شمعة بكل ما استطعت من اقتصاد في الحركة ، وفي حذر شديد كما لو كنت ارتكب فعلا يعاقب عليه القانون . ولم يكن هناك شك في أنه كان يمر بوقت عصيب ، وكذلك أنا ؛ واستطيع أن أعترف لكم ان ما كنت اشعر به من الضيق جعلني اتمنى ان يذهب الى الشيطان أو على الاقل الى صخور وولبول . وخطر لى مرة أو مرتين أنه ربما كان تشستر حقيقة هو الرجل الذى يستطيع أن يتصرف بحســم فى هذه الكارثة . فهذا الرجل المثالى العجيب كان قد استطاع فى الحال أن يجد فائدة عملية لها ــ ودون أن يخطىء كما ظهر الآن . وكان ذلك كافيا لان يجعلنى أظن أنه ربما كان حقا يستطيع أن يرى الاشياء على حقيقتها ، فى حين كان يراها الآخرون من ذوى الخيال الضيق ــ غامضة أو ميئوسا منها . وجلست أكتب وأكتب ، فصفيت كل ما تخلف من مراسلاتى ؛ وبعد ذلك استمررت فى الـكتابة الى أناس ، لم يكن هنـــاك سبب واحد يجعلهم يتوقعون منى خطابا مليئا بالأخبار الصغيرة عن غير موضوع على الاطلاق . وكنت أسترق النظرات الجانبية بين حين وآخر ، فرأيته ثابتا فى مكانه ، ولكن ظهره كان مسرحا لتقلصات عنيفة كانت تهزه هزا ، وكانت كتفاه ترتفعان فجأة بين فترة وأخرى . ومن الواضح أنه كان يقاتل ــ كان يقاتل أولا لكي يستطيع ان يتنفس كما خيل الي . وكانت الظلال الكبيرة

التى تلقيها الشـمعة فى اتجاه واحد من لهبها المسـتقيم تبدو وكأنها تحس بالحزن ، وخيل الى ـ وأنا استرق النظرات أنه كان فى جمود أثاث الغرفة جو من الانتبـاه والترقب • ويظهـر أن الخيال كان قد استولى على ، وجمح بى وسط استغراقى فى كتابة هذه الخطابات • ومع أن الغرفة كان يسودها السكون والجمود التام حين يقف صرير قلمى لحظة ، فاننى كنت أعانى اضطرابا عميقا ، وحيرة فى أفكارى ، كما يحدث للمرء أحيانا حين يسمع قصف ريـح عاتية تنـذر بالشر وهو فى البحر • ولعل البعض منكم يعرف هذا الشـعور ••• ذلك المزيج من القلق واليأس والضيق الذى يصحبه شعور بالجبن يزحف اليه ، وقد لايسر الانسان أن يعترف به ، ولكنه يضفى على قوة احتماله صفة خاصة هادئة من القوة والاعتزاز • وانى لا أدعى أى فضل فى صمودى للشدة التى كان يعانيها جيم ، فانى كنت أستطيع أن أجد مخرجا من هذا فى كتابة الخطابات • كنت أستطيع ان أكتب الى أشخاص لا معرفة لى بهم ان اسـتدعى الأمر • • وفجـأة وأنا أتناول ورقـة من أوراق الكتابة ، سمعت صوتا خافتـا يصـل أذنى فى سـكون الحجرة المظلم • وكان ذلك أول صوت سمعته منذ أن احتوتنا الحجرة معا • فجمد رأسى فى وضعه ، مائلا الى أسـفل ، ووقفت يدى عن الحركة • ولعل من يسهر الى جانب سرير لمريض ، يسمع عادة مثل تلك الاصوات الخافتة فى سكون الليل ، وهو يراقب

مريضه ؛ تلك الأصــوات التى تنتزع انتزاعا من جسد معذب وروح منهكة • ثم دفع الباب الزجاجى بقوة اهتزت لها الواح الزجاج فى تذبذبات ذات رنين : وخطا الى الخارج ، وحبست أنفاسى ؛ وارهفت أذنى دون أن اعلم ما الذى سيفاجىء سمعى• واخذت افكر انه حقا كان قد جعل هذه المسألة تؤثر فيه تأثيرا عميقا فاق كل الحدود • بينما هى لم تزد عن أن تكون كما قال تشستر فى نقــده اللاذع ! « احدى الرســميات الفارغة التى لا تستحق اهتمام انسان يستطيع أن يرى الأشياء كما هى» ، « احدى الرسميات الفارغة • قصاصــة من الورق » حسن ! حسن ! ، أما عن مســتودع أكوام الجــوانو ؛ التى لا يمكن الوصول اليها فتلك مسألة أخرى • مسألة لا يستغرب أحد ان تحطم القلب من أجلها ••• وكنت أستطيع الآن أن أسمع ضجه خفيفة لعديد من الأصوات اختلطت برنين الفضــة والزجاج ، تصــعد الينا من غرفة الطعام • وكانت حافة ضــوء الشــمعة الخافت تسقط على ظهره من خلال الباب المفتوح ، وبعد ذلك كان كل شىء ظلاما • فــكان يقف على حافة ظلام لا نهاية له ، كرجل وحيد على شــاطىء بحــر مظلم لا أمل فيه • وكانت صخور وولبول فى تلك الصورة بكل تأكيد بقعة صغيرة وسط الفراغ المظلم ، قشة يتعلق بها الغريق • وتبلورت شفقتى عليه فى شــكل فكرة خطــرت لى وهى أننى لم أكن أحب أن يراه أهلــه فى تلك اللحظـــة فأنا نفسى كنت أشــعر بالضيق

استمديد من حالتـــه ٠٠٠ وكان ظهره الآن لا يرتعش . حسب
أنفاسه القصيرة ، بل كان منتصبا كالسهم ، ساكنا فى ذلك النور
الضعيف ، ولقد سقط معنى ذلك السكون فى أعماق نفسى ، كما
تسقط قطعة من الرصاص فى الماء ٠ وأحسست بثقله الى درجة
أننى لمـدة ثانيـة ، وددت من صميـم قلبى لو أن الطـريق
الوحيـد لمساعـدتى له كان دفـع نفقـات جنـازته فحتى
القانون كان قد فرغ منـه ٠ وكان دفنـه سـيكون رحمـة
يسيرة ! وكان سيكون متمشيا جدا مع التعقل والحكمـة فى
الحياة ، تلك الحكمة التى تدفعنا الى ان نبعد عن أنظارنا كل
ما يذكرنا بحماقتنا وضعفنا ، والموت الذى هو مصيرنا ــ وكل
ماينتقص من كفائتنا ــ كل ذكرى لاخفاقنا ــ كل ما يوحى الينا
بخوفنا الذى لا يموت ، وأخيرا كل أجساد أصـدقائنا الذين
ماتوا ٠ وفكرت أنه ربما كان فعلا قـد تعدى الحـدود فيما
يشعر به من أثر ذلك الحادث ٠ فان كان ذلك كذلك اذن فعرض
شستر ٠٠ وحين وصلت فى تفكيرى الى ذلك الحد تناولت ورقة
جديدة من أوراق الكتابة وبدأت أكتب فى عزيمة صادقة ٠ ولم
يكن بينـه وبين ذلك المحيط المظـلم سـواى ٠ وكان لدى
احساس بالمسئولية ٠ ولو تكلمت ، أفمـا كان ذلك الشـاب
المعذب الساكن الصامت يقفز الى الظلام ــ ويتعلق بالقشـة ؟
واكتشفت كيف يصعب على الانسان فى بعض الأحيان أن يحدث
صوتا ٠ فهنالك قوة خبيثة فى الكلمة ، ولكن بحق الشـيطان

لماذا لا ؟ كان ذلك السؤال يلح على فى شدة وأنا أكتب. وخيل الى أننى أرى فجأة على صفحة الورقة البيضـــاء تحت سن القلم تماما صورة تشستر وزميله الاثرى ، واضحة كاملة بكل تفاصيلها من خطوات وحركات ، كما لو كانت معكوســة فى مجال البصر من احدى الأجهزة الضوئية الصغيرة التى تستعمل كعلبة للاطفال . وكنت أشغل خيالى بمراقبتهمـا بعض الوقت ، ولكنى قلت لا ! فلقــد كانا شخصين من تلك الشخوص التى أوغلت فى مجالى الخيال والغرابة الى درجة لا يصــح معها أن يربط انسان مصيره بهما . وكلمة واحدة يمكنها أن تسرى فى الآفاق بعيدا ، بعيدا وتنشر الدمار فى طريقها خلال الزمان ، كما يفعل الرصاص فى الفضاء . وعلى ذلك فلم أقل شيئا ، أما هو ، وهو لا يزال حيث كان فى الشرفة ، مدبرا ظهره الى النور كما لو كان مربوطا ومكمما بفعل كل أعداء الأنسان غير المرئيين فانه لم يصدر منه صوت ولا حركة .

الناشر

مطابع
مؤسسة التضامن العربي ت ٢٠٥٥٦

باشراف

الدكتور
محمد عبد الباسط الحجاجي

[illegible]